طبعة جديدة

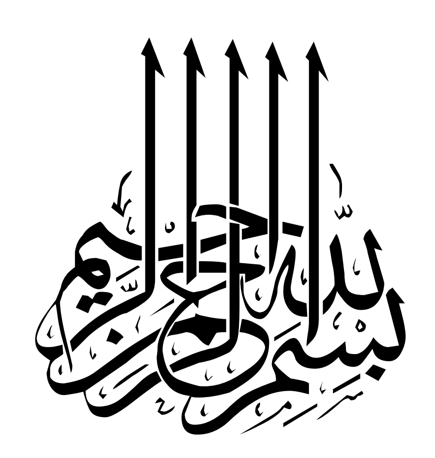


ثائر من الصومال

الملا محمد بن عبد الله حسن

د.عبد الصبور مرزوق

بيت المقدس



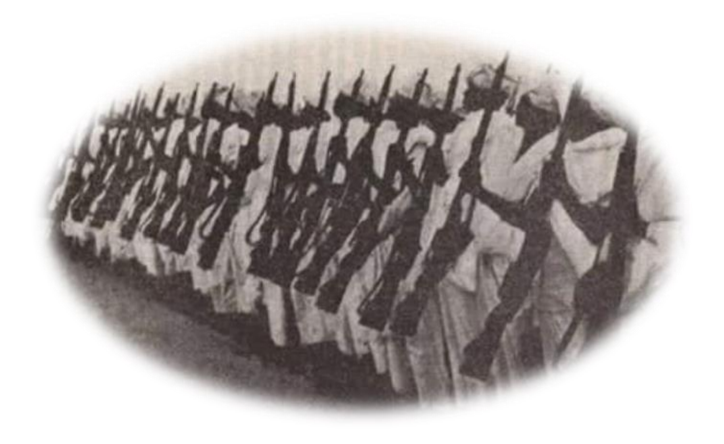
1438 هـ - 2017 م

Baytalmaqdiss44@gmail.com



ثائر من الصومال

الملا محمد بن عبد الله حسن



بقلم

د. عبد الصبور مرزوق رحمه الله

بيت المقدس

مقدمة الناشر

إنها لأمانة عظيمة تلك التي يحملها الكاتب على كاهله حين يخط تفاصيل وأحداث مضت وجرى بها سيل التاريخ، وإنها لأمانة أثقل – أضحت – حفظ ذلك التراث الذي قد يندثر تحت ركام الأسباب ويندرس فلا يعود له الأثر. ومن هذا المنطلق وفي سبيل حفظ الكتب المميّزة التي لابد للمكتبة التاريخية والعربية والإسلامية أن تحفظ نسخة منها على رفوفها، ارتأت "بيت المقدس" أن توفر طبعة جديدة حديثة للكتاب الماتع "ثائر من الصومال".

الكتاب ألّفه الدكتور الفاضل عبد الصبور مرزوق، وهو كتاب يروي قصة الملا "مُحَمَّد بن عبد الله حسن" – رحمه الله – وتفاصيل ثورته التي أعلنها لتحرير بلاده الصومال من ظلم الاستعمارين البريطاني والإيطالي وأعوانهما .. في حقبة ما قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، فكان أن سطر صفحات مشرقة لإباء المسلم وعزة المجاهد وثبات القائد، امتد نورها لأكثر من عشرين سنة، وترك إرثا يفتخر به أجيال من الصوماليين بل والمسلمين عبر الزمن.

ثم إن الكتاب لم يتوفر بنسخة الكترونية تسمح للقارئ بمطالعته على الأجهزة الحديثة – إلا ما ندر– ، وتوفرت منه نسخ ورقية مطبوعة بجودة

ضعيفة لا يمكن إعادة طباعتها بجودات أفضل. وإننا هاهنا قمنا بتفريغ الكتاب وتقديمه بحلة "بيت المقدس" الجديدة عسى أن يكون أمتع في التصفح والقراءة وأن يمتد عمر بقائه أكثر وينتشر فينفع الأجيال القادمة حين تستقي من شجاعة وثبات من سبق!

إنها قصص تتكرر في التاريخ، وسنن الله لا زالت ماضية، فما كان بالأمس قد يعود اليوم أو غدا، ومن لم يقرأ التاريخ فلن يدرك الحكم ولن يبصر المسالك ولن يقدم الحلول.

قراءة ماتعة نرجوها لكم مع قصة هذا البطل المسلم الذي برزت عبقريته بجلاء رغم عوامل النسيان، ولن نسمح بإهمالها كي يقال "هكذا يمضي الرجال ويبقى الأثر" وهذا أثر رجل من رجالات الإسلام في شرق إفريقيا.

ثم خير ختام الحمد لله والصلاة والسلام على خير الأنام مُحَمَّد بن عبد الله.

بيت المقدس

سيرة الكاتب..

همّة متوقدة وبحر زاخر تعكسه مؤلفاته الثمينة التي أورثها المكتبة الإسلامية رحمه الله، إنه عالم الأزهر الشيخ الدكتور الداعية المفكر عبد الصبور مرزوق، المشرف على لجنة تحقيق التراث ونائب المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الذي تردد اسمه في الكثير من المحافل والجامعات ومجالس العلم والمكتبات.

ولد د. عبد الصبور في مركز الباجور في محافظة المنوفية وأتم دراسته في كلية دار العلوم التي تخرج منها في عام 1948م.

عمل مذيعا بالإذاعة المصرية وفي نفس الوقت استمر في التحصيل العلمي، فنال درجة الماجستير في "الخطابة السياسية في مصر منذ بداية الاحتلال حتى إعلان الحماية" ثم أعقبها بالدكتوراه حول "أدب ثورة 1919م في مصر".

عزيمة النيل تفني الصخر حدتها ... فكيف إن مسه بالضيم إنسان

ولنتعرف على همة هذا العلم المثابر، دعونا نستذكر إحدى جلسات المباراة في الخطابة إبان شبابه حين كان طالبا بكلية دار العلوم، والتي اقترُح خلالها

أن يوجه المتسابق خطابه لجمع من ثراة مصر جاؤا ينتظرون كلمته .. فيوجهها إليهم وغايته حثهم على افتداء فلسطين بالمال فإن غيرهم يفتديها بالأرواح.. وحدد للتفكير ساعة واحدة، وجعل للخطابة عشر دقائق لا غير، فارتجز كاتبنا الشاب الأديب عبد الصبور مرزوق بعد تلك الساعة قائلا:

قال لي صاحبي ليعلم ما بي ... أي شئ غدوت منه حزيناً

قلت حرب وفتنة وجحيم ... في فلسطين، أين نلقى المعينا

موطن الوحي أصبح اليوم نهباً ... وعرين الأسود بات مهينا

ثم استرسل بعد ذلك في الموضوع نثراً، وكان مما أجاده : "فلن يزيدنا عسفهم إلا إباء وثورة، ولن يزيدنا كيدهم إلا كفاحاً وقوة، ولن يفل عزيمة الشرقي أنه مهدد، ولن يحول دون نجاحه أنه مستعبد".. ومنه: "فقد شربنا مع الفطام كيف نجالد اليأس فنحيله أملا، وكيف نغالب الأقدار فتزيدنا أجلا، وكيف نستعذب الموت في كفاح المحن، ونستعيد الماضي وإن طال على الماضي الزمن".

ثم عاد إلى ارتجال الشعر في أثناء الخطابة فقال:

فسلوا الأرض في فلسطي ... ن أترضى من بعد طهر برجس

وسلوا المسجد المقدس عنهم ... وهو يبكي بروعة وتأس

(أحرام على بلابله الدو ... ح حلال للطير من كل جنس)

والبيت الأخير لسوقي بك، أتى به على سبيل التضمين.

وبلا شك كان عبد الصبور هو الفائز الأول في مسابقة الخطابة ارتجالا. فكان صورة رائعة لهمة وذكاء متوقد.

وشغل كاتبنا العديد من المناصب المهمة من بينها منصب مدير عام رابطة العالم الإسلامي ثم مساعداً للأمين العام للرابطة، وعمل أيضا أستاذاً لأدب الدعوة بجامعة الملك عبد العزيز بالسعودية لمدة ست سنوات، وقبلها مديراً للمركز الإسلامي في الصومال.

كما خلف وراءه العديد من المؤلفات التي ترجمت إلى العديد من اللغات الأجنبية ومنها كتابه الشهير "الإسلام والقرآن ومقولات ظالمة"، وأشرف أيضا على إصدار العديد من الموسوعات العلمية في مجال الفكر الإسلامى التي أصدرها المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

من مصنفاته الجديرة بالتأمل:

- الغزو الفكري أهدافه ووسائله.
- رسائل إلى عقل الغرب .. وضميره: عالمية الإسلام وإنسانيته.

- معجم الأعلام والموضوعات في القرآن الكريم.
- السيرة النبوية في القرآن الكريم.
- من رحاب السيرة النبوية.
- الأبعاد الغائبة في أزمة الخليج: مدخل الى دراسة واقع الأمة المشحون بالعجز والتخلف.
- الخطابة السياسية في مصر من الاحتلال البريطاني إلى إعلان الحماية.
- حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين والذي شاركه في تأليفه نخبة من العلماء والشيوخ، وهو كتاب يُفَنِّد مائة وسبعة وأربعين شبهة حول الإسلام العظيم.
- ثائر من الصومال (الملا مُحَمَّد بن عبد الله حسن).

من وصاياه التي كان يحرص على إيصالها، ضرورة وجود جهة رسمية تكون مسؤولة مسؤولية كاملة عن عملية تحقيق التراث وجمعه ونشره وحمايته من التحريف، مشيرا إلى المعوقات التي تعترض الباحثين والمحققين في هذا المجال، منها قلة المتخصصين، وصعوبة الحصول على الكتب التراثية، مما أدى إلى عدم بلوغ عملية تحقيق التراث المستوى المطلوب والذي يتناسب مع أهميته.
وكذلك أشار إلى أن ضمان الأمانة لدى محققي التراث لا يمثل مشكلة لكن المشكلة الحقيقية هي عدم وجود متخصصين في هذا المجال أو ندرتهم، لأن مشكلة الأمانة يمكن حسمها بالمراجعة والرقابة، لكن ثمة مشكلة أكبر

تتمثل في إمكانية جمع شتات كتب التراث العربي المتناثرة في كل بلدان العالم تقريبا، مشيرا إلى وجود مركز للتراث العربي في كل دولة أوروبية وهو مفتوح للقراءة والاستفادة.

وطالب د. مرزوق بإنشاء مراكز لتحقيق التراث وحمايته في كل عاصمة عربية، كما طالب بإنشاء كلية للتراث الإسلامي تحافظ عليه وتخلق أجيالا قادرة على حفظه واستيعابه وتقدير دوره في حياتنا الثقافية.

لقد رحل العالم الشيخ الدكتور عبد الصبور مرزوق عن عمر يناهز 82 عاما، بعد أن سجل اسمه كواحد من كبار رجالات الدعوة الإسلامية وأحد أعلام الفكر الإسلامي المعاصر. رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه الفردوس الأعلى في الجنة هو وكل المخلصين لدين الإسلام.



مقدمة المؤلف

مناضل عظيم..

هذا الذي نقف أمام ثورته الصومالية الكبرى لنرى فيها وجها بارز الملامح لشعب إفريقي شقيق ، كافح الاستعمار، وحلفاءه وأعوانه قرابة ربع قرن من الزمان، فما وهن، ولا استكان، حتى سحقته الخيانة، وبعثرت تاريخه قسوة الأحداث.

ومن عجب أن تتحد ، أو تتقارب تلك الأعوام التي كان فيها قطاع رأسي من شرق إفريقية عند المحيط الهندي إلى شرقها الشمالي عند البحر المتوسط يغلي في وقت واحد بالثورة، والنضال ضد الاستعمار والاستبداد، والغزو الخارجي.

ففي الوقت الذي كانت فيه ثورة "الملا" يتضرم أوارها في الصومال، كانت في أقصى الشمال ثورة أخرى مشبوبة الأوار يقودها "أحمد عرابي" ضد التدخل الأجنبي، وضد استبداد الحكام في مصر.

وبين "عرابي" و"الملا" كان "مُحَّد أحمد المهدي" يقود ثورته العارمة في السودان.

من عجيب أن يحدث هذا في أزمنة متقاربة، وفي قطاع جغرافي واحد، وإن دل هذا على شيء، فإنما يؤكد عمق الاستجابة الطبيعية بين شعوب هذه القارة، في طموحهم الأصيل إلى الحرية، وإيمانهم العميق بها، واسترخاصهم الدماء من أجل الحصول عليها.

كما يؤكد — دون شك- التشابه الكبير في الدوافع التي حركت روح الثورة في وجدان هذه الشعوب نتيجة تشابه الظروف التي عرضتهم لها السياسة الاستعمارية الواحدة، التي لعبت بمصير هذا القطاع في وقت واحد، وكانت ناسجة خيوطه كلها ، وهي السياسة الاستعمارية البريطانية..

فوراء، ثورة عرابي... كانت سياسة بريطانيا.

ووراء ثورة المهدي كانت تصرفات وسياسة بريطانيا.

وفي الصومال كان العدو الأول أمام الملا وأمام الدراويش هو سياسة بريطانيا.

فالأطماع البريطانية هي التي ألهبت مشاعر الثوار في هذه المناطق الثلاث وحملتهم على تحدي الزحف الأجنبي على استقلال بلادهم وسيادتها، وخاصة في الصومال التي كان الملا يعلن في كل مناسبة أن بريطانيا عدو بلاده الأول والأخير ، وأنها المسئولة عن كل ما تعانيه من بلاء، على الرغم من اشتراك دول أخرى معها في العدوان على الصومال.

وفي الحقيقة إن الربع الأخير من القرن التاسع عشر يعتبر فترة من أعنف فترات التسابق المحموم بين الدول الأوربية من أجل السيطرة الكاملة على إفريقية.

وبعض هذه الدول كان يهدف إلى السيطرة على أقاليم معينة تتوافر فيها المواد الخام من ذات الأهمية الصناعية والتجارية كالفحم والنحاس والذهب والعاج والقطن والجلود.

وبعضها كانت تهمه الأقاليم والأراضي المنتجة للمواد الغذائية التي لا تتوافر في أوربا أو التي تحتاج إليها وخاصة في حالات الحروب.

وبعضها كان يعنى بالأقاليم والمناطق ذات الأهمية الاستراتيجية التي تجعل من مجرد السيطرة سبيلا للضغط والمساومة من أجل تحقيق مكاسب مختلفة.

وبعضها كان يسعى وراء هذا كله..

مما أدى إلى عقد مؤتمر تنسيق الأطماع الاستعمارية الذي عرف باسم مؤتمر برلين في أواخر عام 1884م.

وفي 26 من فبراير عام 1885م وقع الاتفاق النهائي بين الدول المشتركة في المؤتمر على اقتسام القارة بين انجلترا وفرنسا والبرتغال وإسبانيا والشركاء الاستعماريون الجدد ، بلجيكا وألمانيا وإيطاليا.

وكان من بين قرارات هذا المؤتمر[1]:

[1] افريقية بين الدول الإوربية – دكتور محمد وصفي ص 119.

1-أن احتلال أرض جديدة في إفريقية بوساطة دول من هذه الدول السبع يجب أن يكون فعليا بعد إخطار الدول الأخرى الموقعة على الاتفاق.

2-أن أية دولة ارتبطت بمعاهدات مع السكان الوطنين يكون لها الحق في احتكار التجارة مع هؤلاء السكان، دون تدخل الدول الأخرى.

وقد فتح هذا المؤتمر باب الزحف الاستعماري تجاه إفريقية على مصراعيه وأصبحت كل دولة طامعة تلتهم من أرضنا ما تستطيع ، دون أن تخشى معارضة الآخرين، لأن الآخرين أنفسهم كانوا في شغل بما يقومون بالتهامه من أشلاء الضحية الممزقة.. إفريقية.

ولقد كان القرار الثاني من قرارات مؤتمر برلين أخطرها جميعا بالنسبة لمستقبل كثير من أقاليم إفريقية، التي كان أهلها في مرحلة من الجهل الثقافي والسياسي حالت دون إدراكها لما ورطهم فيه المستعمرون.

فما أكثر ما شهدت الأرض في إفريقية، رجلا أو رجالا من الأوربيين يفدون إلى شيخ القبيلة من القبائل، في يمينهم المال ، والسلطة وحماية الدولة التي يبتغونها وفي يسارهم ورقة صغيرة فيها كلام مكتوب يقال لشيخ القبيله إنه اتفاق تجاري، أو أنه عهد الصداقة والمودة، أو أي كلام آخر لا يصور الحقيقة.

حتى إذا ما بصم الشيخ المخدوع فاجأته الدولة بإعلان حمايتها عليه... وحتى إعلان "الحماية" على ماله من خطر، لم يكن كثيرون من رجال

القبائل يدركون ما ينطوي عليه، بل إن بعضهم كان يتصوره مصلحة، وضمانا ضد أعدائه المحليين.

وقد شهدت إفريقية هذا اللون من معاهدات الحماية الخادعة على يد الألماني "كارل بيترز"[2] مؤسس جمعية "الاستعمار الألماني" الذي استطاع بعد أربعين يوما من وصوله إلى "زنجبار" أن يجمع اثنتي عشرة معاهدة، تعطي لجمعيته "السيادة" على منطقة واسعة من الأراضي الإفريقية بما عليها من منشآت لاستخدامها لمصلحة الاستعمار الألماني.

وبعدها أصبحت خطوات "بيترز" أسلوبا يحتذى في العمل الاستعماري.

ففي عام 1883م نزلت فرنسا إلى مدخل البحر الأحمر قريبا من باب المندب واستطاع مبعوثها الفرنسي "هنري لامبرت" أن يظفر بتوقيع أحد شيوخ القبائل في أقصى شمال الصومال على عقد بيع لقطعة من الأرض قالوا له – كما كان يقول غيرهم – أنها سوف تكون مجرد مرسى للسفن الفرنسية حاملة التجارة، ولم يمض إلا قليل حتى تحول عقد البيع هذا إلى اتفاق سياسي يبيح فرنسا أن تنزل قواتها المسلحة لاحتلال هذه الأرض التي عرفت فيما بعد باسم ميناء "جيبوتي" عاصمة الصومال "الفرنسي".

ولم يكد يمضي عامان على ارتكاز فرنسا في هذه المنطقة حتى سارعت انجلترا إلى احتلال "زيلع، بربرة" رغبة في شل حركة الميناء الفرنسي وضمانا لسلامة مواصلاتها إلى الهند.

[2] التنافس الدولي في شرق إفريقية – د. جلال يحيى ص 172.

وعلى الدرب نفسه سارت الديبلوماسية الإيطالية فانتهزت فرصة اشتراكها في الحصار البحري الذي كان مضروبا على الساحل لكي تجمع توقيعات السلاطين والشيوخ ونجحت في استغلال التنافس بين انجلترا وفرنسا لمصلحتها، فحصلت على تأييد انجلترا لها في السيطرة على منطقة "صوماليا" التي تقع جنوب المنطقة التي احتلتها بريطانيا من أرض الصومال.

ثم شجعتها عل احتلال "عصب" و"مصوع " وغضت الطرف عن توسعها في بقية المنطقة فيما بعد باسم الصومال الإيطالي.

وكانت وجهة النظر الإنجليزية في عطفها على التوسع الإيطالي أن هذا أهون من أن تظفر بالمنطقة دولة قوية كألمانيا يصبح وجودها مبعث خطر حقيقي على الأطماع التوسعية للإنجليز: وخاصة أن المنطقة التي أغرى الطليان بالسيطرة عليها كانت بالنسبة لبقية المناطق تعتبر قليلة الخيرات ، فقيرة في مصادر الثروة إلى الحد الذي جعل أحد رؤساء الوزارة البريطانية وهو اللورد "سالسبرى" يعلق على التوسع الإيطالي ساخرا فيقول: "يجب أن نكون أثرياء مثل الإيطاليين إلى الحد الذي يجعلنا نستطيع أن نقبل أعباء جديدة من هذا النوع"[3].

[3] التنافس الدولي في شرق إفريقية ص 256.

وجدير بالتسجيل أنه لو قدر للقوى العربية الإسلامية، التي كانت نامية ومتوثبة، أن تسود في هذه المنطقة، لما نجح الاستعمار في تمزيق أوصال الشرق الإفريقي على هذا النحو المزعج الذي سجله التاريخ.

ولكن الاستعماريين لم يغفلوا عن خطر هذه القوى العربية الإسلامية النامية ولهذا شرعوا في التخلص منها ومن ثم بدأت المؤامرات المعتدية على القوة العربية الإسلامية المسيطرة في الجنوب، وهي قوة سلطنة "زنجبار" التي كانت لها السيطرة على الساحل، وانتهى الأمر بأن انكمشت داخل حدود "زنجبار" نفسها، بل كانت الخاتمة أن وقعت زنجبار نفسها فريسة الحماية البريطانية.

بعد القضاء على القوة النامية في الجنوب اتجه الاستعماريون صوب الشمال حيث كانت مصر.

والذي يسجله التاريخ أنه في عام 1865م نزل سلطان تركيا لخديو مصر إسماعيل عن ميناءي "سواكن ومصوع" على البحر الأحمر ، وما يتصل بهما إلى الداخل، واتخذت مصر من هذين الميناءين مركزا للمد الإسلامي العربي على شواطيء البحر الأحمر وخليج عدن حتى "رأس جردافوى".

بل قد استطاعت الحملة المصرية التي أقلعت من ميناء السويس في 19 من سبتمبر سنة 1875م أن تنزل في الميناءين الصومالين "براوة" و"كيسمايو" دون أية مقاومة من الأهالي ، الذي كانت المشاعر الدينية تجمع بينهم وبين المصريين.

وأمام زحف القوة النامية القادمة من الشمال فزعت الدول الطامعة، وتناست ما بينها من تنافس، واتفقت كلمة الجميع أولا على ضرورة التخلص من مصر، وبعد أن يصفو الجو منها يمكن التفاهم بشأن الأسلاب.

ولهذا توالت الاتصالات بين قنصل انجلترا في زنجبار ووزارة الخارجية البريطانية ونائب الملكة في الهند ، والقنصل الفرنسي، بقصد اتخاذ خطوة حاسمة تجاه مصر، حتى لا تفرض سلطة دولة إسلامية على علم دولة مسيحية في أحد الموانيء التي تحتلها.

على حد ما قاله "كيرك" قنصل انجلترا في زنجبار لجاسيري قنصل فرنسا بها.[4]

ولقد كان ممكنا أن تقف مصر موقف التحدي مع هذه المؤامرات الاستعمارية وخاصة أن للروابط الروحية بين الشعبين "المصري والصومالي" أثرها في هذا الموقف..؟

ولكن المؤامرة الحقيقية على هذا المد العربي الإسلامي كان قد انبعث خطرها من الداخل، من قلب القوة النامية في مصر، لأن القائد العام للجيش الزاحف كان إنجليزيا، وقائد المدد الذي كان مفروضا أن يصل لتدعيمه كان إنجليزيا هو الآخر..

[4] التنافس الدولي في شرق إفريقية ص 114.

وبمنتهى البساطة نزل القائدان الانجليزيان للجيش المصري عند إرادة دولتهما فنفذا أمر الانسحاب المصري من الصومال ضاربين عرض الحائط بالإرادة العربية والإسلامية.

هكذا كانت ملامح الصور للتسابق الأوربي في شرق إفريقية عامة، وفي الصومال خاصة. أما في الجانب الآخر.. جانب المواطنين أصحاب الأرض.. فلم يكن كله غفلة، ولا استكانة. وإنما كانت في بعضه ثورات وانتفاضات، ومحاولات عنيفة للخلاص.

وكانت قمة هذه المحاولات في الصومال تلك التي قادها المناضل العظيم سيد مُحَمَّد بن عبد الله حسن، الذي شهر سلاحه في وجه الاستعمار، واستمر أكثر من عشرين عاما يناضل، وما أخذ سلاحه من يده أحد غير الموت والذي من أجله نفرد هذا الكتاب.

بقيت كلمة لا بد من تسجيلها في ختام هذه المقدمة ، وهي أنه إذا كانت الثورات الثلاث التي هبت بين القاهرة والسودان والصومال قد منيت جميعا بالفشل في الميدان العسكري أو السياسي، فقد استطاعت جميعها أن تغرس في الوجدان القومي بذور الاستقلال والحرية ، وأن تكون المرحلة التي لا بد منها في قصة الخلاص..

ففي القاهرة قامت ثورة 23 يوليو الكبرى لتصل إلى نهاية الشوط الذي سار العرابيون خطوة فيه..

وفي السودان قامت الثورة المعاصرة لتستكمل لشعب السودان ما بدأه المهدي.

وفي الصومال نرى علم الحرية يخفق منذ يوليو سنة 1960م محققا آمال الثائر الصومالي العظيم السيد مُحَمَّد، ولما يمض على وفاته أكثر من أربعين عاما.

هذا .. وإن كانت ثم ميزة يستطيع هذا البحث أن ينفرد بها عما كتب حول هذا الثائر العظيم من مؤلفات وأبحاث.. فتلك أنه آثر الصدق واستهدف – فقط – تصوير الحقيقة. كما نشرت فيه وثائق ورسائل وأحداث لم تنشر حتى اليوم إلا في هذه المرة.. وخاصة في مكتبتنا العربية.

عبد الصبور مرزوق.

" كيف نشأ الملا؟ "

في يوم لا يذكره التاريخ من عام 1240 هـ، الموافق عام 1825م شهدت أرض "الأوجادين" في الصومال رجلا يسرع الخطى صاعدا إلى الشمال ، تاركا من ورائه أهله وأقاربه وما ورثه من مال ومتاع في مكان يسمى "بيجو" على الشاطئ الشرقي لنهر "شبيلى".

ولم يكن هذا الرجل غير الشيخ حسن نور الذي صنع حفيده كله هذا التاريخ الثوري في الصومال.

واصل الرجل سفره حتى استقر في منطقة قبائل "رولبهنته" وانقطع فيها لعبادة ربه بعيدا عن مشاغل الحياة.

وكان عمره في هذه الفترة خمسة وأربعين عاما، ولم يكن قد تزوج بعد لأنه كان مشغولا باكتساب العلوم والعبادات والطاعات.

وفي مكان منعزل عن القرى والقبائل ابتنى الرجل مسجدا، وزاوية لسكناه ومن هذا المكان انطلقت شهرته بين القبائل لما كان يتصف به من زهد وتقوى، ولما كان يتحقق على يديه من غرائب الأمور.

وكان العلماء من رجال الدين يبالغون في احترامه لترفعه عن شئون الدنيا وزهده في مغريات الحياة، وقد بلغ احترامهم له درجة.. أنهم كانوا لا يوجهون أرجلهم نحايته عند النوم.

وفي هذا المهجر الجديد أمضى الشيخ ثمانية وأربعين عاما، تزوجل خلالها وأنجب اثني عشر ولدا وأحدى عشر بنتا. وكان أكبر أبنائه سنا وجاها ومنزلة هو الشيخ عبد الله والد المجاهد الصومالي الكبير.

وقد توفي هذا الشيخ في 19 من ذي الحجة عام 1291هـ الموافق 6 من يناير عام 1875م، ودفن بمكان قريب لسكنه يسمى "ياهيل" وقبره مشهور هناك، تزوره القبائل الصومالية.

تلك قصة الجد..

أما الوالد:

فهو الشيخ عبد الله بن حسن نور، وقد ولد في زاوية "عسور" في 12 من ربيع الأول سنة 1252هـ الموافق 25 يونيو عام 1836م من أم تسمى خديجة بنت جامع من إحدى بطون "دولبهنته" وقد تأثر بوالده في منهجه الديني فحفظ القرآن وتعلم الكثير من العلوم الدينية.

ولم يكن الوالد كالجد رجل خلوة وانقطاع كأبيه، ولكنه كان مجتمع بالتعبير والحديث، يتصل بالناس، ويخالط جميع القبائل ويتصدى لحل مشكلاتها ويخضع لما يخضعون له من ظروف، وكان معروفا بالحلم والصبر والكرم.

وفي السادسة والعشرين من عمره تزوج أولى نسائه واسمها "تمر بنت صيد" وتنتمي إلى قبائل "دولهبنته" وقد أنجبت له عشرة أولاد أكبرهم هو المجاهد الصومالي السيد مُحَمَّد.

أما مجموع أولاد الشيخ عبد الله فقد بلغوا ثلاثين منهم سبعة عشر من الذكور ، وقد توفي في نهار الجمعة 14 من المحرم سنة 1332هـ الموافق 12 من ديسمبر سنة 1913م، ودفن في مدينة "تليح" التي كانت عاصمة ولده.

وبعده بثلاث سنوات توفيت زوجته أم المجاهد الكبير ، ودفنت في العاصمة نفسها.

مولد المجاهد الصومالي:

أما المجاهد الصومالي الكبير السيد مُحَمَّد فقد ولد عند بئر يسمى "سع مديق" ومعناها بالعربية البئر الذي لا يكفي ماؤه بقرة ، في منطقة بين المراعي، والأراضي الخصبة الموفورة المياه، وذلك في غرة ذي القعدة سنة 1280 هـ الموافق 7 من أبريل سنة 1864م.

وقد شب الصغير في أرض أخواله "دولبهنته" تحت رعاية والده ومنذ طفولته كانت تبدو عليه دلائل الزعامة ومخايل الصدارة، إذ كان يميل إلى قيادة الأطفال في ميادين اللعب، ويهوى الفروسية، ولمح أبوه هذه المخايل فأخذ يعوده على الصبر والتقشف، واحتمال خشونة البادية.

وفي الثامنة من عمره أسلمه والده إلى أحد علماء "الأوجادين" الذي علمه القرآن، وبعض العلوم الشرعية.

وحين بلغ الحادي عشرة كان قد حفظ القرآن ، وانتهى من الدراسة في "الكتاب" وكان عليه أن ينتقل إلى مدرسة أخرى، ولكن معلمه طلب إليه أن يساعده في تعليم الأطفال لما كان عليه من كفاية وأمانة وذكاء.

فأخذ السيد مُحَمَّد يمارس المهمة صباحا، ويتصل بالمشايخ المحليين ليتلقى عنهم العلوم الشرعية والأدبية في المساء، وكانت تلك واحدة من فرصه المبكرة التي تدرب فيها على قيادة الآخرين وتعليمهم، وأتاحت له تنمية أكثر من خصلة من خصال الزعامة.

وفي التاسعة عشرة من عمره كان قد توافر له رصيد علمي يؤهله للفتيا والتدريس على مستوى أكبر من مستوى أطفال "الكتاب" ومن ثم خرج إلى المساجد ليلقي فيها دروسه، وعرف بين مواطنيه باسم الشيخ مُحَمَّد.

ولكن طموحه ، ورغبته في الاستزادة من العلم لم يقفا به عند هذا الحد، فأخذ يتطلع حواليه فلم يجد شفاء نفسه عند العلماء المحليين الذين كان قد استنفد ما عندهم ومن ثم استأذن والديه في السفر يطلب المزيد من العلم.

وقد أمضى السيد من عمره قرابة عشر سنوات في رحلات متصلة إلى جميع أنحاء البلاد الصومالية ، لا يسمع فيها عن شيخ متخصص في فرع من فروع المعرفة إلا قصده وتتلمذ عليه، وجلس منه مجلس التلميذ والمريد حتى

يتقن ما عنده ثم يتحول عنه إلى غيره، وهكذا حتى أتم تحصيل ما لدى المشايخ الصوماليين والعرب الذين بلغت عدتهم اثنين وسبعين شيخا.

وخلال السنوات العشر هذه التي أمضاها في التأهيل العلمي كان يعود إلى موطنه الأول كل عام أو عامين حيث يقيم مع والديه شهرا أو يزيد قليلا، ويرحل بعده ليواصل تعليمه.

وبعدما أتم بعثاته الداخلية هذه أقام بعض الوقت يمارس مهنة التعليم للمئات من التلاميذ الذين كانوا يلتفون حوله.

في جوار الرسول:

وما أن اقترب السيد من نهاية الحلقة الثالثة حتى فكر في الحج وزيارة قبر الرسول صلوات الله عليه ، فاعتزم السفر وبصحبته ثلاثة عشر رجلا من خاصته وهم :

1-الحاج آدم بن صيد. 8 - الحاج علي يرو.

2-الحاج مُحَمَّد بن صيد. 9- الحاج أحمد بن نوح.

3-الحاج جامع بن ورسم. 10- الحاج حسن عرب.

4-الحاج جامع بن نوح. 11- الحاج جامع عاشور.

5-الحاج علي طير. 12- الحاج عمر ورسم.

6-الحاج يوسف بي. 13- الحاج أحمد بن مرسي.

وقد استشهد السبعة الأولون من هؤلاء في المعارك التي قادها السيد فيما بعد، والأول والثاني منهم أخواله وكلهم من قبائل دولبهنته.

وهناك في أرض الرسول التقى السيد مُحَّد في مكة بآخر مشايخه وأكثرهم تأثيرا على روحه ، وأعظمهم سلطانا عليه، وهو الشيخ مُحَّد صالح مؤسس الطريقة الصالحية، وعنه أخذ العهد على التزام إحدى الطرق الصوفية.

وبعد ما يقرب من عامين في أرض الرسول عاد ورفاقه إلى وطنه الذي كان يعرف إذا ذاك باسم "الصومال البريطاني" في 28 من صفر سنة 1313هـ الموافق 18 من أغسطس سنة 1895م.

المعاهدة السرية ، والبذور الأولى للثورة:

في جوار الثائر الأعظم صلوات الله عليه بدأ السيد مُحَّد يعد نفسه، ويعد الطليعة الأولى للعمل الكبير.

ويوما ما من أيام رحلته في الحجاز، وبينما كان يمشي ورفاقه الذين سبق ذكر أسمائهم فوق الرمال الملتهبة بحرارة الشمس ، وبين الجبال الوعرة في أرض الحجاز..

في هذا اليوم ، وكانوا متجهين إلى زيارة الرسول تحدث السيد مُحَّد إلى رفاقه وتلاميذه هؤلاء فذكرهم بما لقيه الرسول الأعظم من أهوال ومتاعب حتى رفع لواء هذا الدين ، وبدل أمر هذه الأمة، وكيف صمد أصحابه معه،

وصبروا وصابروا وكيف تحملوا متاعب الغربة وفراق الأموال والأولاد، حتى قهروا كل أعدائهم، وحرروا الجزيرة من أدران الشرك وطغيان المستبدين.

استمر السيد يحدث رفاقه إلى أن قال:

"إن الدول الأربع التي تقتسم بلادنا، وتستعبد أبناءنا، وتهيننا في أرضنا وتفسد أخلاقنا، وتزيف عقائدنا، وتسخر شعبنا كله لمصالحها الاستعمارية.

هذه الدول الأربع أجنبية عنا، لا تجمعنا وإياها رابط جنس ولا دين، ولذا أريد أن تعاهدوني في الحرم النبوي على حرب أولئك الغازين أعداء الشرف والدين وأن تكون هذه المعاهدة سرية مكتومة بيننا حتى يحين الوقت الذي نستطيع فيه تنفيذ ما اعتزمناه بإرادة الله".

وفي الحرم النبوي كانت أيدي تلاميذ السيد ورفاقه في الجهاد تتلاقى من فوق يده لتؤكد العزم على خوض المعارك ، وإعلان الجهاد لتحرير الوطن المعتدى عليه، حتى لو اقتضى الأمر أن يكونوا وحدهم في ميدان الجهاد.

الانجليز، والمظلة، وثورة الوجدان:

ولقد ظهرت آثار هذا الاتفاق السري بصورة تطبيقية على مشاعر السيد مُحَمَّد منذ أول لحظة وقعت عيناه فيها على الانجليز في عدن، وهو في طريق عودته إلى الصومال.

فقد حدث أن نزل هو وبعض رفاقه إلى ميناء "التواهي" في عدن حيث ترسو السفن والبواخر الانجليزية، وكانت في يده "مظلته" فأراد أحد الانجليز

أن يتناولها من يده ليتفرج عليها فلم يستجب السيد إلى طلبه، وابتعد إلى مكان آخر، فتبعه الانجليزي وجذبها من يده بقوة واستعلاء.

فما كان من السيد مُحَمَّد إلا أن دفعه بقوة وشدة فسقط في مياه البحر. فثار الانجليز ورأوا معاقبته بالاعتقال والسجن لولا تدخل أحد رجال الشرطة العدنية وكان من الصوماليين المعجبين بالشيخ والمستمعين إلى مواعظه من قبل، واسمه علي بن قاج من قبيلة إسحق.

ومن عدن واصل السيد مُحَمَّد سفره إلى بربرة عاصمة الصومال "الانجليزي" إذا ذاك ، حيث شرع في الإعداد للجهاد والتنظيم له.

فأخذ يلقي الخطب الحماسية في المساجد ، والمحافل العامة يهاجم فيها المستعمرين وعملاءهم وخاصة من أسماهم "علماء السوء" الذين يسكتون عن مهاجمة الاستعمار، أو يهادنون سياسته أو يدعون له بطريقة سلبية أو إيجابية قاصدا بذلك إلى تشكيك الشعب فيهم وكشف حقيقة مواقفهم.

ووراء هذا كانت الموضوعات التي تقوم عليها دروسه ومواعظه لتلاميذه هي الموضوعات المتعلقة بالجهاد والموت في سبيل الله وكذا تحديد موقف الدين من موالاة أعداء الإسلام وإبراز صفات المنافقين الذين يسترون نفاقهم بآراء تصرفات ظاهرها التعقل وباطنها الجبن وخيانة الله والوطن.

ولإعداد التلاميذ والخاصة أنشأ مدرستين أحداهما في "بربرة" والثانية في "بوهودل" من أرض أخواله قبائل "دولبهنته".

السيد مُحَمَّد في السجن:

ولم تكن حملات التعبئة هذه بالشيء الهيّن الذي يغفل المستعمرون عن إدراك خطره، أو يستطيعون تجاهله.

ولما لم يكن بوسعهم أن يقفوا مكتوفي الأيدي إزاء هذا النشاط، فقد اتجه تفكيرهم إلى حرمانه من الاتصال بالجماهير عن طريق إلقائه في السجن، وقد سنحت لهم الفرصة عندما أقدم أحد العلماء الموالين للسيد مُحَمَّد على عقد زواج رجل فقير دون إذن القاضي لأن الرجل لم يكن يملك الرسوم المقرر دفعها للقاضي في مثل هذه الحالة.

ولما علم القاضي استدعى هذا العالم لمحاكمته، فنمى الخبر إلى السيد مُحَمَّد فأسرع من فوره إلى العالم المكروب، وطلب إليه أن يلقي التبعة على السيد مُحَمَّد شخصيا، ويدعي أنه هو الذي عقد هذا الزواج.

واستدعي السيد مُحَمَّد فوافق على أنه المسئول عما حدث فذهبوا به إلى السجن في انتظار المحاكمة.

وقد شرع في داخل السجن يلقي الخطب الحماسية المثيرة ضد المستعمرين وأعوانهم، ولم يمض أسبوع على دخوله السجن حتى ثار السجناء عل الحراس وتمردوا.

وما أن علم الحاكم الانجليزي بما حدث حتى أمر بإطلاق سراح السيد مُحَمَّد دون مشورة القاضي.

وهكذا كان السجن إحدى الفرص التي اغتنمها السيد مُحَّد ليعلن فيها عن مزيد من التحدي لسلطات الاستعمار وأعوانه، مما اضطرهم إلى الافراج عنه كما رأينا.

ولكنهم لم يتوقفوا عن مقاومته، بل استخدموا ضده سلاح التضليل وتزييف ما يصدر عنه على نحو يسئ إليه ويكون عليه لا له.. كما حدث في الموقف الآتي:

رجل اسمه "أوقاس" كان يقيم في بربرة، وكان من العلماء الموالين للادارة الانجليزية ومن المشهورين بأكل شجرة "القات" المخدرة.

وكان السيد مُحَّد ممن يحرمون هذه الشجرة، ويدعو إلى عدم تناولها لما يترتب على أكلها من أضرار بالصحة وبالشخصية، وبعقل الإنسان ، وكان السيد مُحَّد يعتبرها في حكم الخمر وكل المسكرات لما يترتب عليها من ذهاب العقل.

فقصد يوما مجلس هذا الرجل "أوقاس" كي ينهاه عن أكل القات مؤكدا له أن مرضى الإدمان لا يرجى منهم أن يدفعوا عن أعراضهم ولا عن بلادهم، وأن ما ينفق عليها يكون على حساب الأولاد والعائلة.. الخ.

وفي أثناء النقاش قال السيد مُحَّد "إن كل مسكر حرام ولو كان سمن الكباش" ولم ينتصح الرجل بما قاله السيد مُحَّد بل زادته النصيحة حقدا على حقده فخرج يشيع في الناس أن السيد مُحَّد يحرم سمن الكباش. ولم يكفه

ذلك فاتصل بالحكومة الانجليزية ينصح لها بسجن السيد مُحَمَّد قبل أن يزداد خطره.

على طريق الزعامة:

وكانت تلك المواقف ومثيلاتها من أسباب شهرة السيد مُحَمَّد ، فبدأت زعامته تأخذ طريقها إلى قلوب الجماهير وأخذ التفاف الصوماليين يزداد حوله على مدى الأيام. وكانت الحادثة الشهيرة التي ارتكبها أحد المبشرين بقتله "المؤذن" بمثابة شرارة أشعلت استعداد السيد للإعلان الصريح عن مبادئه والمطالبة بها.

فقد حدث في عام 1315 هـ الموافق 1897م أن بنى المبشرون مدرسة للتبشير في "بربرة" وأخرى في "ديمولي" تحت سفح جبال "شيخ".

وأثبتت الأيام أن الهدف من المدرستين لم يكن التعليم بقدر ما كان الدعوة إلى معتقدات دينية، يراد من ورائها تحويل الصوماليين عن الإسلام إلى المسيحية.

ويبدو أن المبشرين الذين انتدبوا لهذه المهمة كان ينقصهم الكثير من اللباقة والمرونة، فلم يستطيعوا الملاءمة بين أهدافهم، وبين ظروف الصوماليين كشعب متحمس للإسلام، ولم يستطيعوا تكييف أنفسهم على صورة مناسبة للموقف، مما أدى إلى ثورة الأهالي عليهم، وهدم إحدى المدرستين،

وهي التي كانت في "ديمولي" وهرب المبشرون منها إلى "بربرة" حيث بقيت مدرستها تباشر نشاطها التبشيري الواسع في حماية السلطات الإنجليزية.

ومرة أخرى تقدم الصوماليون إلى الحكومة الانجليزية باحتجاج على ما كان يقوم به المبشرون من تحد لمقدسات الشعب، ولكن احتجاجاتهم ذهبت أدراج الرياح.

وفي يوم لا يذكره التاريخ من عام 1897م أطلق أحد المبشرين في العاصمة "بربرة" الرصاص على المؤذن في مسجد كان قريبا إلى المدرسة بدعوى أنه قد أزعجه من نومه بالأذان.

وكان الحادث بما أحاط به من ملابسات وظروف ذا تأثير عنيف على مشاعر الشعب الصومالي فخرجت العاصمة "بربرة" عن بكرة أبيها ثائرة على المبشرين وكان قائد هذه الثورة وحامل لوائها هو السيد مُحَمَّد ابن عبد الله حسن.

وتفاقم الموقف بين الفريقين: الثوار الصوماليون بمشاعرهم المجروحة والمبشرون الأجانب المؤيدون بالاحتلال البريطاني، ولم ينته الموقف إلا بعد الاتفاق على ما يأتي:

1- طرد المبشرين الموجودين فورا، وقد تم هذا بالفعل وتم ترحيلهم وكذلك الأولاد الذين اعتنقوا المسيحية معهم إلى "عدن".
2- عدم السماح لأحد منهم بالعودة إلى الصومال البريطاني ثانية.
3- منع بناء الكنائس في البلاد.

4-منع فتح الحوانيت لبيع الخمور والمخدرات.

وبهذا سكنت الثورة الشعبية ، واستمر العمل بهذا الاتفاق طوال حياة السيد مُحَمَّد، وبعد مماته أكثر من ثلاثين عاما أي حتى سنة 1950م تقريبا.

ولقد كان هذا الحادث بمثابة نقطة البداية في دخول "الملا السيد مُحَمَّد" إلى الحياة الصومالية العامة من بابها الواسع ، وبدأت ملامح ثورته ، واتجاهاتها تتحد إذ ثبت له أن لا سبيل لتخليص الشعب إلا بالإعداد لثورة كبيرة مسلحة، وكانت عملية الإعداد عنده تقوم على ما يأتي:

1-التعبئة القومية الشاملة.

2-إعداد التلاميذ والأنصار وتنظيمهم للقتال.

3-تجهيز الأسلحة من مصادرها.

التعتبئة عند الملا:

والتعبئة الروحية بالنسبة لثورة الملا كانت هي العصب الحساس فيها والقلب النابض لها، بل أنها كانت أقوى سلاح يدخره الملا عندما تعصف الأحداث. ولو ألقينا نظرة على تخطيط الملا للثورة، وطريقته في التنظيم الإداري والعسكري لها لوضح لنا مبلغ اعتماده على الرجال الذين تم إعدادهم روحيا وأثبتت الأحداث تميزهم في ذلك.

فهو مثلا يدخر خاصة تلاميذه أي يدخر الصفوة التي تم إعدادها الروحي بامتياز ليوجهها لحرب الإنجليز لأنهم في نظره أقوى العناصر وأصلبها عودا عند التجربة.

وسائل التعبئة:

وطريقة السيد مُحَّد في التعبئة القومية كانت الطريقة المثلى الملائمة لظروفه وإمكانيات ثورته بالنسبة لزمنه.

فالكلمة المنطوقة عنده هي الأساس في كل عمليات التعبئة سواء كانت الكلمة خطبة أو قصيدة من الشعر.

وكان استخدام الكلمة المنطوقة شيئا —كما قلنا– تفرضه الظروف. وكان في الوقت نفسه من دلائل وعي الملا بأنواع الأسلحة واختلاف تأثيرها. فالكلمة المنطوقة تكتسب تأثيرا أكثر من اشتراك صاحبها في إلقائها مما يضاعف تأثيرها، ويمنحها مزيدا من القوة والفعالية. وهذا نموذج من خطبه في إحدى حملات التعبئة في 27 من رجب سنة 1314هـ الموافق 21 من ديسمبر 1896م. قال:

الحمد لله الذي قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، نصر عباده المتقين، وأعز المجاهدين منهم وهزم أعداءهم الكافرين.

وأشهد أن سيدنا ونبينا ومولانا محمدًا عبده ورسوله وخيرة عباده صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن الله سبحانه وتعالى أذن في القتال للشعوب المظلومة في دينها ، المهضومة في حقوقها وحريتها، المغلوبة على بلادها وسيادتها حيث قال : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾.

ونحن من ضمن تلك الشعوب المأذونة للقتال.. حيث ظلمنا في ديننا، وغلبنا على بلادنا وحريتنا، فهذه الدول الأربع التي دخلت بلادنا من جميع الأنحاء، واقتسمتها كأنها تركة، وهم الورثة، وأحدقت بنا كما يحدق السوار بالمعصم، وليس لها غرض إلا أن يبدلوا ديننا الإسلامي وأن يفسدوا أخلاقنا وعقيدتنا، وأن يسلبوا حريتنا وكرامتنا وأن يهينوا مقدساتنا، ويستأثروا بخيرات أرضنا ، وهم مع هذا غزاة أجانب عنا لا يشاركوننا في بلادنا.

والرسول ﷺ قد جاهد المشركين من العرب لما ظلموه في دينه وحريته ، وآذوا أتباعه وصدوا بينه وبين نشر دعوته في الناس ، مع أنهم كانوا مشاركين له في الوطن العربي، ولم يكونوا دخلاء فيه.

أفلا تكون لنا به أسوة حسنة هو الذي قال الله في شأنه ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

أيها المستمعون:

لا تحسبوا أن حظنا مع الإنجليز والحبشة وفرنسا وإيطاليا يكون أحسن من حظ الأمم التي استعمروها قبلنا.

انظروا إلى ملك الحبشة الذي أرسل في هذا العام جيشا عرمرما كبيرا ليبيد ويستأصل سكان "شبيلة" الصوماليين، ويفعل بهم ما فعله في صومال هرر منذ عشر سنوات من أسر النساء والأطفال ومصادرة جميع الممتلكات وإراقة دماء الألوف في سور المدينة، وتخريب المساجد والمعابد الإسلامية ولكن الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن تكون "شبيلة" وسكانها الصوماليون مثل هرر في ذلك الوقت، بل جرت المقادير بانهزام الحبشة أمام الصوماليين في معركة "مستحيل".

فإذن كان الاستعمار على ما ذكرته لكم، فما ظنكم بالاستعمار الجاثم على صدورنا؟ إن الاستعمار الحبشي كمرض الحمى ولكن الاستعمار الأوربي كمرض السلّ.

أيها المستمعون:

كيف نطمئن لسيطرة أجنبي لا يجمعنا وإياه جنس ولا دين ولا لغة ولا وطن، ولا يضمر لنا إلا الحقد والشر؟ ويعمل دائما لتمزيق وحدتنا وتحطيم قوميتنا وكرامتنا؟

أيها المستمعون:

إذا لم نقم لنتحرر من الاستعباد والاستذلال بعزيمة قوية ، إذا لم نوحد صفوفنا في سبيل ذلك فمن الذين يؤدون عنا هذا الواجب؟ ويدفعون أعداء الدين والحرية عنا وعن بلادنا وعن عقيدتنا وأخلاقنا؟

إن الله سبحانه وتعالى قد اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ليقاتلوا في سبيله ، ألا نساهم في هذا البيع؟

إن الشياطين والمستعمرين عدوان مشتركان في تضليل الناس عن صراط الله المستقيم وعن سلوك سبيل الجنة، ولكن المستعمرين يزيدون على الشياطين أنهم يسلبون الناس جميع أنواع متاع الحياة الدنيا مهما يكن شكلها وإن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ فلنتخذهم أعداء أشد مكرا وحيلة من الشياطين.

أيها المستمعون:

لا تحسبوا أن الله تعالى يتركنا بمجرد قولنا إننا مؤمنون بدون أن يبتلينا في ادعاء الإيمان، وبدون إظهار الصادقين والكاذبين منا في ذلك. قال الله

تعالى: ﴿ الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذِبِينَ ﴾.

ولتحقيق هذه الآية اختبرنا الله بهذه الدول القوية التي تستعبدنا في أرضنا ليظهر للناس ما إذا كنا مؤمنين حقا أو منافقين مذبذبين.

أنا أعلم وأنتم تعلمون أن منا وفينا من يبيعون بلادهم وزعامتهم لأعدائهم وأعداء بلادهم وكتابهم، ثم يدعون زعامة خيالية وهمية.

وأن منا، وأن فينا علماء دجالين يحرفون الكلم عن مواضعه ويفتون الناس بأن طاعة الدول المستعمرة واجبة لأنهم من أولي الأمر الذين قال الله فيهم ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ ويفتنونهم أيضا بأن وقت الجهاد متأخر إلى ظهور المهدي المنتظر وأن من جاهد في هذا الوقت فقد وقع في الحرام لأنه ألقى بنفسه إلى التهلكة التي نهانا الله عنها.

ويفتون أيضا بأن عساكر الكفار المستعمرين الذين يحاربون المسلمين ويجبرونهم على الاستسلام للكفار لا يؤثر ذلك في إيمانهم ما داموا يرفعون ويخفضون رءوسهم في الصلاة..

حتى أضلوا كثيرا من السذج والجهلاء بتلك الفتاوى الكاذبة المضادة للعقل والنصوص الشرعية.

وإنما كانت فتاواهم مضادة للعقل لأنه إذا كان ملك من ملوك الأرض في حرب ونضال مع ملك آخر فقال له بعض جنوده نحن معك ونحن من جنودك وقت استلام المرتبات الشهرية، ووقت التمرينات العسكرية نرفع

أيدينا إلى أعلى رءوسنا لتعظيمك وأداء تحيتك، فهل تظنون هذا الملك ولو كان من أحمق الملوك وأقلهم سياسة وحذرا أن يقبل ذلك منهم وهو يراهم وقت الحرب بعيني رأسه في صف الملك الآخر الذي يحاربه ؟.. كلا والله ثم كلا.

وفتاواهم كذلك مخالفة للنصوص الشرعية لأن الله تعالى قال في كتابه العزيز: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الكافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾.

وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الكافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾.

وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.﴾

وقال: ﴿ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾.

وقال: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الكفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾.

وقال: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴾.

وقال:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾.

أتظنون أيها الحاضرون بعدما خاطبنا الله بهذه الآيات أن يكون راضيا عن الذين يحملون سلاح الكفار ويحاربون به المسلمين، ويرغمونهم على الاستسلام للمستعمرين؟ وهل يقبل منهم مجرد رفع الرءوس وخفضها في المساجد؟ كلا والله ثم كلا.. أو هل تصدقون أن الله الذي قال في كتابه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ هل يأمرنا بأن نطيع الكفار ما داموا يحكموننا بحجة أنهم من أولي الأمر. ومتى دخلوا تحت الضمير في "منكم" حتى نطيعهم؟

وهل تقبلون أيها السامعون من أولئك الدجالين قولهم : إن وقت الجهاد متأخر إلى أن يخرج المهدي المنتظر؟ وإذا كان هذا صحيحا فلماذا قال الله سبحانه ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ..﴾ الآية.

ولماذا قال: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

ولماذا جاهد أهل التوراة والانجيل؟

ولماذا جاهد سيدنا مُحَّمد صلوات الله عليه وصحابته؟

حقا أن أولئك العلماء من جملة علماء السوء الذي قال في شأنهم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الكتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

إن سماسرة هذا الدين والوطن والشرف هؤلاء ليس لهم خلاق في الدنيا ولا في الآخرة ولهم الذل والخزي والعار في الدارين.

واعلموا أنه ليس للإنسان إلا ما سعى وأن الله سبحانه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، سواء أكانوا في نعمة ورفاهية أم كانوا في ذل واستعباد فالويل ثم الويل لأمة تبيع بلادها وعزها ودينها بدريهمات تؤخذ منها ويرد بعضها عليها.

والغباوة والحماقة لأولئك الذين يرجون العزة والشرف والثروة من أمم لم تأت إلى بلادنا إلا لهدم شرفنا وإفساد عقيدتنا ونهب أموالنا واسترقاق شعبنا والتحكم في أرضنا وأرواحنا.

والسلام عليكم ورحمة الله إذا عملتم بكتابكم وعاديتم أعداء دينكم.

"الاستعداد للجهاد"



ولم تكن الخطابة وإلهاب المشاعر هي كل شيء عند "الملا" الذي صمم على مواجه أعداء بلاده في معركة حاسمة تستخدم فيها اللغة التي لا يفهم المستعمرون غيرها، لغة الجهاد المسلح، وانتزاع الاستقلال والحرية بالدماء والفداء.

ولتحقيق هذا الهدف شرع "الملا " في تكوين الفرقة الخاصة المعروفة باسم "الدراويش" والتي كان يتم تكوينها على أساس اختيار دقيق للأشخاص يراعي فيه ضرورة توافر اللياقة البدنية الممتازة ، والمهارة الرائعة في القتال.

وكان يهدف من وراء تسميتهم بالدراويش أن يرتفع بثورته عن التسميات الحزبية والقبلية المثيرة للشحناء والخلاف.

وكانت علامتهم المميزة في العمائم البيض والمسابح التي تتحرك حباتها مع حركات الألسن الدائبة بذكر الله، وكانت نساؤهم تتميزن بارتداء الملابس الساترة لكل الجسد فيما عدا الوجه والكفين، ولم يكن يسمح للغريب دخول بيوتهم إلا بإذن على حسب ما تقضي به الشريعة.

أما غير الدراويش من القبائل المرتبطة به، والموالية له فقد ألزمها حفظ الشعائر الإسلامية للدين من صلاة وصيام وكانت تلك القبائل ترفع إليه زكاة أموالها للتصرف فيها على حسب أوامر الدين.

وفيما وراء الإعداد النفسي والمعنوي للجهاد استأجر "الملا" كثيرا من الحدادين ليجهزوا للدراويش الرماح والسيوف والنبال والخناجر والقسي.

واستطاع في مركزه الأول في "قري وين" توفير عدد قليل من الأسلحة النارية لم يكن يجاوز ثلاثين بندقية واثنتين وسبعين غدارة . كما توافرت لديه خيول كثيرة تعد بالآلاف، ومن بينها فرساه المشهوران.

طود مير: أي الدوار في الصحراء.

وعلن سد: أي حامل اللواء.

أعين الأعداء ترقب:

وبالطبع لم تكن السلطات الاستعمارية وخاصة الانجليزية بغافلة عما يقوم به "الملا" من نشاط، وما هو بصدده من تدابير، لأنه كان شيئا أكبر مما يمكن إخفاؤه، وأخطر مما يستطاع تجاهله وخاصة نظر المستعمرين.

ولهذا بدأت انجلترا عملها للحيلولة دون تنفيذ المخطط الذي اعتزم الدراويش القيام به، فأخذت تتعقبهم، وتهاجمهم حين يكونون ، وتؤلب القبائل عليهم، وتحشد الرعايا والأنصار لقتالهم.

أما من جانب الدراويش فلم يحاولوا في البداية أن يدخلوا مع المستعمرين في معركة كبيرة قبل أن يستكملوا استعدادهم، ولهذا نقلوا مركزهم من "قري وين" إلى "ودام كو" ومنها إلى "دريم عد" لكي يبعدوا ما استطاعوا عن الرقابة والحصار الاستعماريين، ويتيحوا لأنفسهم فرصة يستكملون فيها التدريب العسكري، وإعداد ما ينقصهم من سلاح وعتاد.

وقد نجح الملا نجاحا رائعا في إعداد دراويشه وتنمية عددهم خلال زمن يسير، فاستطاع في مدى عامين أن يرتفع بتعدادهم من ألف إلى ثلاثة عشر ألفا أكثرهم من الفرسان.

محاولة للإغراء:

وكانت الأخبار المتجمعة لدى المستعمرين تؤكد لهم أن مركز الملا يزداد رسوخا في كل يوم وأن خطره يتضاعف بمرور الزمن، فاعتزمت الإدارة الانجليزية في الصومال القيام بعملية "جس نبض" للملا نفسه وللقبائل الموالية له.

أما بالنسبة للقبائل فقد سيرت الحكومة البريطانية وحدات من الجنود تتجه كل واحدة منها إلى قبيلة للتعرف على أحوالها، واختبار مدى صلتها بالملا

وولائها له ومحاولة اجتذاب العناصر التي لا تزال في موقف الحياد إلى الصف الاستعماري قبل أن يكتسبها الملا.

وقد توغلت إحدى الوحدات ، وكان قوامها خمسة عشر جنديا يصحبهم أحد التراجمة الصوماليين، توقفوا في أرض قبيلة موالية للدراويش، فصادرت القبيلة سلاحهم وأرسلته هدية إلى السيد مُحَمَّد.

وكان هذا الحادث فرصة للانجليز حاولوا من خلاله اختبار الملا والتقرب منه، حين بعثوا إليه بكتاب يطالبون فيه رد البنادق المصادرة، ونفذوا من الطلب إلى عرض المصالحة، وقبول الرعوية البريطانية مقابل الاعتراف بزعامة الملا على جميع أنحاء الصومال.

ويبدو من ذلك أن الانجليز حتى ذلك التاريخ عام 1317هـ وعام 1899م لم يكونوا على وعي تام بحقيقة شخصية السيد مُحَمَّد فتوهموا أنه من النماذج التي سبق وأن تعاملوا معها، والتي يمكن شراؤها بالمال ولكنهم كانوا على خطأ كبير.

فما أن تلقى الملا كتابهم حتى قرر من فوره رد البنادق المصادرة تفاديا لصدام لم يكن بعد قد أخذ له عدته. ومع البنادق أرسل هذا الكتاب الرائع الذي يقول فيه:

من مُحَمَّد بن عبد الله حسن نور إلى الإنجليز:

السلام على من اتبع الهدى.. وبعد... فقد أرسلت إليكم هذا الكتاب لأخبركم أنكم ظلمتمونا، وظلمتم ديننا الإسلامي وعاملتمونا معاملة استرقاقية سيئة ونحن نتأثر من ذلك تأثرا بالغا.

وأخبركم أن أتباعكم الصوماليين لا يرتبطون بدينهم ولا يأنفون من الاستعباد ولا يتحمسون لحرية بلادهم، ولا يتألمون لذهاب شرفهم وكرامتهم. وإنهم كذابون في أقوالهم حاسدون في قلوبهم خائنون في أفعالهم وأعمالهم.

وإنكم لفي خطأ فاحش حيث تحسبونني مثلهم، وتزنونني بميزانهم .. ومضى الملا في كتابه إلى أن قال:

وأما من طرف المصالحة معكم ، فنحن نحب المصالحة ولكن لا نقبلها إذا كانت على حساب بلادنا وديننا وشرفنا وكل ما أنتظره منكم: إما الحرب العلنية وإما صلح لا خداع فيه ولا خيانة.

عبقرية الملا في التنظيم والإدارة:

ومع أن ميزان القوى في معركة تقرير مصير الصومال كان يميل لمصلحة الجبهة المعادية لحرية الشعب، وهي الجبهة التي كانت تتكاتف وتتساند فيها أكثر من دولة طامعة ضد مجموعة من الثوار الدراويش لا يكادون يجدون المال أو السلاح ولا يتركون في هدوء ليتموا استعدادهم.

على الرغم من هذا فقد استطاع الملا بعبقريته الملهمة في التنظيم والقيادة أن يصنع النصر من أسباب الهزيمة، وأن يواصل كفاحه تلك السنوات الطوال الرائعة.

فكان من سياسته عدم الدخول مع أعدائه في أية معركة قبل إتمام الاستعداد لها مهما تكن الظروف.

ولذا أمضى مدة إقامته في مركزه الأول "قري وين" في عمليات التعبئة المعنوية والمادية على نحو ما سبقت الإشارة إليه.

فلما أعلنت الحكومة الانجليزية عليه الحرب قبل أن يتم استعداده في هذه المرحلة لم يواجه جيوشها، وإنما نقل مركزه إلى حيث يستطيع أن يؤمن نفسه في أرض أخواله وعصبيته والموالين له.

ومن هناك أرسل وفوده إلى القبائل المجاورة يعرض عليها دعوته ويطلب مساعدتها، وكان يستغل جوار بعض القبائل لمنطقة "جيبوتي" وقربها من الشاطئ الغربي لجنوب الجزيرة في الحصول على الأسلحة النارية من بنادق وذخائر.

وعندما نقل مركزه إلى "هر حكري" من أرض الأوجادين استطاع أن يحصل على ثلاثة آلاف بعير محملة بالمواد التموينية قدمت إليه هدية وكذا ثلاثمائة بندقية كان الأوجادينيون قد غنموها من الأحباش في معركة "مستحيل" على ما سيأتي تفصيله عدا آلاف من الإبل.

عبقريته الإدارية:

وفي أرض الأوجادين استوثق الملا من الأرض التي يقف عليها فشرع في تنفيذ عدة خطوات تنظيمية لجهاز الدراويش من الناحية الداخلية تكفل سهولة السيطرة عليه وتعد كل رجل للعمل في المكان الذي يصلح له وأهم الخطوات هي:

1-تقسيم الدراويش إلى فرق وتكوين الفرقة الواحدة من جميع القبائل بحيث لا تكون الفرقة من قبيلة واحدة، ضمانا للرقابة، وتفاديا للكثير من المتاعب.

2-عين لكل فرقة مجموعة من القواد سماهم "المقدمين" وحدد دور كل قائد في تحمل المسئولية عندما يستشهد من يسبقه في الدور، وفي هذا التنظيم ما يمنح الفرق حرية الحركة السريعة لمواجهة أي خطر دون تعثر في تقصيرات السلطة المركزية للقيادة، وخاصة في ظروف كالتي حارب فيها الملا، ولم تكن وسائل الاتصال بين القيادة والقوات المحاربة من السهول بما هي عليه اليوم.

3-وفي الوقت نفسه كانت كل فرقة عنده تنقسم إلى قسمين:

(أ)- الخواص: وهم الذين رباهم على منهجه التربية الصوفية الصادقة وأعدهم إعدادا روحيا خاصا، يسمو بهم فوق أسباب الضعف البشري في كثير من الاختبارات وفق هذا أتاح لهم المزيد من خبرات القيادة العسكرية، والتدريب الذي قد لا يتوافر للآخرين..

وهؤلاء كانوا موطن الثقة عنده ولذا كان يدخرهم لمواجهة الأوروبيين عامة والانجليز خاصة.

(ب)- أما غير الخواص: فهم عامة الدراويش الذين لم يبلغوا بعد المرتبة السابقة وهؤلاء كانوا يوجهون لمنازلة الجيوش المحلية من الأحباش أو من الصوماليين.

ولم تقف عبقرية الملا عند هذا التقسيم ولكنه استحدث تنظيما داخليا لهذه الفرق، واصطنع الشارات العسكرية المشابهة لما يستخدم في الجيوش الحديثة، وكانت أسماء الفرق معروفة في تنظيمه كما يلي:

1-مينل: وهم أصحاب الميمات لأن علامة أسلحتهم كانت هكذا "م.م".

2-شيخيال: وهم أصحاب المشايخ وكان أكثر هذه الفرقة من العلماء ومنهم كان والد السيد مُحَّد نفسه.

3-غلوين وهم أصحاب الزربيات الواسعة وهم المسئولون عن الخيل.

4-انط بدن: وهم أصحاب العيون الكثيرة والمراد عيونهم وعيون ما يحرسون من إبل وأنعام.

5- كرب سري: يعني الجناح الأعلى.

6- كرب هوس: يعني الجناح الأسفل.

7-تار كوي: المتخصصون في قطع الأسلاك الشائكة التي كان يتحصن بها الانجليز.

8-ترغ حن: وهم الضعفاء وفي هذه الفرقة جمع الملا كل من لا يصلحون صلاحية تامة للعمليات الحربية.

9-ظربش: وهم الذين تنقصهم صفة الحزم.

وتكشف النظرة الفاحصة لهذا التنظيم عن عقلية عسكرية موهوبة منحتها التجربة الواسعة خبرة كبيرة بالنفوس وبالأشخاص وبما يصلحون له.

وهذا — في اعتقادي- أشق ما يواجه القائد في أكثر الأحيان .. أن يضع الرجل المناسب في المكان المناسب كما يقول المعاصرون.

فمثلا:

جمع خاصة التلاميذ والاتباع في وحدة عسكرية خاصة، وتخصيص هذه الوحدة في محاربة الانجليز، أو غيرهم من الأوربيين عامة دليل واضح على فهم الملا لطبيعة المعركة وملابساتها فهما عميقا، فهو مدرك تماما لما كان يتمتع به الجنود الانجليز من مستوى عال في الكفاية والخبرة والتدريب بالإضافة إلى ما يزودون به من أحدث الأسلحة، ثم ما يضفي حولهم من دعاية وما ينسج حول بطولاتهم من أساطير!!

كل هذا يحدث تأثيره في نفسيات من يواجهونهم، ما لم تكن روحهم المعنوية أقوى من كل ما عند الانجليز من خبرة وكفاية وسلاح ودعاية..

ولذا خصص "الملا" لمواجهتهم هذه الفرقة التي أتيح لها من التعبئة الروحية والإعداد المعنوي ما جعل حرصها على الموت أشد مئات المرات من حرصها على الحياة.

ومثلا:

حرصه على أن تكون الوحدات العسكرية مؤلفة من جميع القبائل دليل على يقظة "الملا" لما يمكن أن يفعله الضعف البشري بالنفوس ، ولذا جعل من تشكيل الوحدات على هذا النحو رقابة داخلية مستمرة من أفراد القبائل بعضهم على بعض.

وفيما وراء الشئون العسكرية عني "الملا" بكل النواحي العامة لدولة الدراويش، فعين قضاة للخصومات وقضاة للمواريث وآخرين للزكاة وللزواج والطلاق ولحفظ الشعائر الدينية من صلاة وصيام وغيرهما.

كما عين رجالا أكفاء يختصون بتدريس العلوم الشرعية والعقلية والأدبية بالإضافة إلى تحفيظ القرآن الكريم وتدريس الحديث النبوي.

وفي دولة "الملا" كان تقديم الأطفال للتعليم فرضا لا يعفى عنه أولياء الأمور ومعنى هذا أن "الملا" قد عني بتنظيم كل النواحي التي يتطلبها تكوين دولة وتحقيق النظام والاستقرار في شتى نواحيها.

وأعظم الأدلة على متانة التنظيم الذي وضعه الملا لدولته ، وكفايته التامة في النهوض بها، أن استطاع الرجل الصمود الرائع أكثر من عشرين عاما يواجه أعداء من كل الجهات، ومن خارج حدوده، وفي داخلها، ومع هذا لم يكن

من اليسير أبدا إحراز أي انتصار عليه إلا إذا كان ثمنه أغلى مئات المرات من ثمن أي انتصار مماثل.

وحينما قرر الملا أن يدخل مع المستعمرين في معرك أمدته عبقريته التنظيمية والإدارية بالكثير في هذا المجال .. فإذا هو يبني في داخل البلاد مجموعة غير قليلة من الحصون يودع فيها ما أعده من الأسلحة والذخائر والعتاد الحربي ثم يبني عددا غير قليل من الصهاريج ويحفر عددا غير قليل من الآبار، لإمداد جيوشه بحاجاتها من المياه في أي ميدان تلجأ للحرب فيه.

ولقد أدرك الملا بفطرته العسكرية أن هذه الحرب لن تنتهي في عام أو عامين ولكي يكفل استمرار حصول جيوشه على ما يلزمها من المواد التموينية، فقد أصدر أوامره المشددة إلى كل الزراع والمشتغلين في الأرض بمضاعفة الجهود والتوسع في الزراعة حتى يواجهوا احتياجات المحاربين في المستقبل.

بيان إعلان الجهاد:

ومن أبرز ملامح "القيادة " في شخصية هذا الثائر الصومالي أنه حينما قرر الدخول مع المستعمرين وأعوانهم في معركة مسلحة بعد ما أخذ لهذا الأمر عدته حرص في بيان إعلان الجهاد على المواجهة الواقعية لكثير من النقاط ذات الأهمية النفسية والعسكرية وكانت طريقته في المواجهة ذاتها من أوضح الدلائل على تمكن صفة القيادة تمكنا طبيعيا من شخصيته.

ففي هذا البيان رأيناه يحدد موقفه من مسألة بالغة الخطورة في أيام الحرب وهي مسألة التعامل مع الأعداء ومعاونتهم بأية صورة من الصور ويصف ذلك بأنه خيانة عظمى جزاؤها الإعدام في مثل قوله:

" وإذا رأيتم من المسلمين من يعين عليكم الكفار، بأن دلوهم على الطريق أو أماكن المياه أو كانوا لهم عيونا، وجواسيس، فاقتلوهم حيث وجدتموهم فليسوا بمسلمين.."

وفي هذا البيان.. رأيناه يحفظ لنفسه خط الرجعة –كما يقولون– بالنسبة لنتائج الحرب، فلم يصورها كلها انتصارا لا هزيمة فيه، وإنما وضع الهزيمة في تقديره، واهتم بأن يضعها أتباعه كذلك في تقديرهم حتى إذا واجهتهم يوما لم ينهاروا في مقاومتها وذلك في مثل قوله:

" وإياكم والضجر إذا توالت عليكم الهزائم فإن الحرب سجال وقد تكون الهزيمة اختبارا لكم على صدقكم وقوة عزيمتكم قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾".

وفي هذا البيان أيضا رأيناه يجسم أمام رجاله خطر العدو الذي يواجهونه بما لديه من سلاح وما يسند ظهره من حماية الحكومات والدول لكيلا يستهينوا به ولكي يأخذوا الأمر في مجاهدته مأخذ الجد والعناية الكبرى.

ولكنه في الوقت نفسه لم يبالغ في تجسيم قوة العدو إلى الحد الذي يضعف معنويات رجاله وإنما أكد لهم أن قوة الله ونصره في انتظارهم وأن التفوق الروحي والمعنوي أهم بكثير من التفوق في العدد والعتاد وذلك حين قال:

"إن زعماء الكفار غزوكم في بلادكم ، يريدون إفسادكم وإفساد دينكم وإجباركم على اعتناق دينهم ، معتمدين على حماية حكوماتهم لهم وعلى ما لديهم من سلاح وعتاد، فحسبكم من سلاحكم إيمانكم بالله، وقوة عزيمتكم ، فلا ترهبوا جنودهم ، ولا كثرة سلاحهم، فالله أقوى منهم وأكثر جندا، وكونوا صابرين على الشدائد، موطنين النفوس على الجهاد في سبيل الدين والعقيدة ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ ، ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.

وهكذا نرى كيف كان الرجل عبقريا في استخدام الكلمة النافذة في موقعها الحاسم الذي يفعل في النفوس فعل السحر، ويحملها على مواجهة أخطر المواقف وهي في حالة من النشوة، وكأنها ماضية إلى مهرجان.

"على طريق الحرب"



في 1317/5/4 هـ الموافق 1899/9/8م. بعث الملا إلى المسئولين الانجليز في الصومال بهذه السطور التي كانت بمثابة إنذار نهائي ردا على كتابهم إليه بالمصالحة، وقبول الرعوية البريطانية مقابل جعله الزعيم الوحيد في الصومال وجاء في كتاب الملا:

"أرسلت إليكم هذا الكتاب لأخبركم أنكم ظلمتمونا وظلمتم ديننا ، وعاملتمونا معاملة سيئة إسترقاقية. وأن أتباعكم الصوماليين لا يرتبطون بدينهم ولا يأنفون من الاستعمار والاستعباد ولا يتحمسون لحرية بلادهم

ولا يتألمون لذهاب شرفهم وكرامتهم.. وأنكم لفي خطأ فاحش إذ تحسبونني مثلهم وتزنونني في موازينهم.

ولقد وصلنا من قبلكم رسول يطلب المصالحة، ويطلب رد البنادق.. فأما البنادق فقد سلمت إليه، وأما المصالحة فنحن نحبها ولكن على ألا تكون على حساب بلادنا وديننا وشرفنا، ونحن ننتظر منكم إما حربا معلنة وإما صلحا لا خداع فيه ولا خيانة".

من هذه السطور أيقن الحاكم الانجليزي في "بربرة" أن الدراويش لا يقبلون حمايته ولا يعترفون بسيادته عليهم، وكان رده هو إعلان الحرب ودفع القبائل الموالية إلى العدوان على الدراويش، وأقدم بالفعل على بعض التصرفات الاستفزازية ومنها مصادرة إحدى القوافل التجارية للدراويش.

وكان رد الملا هو إعلان الجهاد المقدس ضد الأوربيين والمستعمرين عامة والانجليز ومن يوالونهم خاصة، وتم هذا الإعلان على صورة جماهيرية في شكل خطاب خطير ألقاه الملا وجاء فيه:

"إن عليكم أن تؤدوا هذا الواجب المقدس بدفع شر الداء قبل أن يعز الدواء وإن الذين تواجهونهم ليسوا وحدهم ولكن من ورائهم دولهم وحكوماتهم وأمامهم المال والسلاح الحديث.

فحسبكم من سلاحكم إيمانكم بالله عز وجل، وقوة عزيمتكم، فلا ترهبوا جنودهم ولا كثرة سلاحهم فالله أقوى منهم وأكثر جندا.. وكونوا صابرين عل الشدائد موطنين النفس على الجهاد في سبيل الدين والعقيدة".

ما بعد إعلان الحرب:

جهزت الحكومة الانجليزية جيشا قويا مؤلفا من الأوربيين والهنود والصوماليين والسواحليين لمحاربة الدراويش.

اتفقت مع الحبشة وإيطاليا وفرنسا على أن يكونوا جبهة قوية تحارب الدراويش وتحاصرهم من كل ناحية، وأن تقوم كل حكومة بتجهيز القبائل الخاضعة لنفوذها ودفعها إلى الحرب وخاصة القبائل والزعماء الذين يستطيعون ذلك، ويقدرون عليه، ولذا كان زعماء القبائل يبالغون في ذكر ما أنزلوه بالدراويش من خسائر.

وتقول مذكرات الملا:

"إن القبائل التي حاربت في صفوف المستعمرين كانت أشد نكاية له وبلاء عليه من المستعمرين أنفسهم مرات ومرات".

معارك لها تاريخ:

ولقد خاض الملا والدراويش منذ إعلان الحرب حتى انهتاء الثورة (270) مائتين وسبعين موقعة مع المستعمرين وأعوانهم ما بين اشتباك خفيف وما بين معارك ضخمة هائلة وفي كل المواقع كان الدراويش يحاربون دائما على قلب رجل واحد، وكانت شجاعتهم في القتال ومواجهة رصاص العدو مضرب المثل وموطن تقدير الأعداء أنفسهم.

ولن نستطيع في هذا البحث الموجز أن نوفي التاريخ الحربي لحركة التحرير الصومالية حقها الكامل من التفصيل فموعدنا لذلك الكتاب القادم، ولكننا فقط سنعرض لبعض المعارك الهامة ذات الأثر ، نقدمها بين يدي القارئ مجرد نماذج ذات دلالة على نوع البطولات التي أظهرها الدراويش الصوماليون في حربهم من أجل الاستقلال.

الانتصار الأول ومعركة جكجكا:

وكانت خطة الحكومة الانجليزية في محاربة "الملا " أن تقوم القبائل الصومالية لهم كما تقوم الحبشة كذلك بمجموعات متكررة من الهجوم المتصل على الدراويش من كل ناحية لتكون هذه الأعمال بمثابة المصفاة التي يتم عن طريقها استهلاك أكبر قدر من قوات الدراويش المقاتلة واستهلاك أكبر قدر ممكن من ذخائرها، حتى إذا استيقنت الحكومة الانحليزية من أنها قد أضعفت الملا وأثرت في قواته ضربت ضربتها ودخلت معه المعركة الفاصلة.

وعلى هذا الأساس تمت تقريبا كل المعارك التي شهدها الصومال عام 1900م فحينما ابتعدت الدراويش عن الصومال البريطاني بعد إعلان الحرب واتخذت مركزها في "هردغيد" من أرض "الأوجادين" المتاخمة للحدود الحبشية أوعزت انجلترا إلى الحبشة بضرورة الهجوم عليهم من ناحيتها قبل أن يتاح لهم الاستقرار وترتيب صفوفهم.

فأرسلت الحبشة من "هرر" جيشا مسلحا كله بالبنادق يبلغ تعداده ثلاثة آلاف مقاتل مسلحين كلهم بالبنادق تحت قيادة "الكراماش باثت".

وأغار الجيش على إحدى قبائل الأوجادين المقيمين في "دكحبور" ونهبوا الكثير من حيواناتها بقصد التخويف وإلقاء الرعب في قلوب كل من تحدثه نفسه بمساعدة الملا واستنجدت القبيلة بالدراويش فخرج السيد مُحَمَّد بنفسه لإغاثتها بقوة تبلغ ألفي مقاتل منهم ثلاثمائة مسلحون بالبنادق.

وصباح الثلاثاء 1417/11/5 هـ الموافق 1900/3/5م التحم القتال بين الفريقين في المكان الذي بنيت فيه فيما بعد مدينة "جكجكا". وأسفرت المعركة عن مقتل (230) مائتين وثلاثين من الجيش الحبشي مقابل (170) مائة وسبعين من القوات الصومالية كان منهم (25) خمسة وعشرون من الدراويش والباقون من القبائل.

وانهزم الجيش الحبشي وانسحب من أرض المعركة تاركا وراءه القتلى والحيوانات التي كان قد انتزعها من أيدي القبائل ثم (35) خمسا وثلاثين بندقية.

وتقول مذكرات الملا: "إن تلك الهزيمة تركت في نفوس الأحباش الرعب والفزع من القوات الصومالية بسبب ما رأته من شجاعتها الرائعة وتعطش رجالها إلى ورود أنهار الجنات التي وعد بها الشهداء".

وفي اليوم الذي دارت فيه المعركة بين الحبشة وبين الدراويش في "جكجكا" أغارت بعض القبائل التي أرسلتها الحكومة الانجليزية وجهزتها بالسلاح ،

أغارت على مركز الدراويش في "هرر غيد" ظنا منها – على حسب الخطة الانجليزية – أن الدراويش مشغولون في معركتهم مع الأحباش.

ولكنهم سرعان ما هزموا أمام خاصة الدراويش التي كان الملا لا يجعل المركز يخلو منها مهما تكن ظروف المعارك الخارجية تفاديا لمثل هذه الخطط.

سرعان ما هزموا أمام هذه القوات وتركوا من ورائهم (200) مائتي قتيل بسلاحهم وصرع قائد هذه المعركة بيد إحدى نساء الدراويش الذين فقدوا خمسة من القتلى وثلاثة عشر جريحا.

ويبدو أن انتصار الدراويش في أول اصطدام مع قوات عدوهم كان له أثره الكبير على روحهم المعنوية، فقد عاشوا بعده في جو أقرب إلى الأساطير، وانتشرت بينهم القصص التي تناقلها الدراويش وتحكي أنهم رأوا في وسط المعركة أسدين يشتركان معهم في القتال.

الانتصار الثاني ومعركة "فرطدن":

وفي مطلع عام 1901م، وحد الانجليز والحبشة خطتهما لمحاربة الدراويش وخرجت لهذا الغرض قوات مشتركة قوامها جيش حبشي تعداده (15000) خمسة عشر ألفا يقوده "الفيتوراري كبرى" ويصحبه خبيران إنجليزيان والأعضاء الصوماليون للمؤامرة الفاشلة لاغتيال "الملا" المعروفة باسم "مؤامرة كردم".

وكان مفروضا أن يلتقي بهذا الجيش جيش انجليزي آخر قادم من الشمال يقوده الكولونيل "سوين" المعروف عند الدراويش باسم "سوين الأعور".
ولكن لاعتبارات كثيرة لم يتم هذا الهجوم ، ورجع الجيش الحبشي من حيث جاء وكان ذلك في 11/7/ 1318هـ الموافق لـ 1901/2/25م.

عند أفبكيل:

أما الجيش الإنجليزي فقد أقبل من "بربرة" يقوده "سوين" وكان مؤلفا من قوات نظامية مجهزة بأحدث الأسلحة، وتشاركها كذلك قوات كثيرة غير نظامية.
وكانت الأوامر التي زود بها قائد الجيش أن يقتل السيد مُحَّد أو يأسره دون قيد ولا شرط، وأن يضرب الدراويش ضربة لا تقوم لهم بعدها قائمة، وكان يصحب معه قفصا كبيرا ليضع فيه السيد مُحَّد عندما يحصل عليه حيا أو ميتا.
وفي منطقة تسمى "أفبكيل" عسكر الجيش الانجليزي في انتظار الجيش الحبشي الذي صدرت إليه الأوامر من جديد بالعودة إلى الميدان ومشاركة الجيش الانجليزي الذي ضرب من حوله الأسلاك الشائكة ونصب عليها الرشاشات والمدافع.
وكانت خطة الانجليز أن يلتزموا الصمت داخل منطقتهم ويدعوا الدراويش إلى أن يفرغ ما في بنادقهم من رصاص ثم يفتحوا عليهم نيران مدافعهم

ويحصدوهم حصدا. ولكن الملا والدراويش كانوا يؤثرون دائما أن يحاربوا بالسلاح الأبيض ادخارا للرصاص من ناحية وإظهارا للشجاعة والتعطش إلى الموت من ناحية ثانية.

ولقد ظل الدراويش يحاصرونهم طيلة يوم تقريبا دون قتال من الجانبين لولا أن تسرع بعض الدراويش واندفع إلى داخل الأسلاك الشائكة يصيح الصيحة التقليدية للدراويش، الله أكبر، فتبعه آخرون وكان الصدام الذي أسفر – كما تقول مذكرات الملا – عن قتل (70) سبعين من الدراويش وجرح عشرين منهم وقتل من الأعداء حوالي سبعين كذلك وجرح ثمانية، وكان ذلك في 1319/2/25هـ الموافق 2/ 1901/6م.

فرطدن:

لم تستحسن الحكومة الانجليزية رجوع جيش "سوين " بلا فائدة بعدما كان في تصورها أنه سيأتي بالسيد مُحَّد حيا أو ميتا، ولم يقبل الحاكم الانجليزي في بربرة اعتذارات "سوين " وتبريراته ولذا اضطر - مرة أخرى – للخروج لمواجهة الملا.

وحينما علم الدراويش بإقبال جيش "سوين" ثانية أرسلوا الطلائع لاكتشاف مواقعه فلم يظفروا بشيء لأنه في هذه المرة كان قد غير طريقه وسار من طريق غير مطروق حتى وصل إلى مكان يبعد عن مركز الدراويش فقط بأربعة عشر ميلا ويسمى "برجيرود".

وهناك صادف امرأتين من نساء الدراويش عذبتا حتى ماتت أحدهما، فاعترفت الأخرى بمكان مركز الدراويش وقالت : أنه في "فرطدن".

وتقدم الجيش وكان على وشك أن يقتحم مركز الدراويش وهم في غفلة عنه لولا أن رآه رجل من رعاة الإبل يسمى "حسن بن كبوب" فامتطى فرسه ووصل إلى مركز الدراويش قبل أن يصله الجيش الانجليزي بدقائق حيث أنذر الدراويش بالخطر.

والتحم القتال خلال خيام الدراويش، وكان عنيفا وضاريا ولم تلبث المعركة أن انجلت عن هزيمة الجيش الانجليزي وهربه إلى "برح" تطارده فرسان الدراويش وكان ذلك في 30 من صفر 1319 هـ الموافق 1901/7/16 م.

وقتل في هذه المعركة (52) إثنان وخمسون من الانجليز منهم "كابتن فدرك" وجرح (30) ثلاثون منهم الملازم "ديكنسون" وغنم الدراويش (62) إثنان وستين بندقية. أما خسارة الدراويش فكانت تقريبا ضعف الخسارة الانجليزية إذ بلغ عدد القتلى (100) مائة شهيد وثلاثة من الجرحى. وفقدوا ثلاثة من الخيل.

ومما يجدر بالتسجيل أن معركة "فرطدن" وإن كانت قتلى الدراويش فيها ضعف قتلى العدو، إلا أنها بما أحاطها من الظروف المشار إليها ووقوعها – تقريبا– على نحو مفاجئ للدروايش، تعتبر انتصارا للدراويش ودليلا حيا على استبسالهم في القتال.

وتقول مذكرات الملا "إن الأعداء شهدوا بمقدار البسالة الرائعة التي بذلها الدراويش في هذه المعركة وأن الكولونيل سوين نفسه قال :" أني لم أكن أعتقد أن الصوماليين يحاربون من أجل العقيدة والمبدأ حتى رأيت الدراويش في "فرطدن" يهتفون الله الله، يقفزون نحونا على رؤوسهم العمائم البيض، لا يرهبون مصير إخوانهم الذين قتلناهم أمامهم برشاشاتنا ولا يفكرون في عائلاتهم التي تركوها من ورائهم".

استعراض القوة:

وبعد "فرطدن" أذاع الانجليز في الصومال عامة وخاصة في القبائل الموالية لهم أنهم قد كسروا شوكة الملا، وأنهم ضربوا الدراويش الضربة التي لن تقوم لهم من بعدها قائمة، ويبدو أن الشائعات التي أذيعت بذلك كانت قوية ومركزة مما استدعى الملا القيام بما يمكن أن نسميه "استعراضا للقوة" فخرج من مركزه الجديد في "قطوين" ومعه (350) ثلاثمائة وخمسون فارسا وألفان من المشاة قاصدين "لاس دار" حيث عسكر هناك أياما لمجرد إثبات وجوده وإظهار كذب الشائعات الإنجليزية أمام القبائل.

ولقد حقق استعراض القوة غايته، وثبت للانجليز وللموالين كذب ما ادعاه القائد الانجليزي في عدوانه الفاشل.

وكان ذلك في 1329/7/18 هـ الموافق 1901/9/3 م.

الانتصار الثالث ومعركة "بيرطكا":

ومرة أخرى عاد "سوين" بعثته الحكومة الانجليزية ليصنع انتصارا ذا قيمة حقيقية ضد هذا الثائر الذي ملئوا الدنيا استخفافا بشأنه، فإذا واجهوه في الميدان لم يجرءوا على الصمود أمامه.

وكان التخطيط الاستعماري أن تهجم القوات البريطانية على الدراويش من الشمال في حين تهجم القوات الحبشية من الجنوب والغرب وقوات سلطان هبية من الشرق، وبهذا تكون الدراويش مطوقة تطويقا كاملا لا تستطيع الخلاص منه.

وكان ميعاد الزحف المشترك بين هذه القوات الثلاث هو الموسم الذي تهطل فيه أمطار الخريف في أكتوبر أو في نوفمبر. فاستدعى السيد مُحَمَّد كبار دراويشه، وعقد معهم مجلس الحرب لاختيار إحدى الخطط الثلاث الآتية:

1-أن تخرج قوات من الدراويش لمهاجمة الانجليز حيث عسكروا في "نجال".

2-أن تهاجم الدراويش القوات الحبشية في "هود".

3-أن تنتظر الدراويش في مكانها من "مدغ" حتى تقترب منها القوات المهاجمة.

وبعد مشاورات مع القوات رفضت الخطتان الأولى والثانية وأقرت الثالثة حتى لا يتعرض المركز الرئيسي لأي هجوم من الخلف.

واقتضت الخطة تطهير أرض الدراويش من أية قوات معادية أو مشكوك فيها حتى لا تطعن فيها ساعة الخطر ولذا قامت حملة درويشية قوامها ألفان دمرت حصن "جلكاعيو" الذي كانت ترابط عساكر سلطان هبية وأسرتهم جميعا ومعهم قائدهم "محمّد طير" في 1902/10/16م.

أما القوات الحبشية التي زحفت تجاه أرض الدراويش حينما اقتربت الموعد المتفق عليه فقد ضلت الطريق إلى مياه "هور" وصادفت في الطريق رجلا من قبيلة "دير علي" فدلها على شجر زعم أن ورقها يطفئ الضمأ ويغني عن الماء، فأكلوها فمات العدد الأكبر من هذه القوات التي كانت تقارب عشرين ألفا. يصحبهم الضابط البريطاني "ماجور بل".

وبهذا يكون الدراويش قد كسروا أطرافا ثلاثة من عملية التطويق الشامل الذي كان مرتبا في الخطة، ولم يبق إلا مواجه القوات الانجليزية الهابطة من الشمال.

ببرطكا[5]:

علم القائد الانجليزي "سوين" بالمصير الذي لقيه الجيش الحبشي وجيش سلطان "هبية" وأيقن أن ليس في مواجه الملا غيره الآن، ولقد تعلم من تجربته السابقة مع الدراويش أنهم يحاربون في "استراتيجية" معينة أساسها أن الهجوم أحسن وسائل الدفاع وأن من الضروري السيطرة على أماكن الماء،

[5] ببرطكا: معناها "الانبطاح" لأن الجيش الانجليزي كان يطلق أسلحته وهو في وضع الانبطاح.

فحاول أن يكون سباقا، وأن يسيطر على أماكن الماء قبلهم وخرج إليهم بجميع قواته في الوقت الذي اتجهت فيه الدراويش لملاقاته في "نجال".

وفي 1320/8/5 هـ الموافق 1902/11/6 م التقى الجيشان في مكان يسمى "سلح إيركو" من أرض هود، والتحم القتال وكانت معركة من أندر معارك الدراويش وأروعها فيما حدث فيها من قتال رهيب واستبسال عوض به الدراويش ما كان ينقصهم من الأسلحة الحديثة الوافرة لدى العدو، وحينما انتهت المعركة كانت خسائر الانجليز:

(995) تسعمائة وخمسة وتسعين بندقية برصاصها.

(400) أربعمائة بعير محملة بالرصاص.

(1000) ألف قتيل عدا الجرحى الذين ماتوا بعدها في الميدان وكان عددهم تسعين.

(2) اثنين من المدافع الكبيرة، (1) رشاشة كبيرة لم تحترق.

(7) سبع رشاشات محترقة.

(2) بعيرين محملين بالخمور وقد ردت إلى أصحابها.

أما خسائر الدراويش فكانت:

(430) أربعمائة وثلاثين شهيدا، ومائة وتسعين جريحا لم يمت منهم أحد.

مصير "سوين":

وقد هرب سوين وفلول جيشه إلى "بوهودل " ثم إلى "برع" وعزل عن القيادة العامة وتسلمها الجنرال "منك" وقد حاول "سوين " أن يدافع عن هزائمه المتتالية أمام الدراويش بادعاء الكثير من المفتريات، واختلاق المبررات والأعذار الواهية، ولكنها لم تشفع له أمام رؤسائه، ولم تستطع أن تنقذه من الحرج الفظيع والمهانة التي ساقها له الملا ودراويشه غير مرة..

ومرة أخرى أثار الانتصار الكبير روح البسالة النادرة لدى كثير من الصوماليين ورأينا كثيرين منهم يقدمون على أعمال لا يكاد يتصورها العقل لولا أنها تتم في لحظات خارقة من الاستهانة بالموت، وكان لها أثرها في إذهال الأعداء وهزيمتهم.

من ذلك أن رجلا يسمى "مُحَمَّد أسك ررن" شهد هذه المعركة ولم يكن لديه سلاح فاندفع إلى ساحة المعركة، هو يصيح صيحة الدراويش التقليدية: الله .. الله.. ووقف أمام الرصاص المنهمر كالمطر من الرشاشات وهو يلوح بعصاه الكبيرة، ثم ضرب بها رأس أحد الانجليز وانتزع منه بندقيته وأخذ يقاتل بها حتى انتهت المعركة دون أن يصاب بسوء، وكان عمره يومها يربو على السبعين.

ومن ذلك أن رجلا يسمى "عرب بن الشيخ عثمان" أمسك بيديه فم رشاشة من رشاشات الأعداء وهي تمطر نيرانها كي يأخذها من يد

صاحبها فأصيب في صدره بأربعين طلقة لم تنفذ واحدة منها إلى داخل جسده وخرج من المعركة سالما ليس به إلا خدوش من أثر هذا الرصاص. ومن هذا وغيره نرى كيف كان الدراويش ينتصرون بروح الفدائي المتعطش إلى الموت أكثر مما ينتصرون بالعدة والسلاح.

الانتصار الرابع ومعركة "عفاروين":

لقد غرست الانتصارات السابقة للملا ودراويشه أحقادا هائلة في قلوب المسئولين الانجليز، وقد عزل "سوين" كما أشرنا وتولى مكانه الجنرال "منك" الذي رتب خطته – هو الآخر – على تطويق الملا بهجوم شامل من جميع الجهات فخرج بجيشه من هبية في فبراير عام 1903م يتبعه جيش آخر يقوده الكولونيل "بلنكيت" في 1903/3/21م ثم خرج من "برع" قوات أخرى يقودها الماجور "كوك" وفي الوقت نفسه خرج من هرر (50000) خمسون ألف حبشي يقودهم "الفيتواري كبري" ويرافقه الكولونيل "روزفلت" والماجور "كبل". كما كانت هناك قوة رابعة وخطيرة قوامها إحدى القبائل الموالية للحبشة والتي تسكن مع الدراويش في "ورطير" في حين تكنّ لهم العداء وتتربص بهم الدوائر.

وهكذا كانت الخطة محكمة، وضخمة، وكان الافلات منها يبدو مستحيلا كما تصور الجنرال منك. وشاء القدر أن تصطدم طلائع الملا

بأحد هذه الجيوش وهو الجيش الذي يقوده بلنكيت وتعداده ألفان، وينقل الخبر إلى الدراويش.

وفي 20 من المحرم سنة 1321هـ الموافق 1903/4/17م تحرك الدراويش من ورطير بقيادة السيد محمد وكان تعدادهم (6400) ستة آلاف وأربعمائة مقاتل منهم (1400) ألف وأربعمائة من الفرسان والباقون مشاة يحمل منهم البنادق (600) ستمائة والباقون يحملون السلاح الأبيض.

وكانت خطة الدراويش في هذه المعركة ألا يستخدموا البنادق إطلاقا إظهارا لمقدار بسالتهم وجرأتهم على الموت، ولذا كان ملصقا على البنادق التي في أيديهم أوراق تحمل هذا البيت:

في الجبن عار وفي الإقدام مكرمة   والمرء بالجبن لا ينجو من القدر

وعلى طريق واحد تواجهت القوتان.

القوات الانجليزية التي يقودها "بلنكيت" وكانت تمشى في وسط الطريق وقوات الدراويش يقودها الملا وكانت تمشي على الجانبين وكان اليوم يوم جمعة ومع إشراقة النهار لم يكن يسمع في الوادي كله سوى وقع أقدام المشاة وصوت حوافر الخيل.

ولما رأى "بلنكيت" الداهية النازلة عليه من جانبي الطريق أمر رجال جيشه أن يحيطوا أنفسهم على الفور بالأسلاك الشائكة، وأن يربط كل اثنين منهم نفسه إلى زميله بحبل حتى لا يفروا من المعركة، لأنه —كما قال — كان يريد

أن يغسل عار الهزائم التي منيت بها جيوش الجنرال "سوين"، وأن يحقق النصر لحكومته.

ونفذ على الفور ما أمر به.

وفي اللحظات نفسها كان الدراويش يرتبون أنفسهم، ويشربون الماء من القرب المحمولة خلفهم على ثلاثة آلاف بعير ويتلقون آخر التعليمات.

وبعد ما أتم كل فريق استعداده تحركت الدراويش إلى موقع العدو وهي تهدر بصيحتها التقليدية الله الله ، لا تطلق رصاصا ولا نبلا ولا تقذف رمحا لا سهما، وإنما رفع كل منهم خنجره بيمينه وهجموا في وقت واحد على العدو.

ولم يمض زمن طويل حتى أخرست أصوات المدافع والرشاشات التي كانت تزمجر من وراء الأسلاك الشائكة وأصبح الجيش كله.. كله جثثا هامدة.

ولم يخرج حيا من هذه المعرك سوى الترجمان الصومالي آدم بن علي كري الذي أصابته سبع طعنات فتماوت بين القتلى.

وغنم الدراويش (3) ثلاثة مدافع كبيرة و(4) رشاشات سليمة وخمسة محترقة، وألفا ومائتي بندقية، وفقدوا وراءهم (360) ثلاثمائة وستين شهيدا و(140) مائة وأربعين من الجرحى.

وبعد خمسة أيام من موقعة "عفاروين" وصلت القوات التي كان يقودها الماجور كوك إلى درتول في طريقها إلى "ورطير" مركز الدراويش على حسب خطة الجنرال.

وهناك لقوا فرقة من الدراويش كانت ترتدي ملابس الجنود الانجليز وتحمل أسلحتهم التي غنموها في معركة "عفاروين"وخيل لقوات "كوك"، أنهم إنجليز أو موالون لهم، حتى فوجئوا بالرصاص ينهمر فوقهم من كل ناحية.. عندئذ أدركوا الخديعة، وأسرعوا تاركين وراءهم أكثر من أربعين قتيلا.

أما الجناح الثالث في مربع الهجوم وهو الجناح الحبشي فما أن علموا بما حدث من كوارث حتى حول وجهه بعيدا عن مكان المعركة إلى حيث قاموا بعملية اختطاف لبعض حيوانات إحدى القبائل الموالية للدراويش.

أما جيش الجنرال.. فقد عاد به الجنرال من حيث أتى بعدما تلاشت معالم خطته العسكرية وذهبت دعائمها أدراج الرياح .. ولم يكن الجنرال "منك " أحسن حظا من سلفه "سوين" ولم يستطع النجاح فيما فشل فيه. وكان مصيره المصير نفسه العزل، والانزال عن القيادة العامة إلى حيث يصبح مجرد مساعد للقائد الانجليزي الجديد الجنرال "أجرودون".

"رسالة بعد انتصارات عامين"



في 18 من ربيع الأول 1321هـ الموافق 13 من يونيو 1903م.

وقد بعث بها الملا إلى المسئولين الانجليز في بربرة بعد الانتصارات المتوالية عليهم في المعارك التي واجهوه فيها حتى كتابة هذه الرسالة.

وهو فيها يطلب إليهم في لغة قوية هادئة يمتلئ صاحبها ثقة بنفسه وبما يقول.. أن يتركوا له بلاده وأن يكفوا عن العدوان المتكرر عليه والذي لن يستفيدوا منه شيئا.

ثم هو – باللغة الهادئة نفسها- ينذرهم بأنه لن يعجز أبدا من مناضلتهم لأن رجاله قد باعوا دنياهم ، واشتروا بها مرضاة خالقهم وحرية بلادهم.

وهم ليسوا ذوي غنى يخافون من أجله على الحياة، وليسوا ذوي قصور تحرمهم التفكير في قصور الجنة إنما هم ..طلاب شهادة.. وعشاق تحرير لهذا البلد الذي من مصلحة الانجليز أن يتركوه لأهله.

قال الملا:

من مُحَمَّد بن عبد الله حسن إلى الانجليز.

وبعد فأقول لكم: اسمعوا كلامي هذا واعملوا به.. وكتابي هذا أول كتاب أذكر فيه الأخبار الماضية والحاضرة والمستقبل التي تتعلق بما بيننا.

لقد حاربتكم إلى الآن مقدار عامين لكي أدفعكم عن ديني وبلادي وأحكم بلادي دونكم. فإذا كنتم تحبون المصالحة وتريدون المسالمة فاتركوا لنا بلادنا، واستحسنوا كلامي وافتحوا له آذانكم وأفئدتكم.

تعلمون أني أرسلت إليكم قبل هذا الكتاب وقبل محاربتكم كتابا في هذا الشأن فتجاهلتم ما فيه ورميتموه وسط الرياح بل وأمرتم الناس بمقاطعاتنا وأعلنتم علينا الحرب ظلما، وعدوانا، فحاربناكم من أجل ذلك وصمدنا لقتالكم حتى جرى بيننا ما جرى من المعارك. واليوم أرجو ألا يكون مصير كتابي هذا مثل مصير الكتاب الأول. أقول لكم وأقول لكم.. اسمعوا كلامي واتركوا بلادي واختاروا المسالمة على الحرب.

ولقد وصلني عنكم أنكم فرحتم حين قال لكم بعض أعوانكم أن الدراويش – خوفا منكم– قد هربت من أرض "مدغ " إلى "ورطير " و"هود".

وردا على تلك المقالة الكاذبة أقول لكم لا تغتروا بالأكاذيب التي لا صحة لها. فإن رجوعنا إلى ورطير وهود لم يكن له غرض سوى ارتياد المراعي والكلأ لحيواناتنا الكثيرة من الخيول والإبل والبقر والغنم.

ولا يخفى عليكم أننا قبل الحرب معكم كنا في أرض "هردغيد" من الأوجادين حيث تكثر فيها المراعي للحيوانات، ثم انتقلنا منها إلى جهتكم لنحاربكم ونقاتلكم والآن أخبركم أننا قد رجعنا من أرض "بور" واتجهنا إلى "بربرة" عاصمتكم في أرضنا لنحاربكم، ونقاتلكم من جديد، إذا لم تسمعوا نصيحتي وتتركوا لنا بلادنا وسنلتقي هناك إن شاء الله عن قريب..

ومما لا شك فيه ولا مراء أننا قد استفدنا كثيرا من محاربتكم في العامين الماضيين بخلافكم أنتم، لأننا غنمنا فيها أسلحتكم الكثيرة وذخائركم المتعددة المتنوعة، كما قتلنا منكم عددا كبيرا من رجالكم ومساعديكم في الحرب من جميع الأجناس.. أما أنتم فلم تستفيدوا من قتالنا شيئا سوى دماء الشهداء الذين هم أحياء عند ربهم يرزقون.

إننا لم نغز بلادكم ولم نحاربكم فيها حتى نضطركم للقتال معنا ولم نظلمكم في دينكم مثل ما ظلمتمونا في ديننا.

إنكم إذا غلبتمونا فلن تستفيدوا منا شيئا ينفعكم فلن تغنموا منا أسلحة ولا ذخائر حربية ولا دراهم ولا دنانير.. ولن ترثوا منا إرضا خصبة فيها البساتين والمزارع والمدن والبيوت الحجرية. لأن أرضنا بادية ليس فيها سوى مراعي

الحيوانات من الأشجار والأعشاب. وفيها أيضا الشمس اللافحة التي تحرقكم.

أما نحن فنستفيد من محاربتكم لأننا إذا غلبناكم فسنطردكم من أرضنا أولا ثم نغنم أسلحتكم وأموالكم ثانيا.

وأما إذا غلبتمونا فسنستفيد الشهادة والجنة لذلك لا تتوقعوا منا سوى الكفاح الدائم والنضال المرير والله ناصرنا وهو معنا لأننا نقاتل في سبيله ولإعلاء كلمته.

واسألوا موسى فارح هل استفاد شيئا من قتل أسرانا؟

والخلاصة: إذا كنتم ترغبون في مواصلة القتال فإننا مستعدون لذلك وإذا كنتم تريدون المسالمة والأمان فارجعوا عن بلادنا إلى بلادكم.

وإذا اخترتم الحرب فلا تلوموا إلا أنفسكم إني أريد أن أشتري السلاح والرشاشات والمدافع منكم بدمائنا كما فعلنا من قبل.

والسلام على من اتبع الهدى.

" الملا يذوق طعم الهزيمة "



حتى مطالع عام 1904م كانت قوات الدراويش بقيادة الملا توالى انتصاراتها من معركة إلى معركة ، وخلال سبع وعشرين موقعة خاضتها قبل هذا التاريخ لم تذق طعم الهزيمة، كانت لها في المعارك ضحايا وشهداء، ولكنهم في النهاية كانوا المنتصرين دائما.

ولقد رأينا كيف كانت انتصارات الدراويش تزرع الحقد والضغائن في قلوبهم فيزدادون بغضا لهم، ورغبة في الانتقام منهم وكيف تسببت بسالة الدراويش في عزل اثنين من كبار الضباط الانجليز في الصومال وإنزالهم عن رتبهم، وهما

الجنرال "سوين " والجنرال "منك" من بعد ما فشلت محاولاتهما للقضاء عليه، أو حتى لاحراز انتصار ولو مؤقت ضده.

حتى كان هذا العام، وكانت معركة "جديال".

كان قائد هذه المعركة هو القائد رقم 3 من القواد الذين بدلتهم الأنجليز واحدا وراء الآخر لكي ينتصروا على الملا ويستردوا هيبة الدولة التي زلزلت في الصومال.

وقد تولى القيادة بعد هزيمة الجنراك "منك" فأرسل إحدى قواته إلى "بوهودل" وقوة أخرى إلى "غردو" من أرض نغال. وقوة ثالثة إلى "حلن" من أرض نغال أيضا. وأرسل القوة الرابعة إلى"كلاد" ليتم له تطويق جيش الدراويش من جميع الجهات.

كما اتفق مع حكومة الحبشة على إخراج (40000) أربعين ألف جندي بقيادة الفيتوراي كيري لمهاجمة الدراويش في الوقت الذي يهاجم فيه الانجليز.

وفي الوقت نفسه كان تحت تصرفه أسطول من البوارج الحربية موجهة لتحطيم حصن الدراويش في "الك".

خرج الجنرال آجرون بجنود لا تكاد تحصى تدعمه مدفعية تعد بالمئات غير الرشاشات والأسلحة المختلفة. ووجهته مركز الدراويش من "عدطير".

وفي أثناء مسيره التقت مقدمة جيوشه مع (700) سبعمائة من طلائع الدراويش وأسفر الصدام عن مقتل (28) قمانية وعشرين من مقدمة الجيش

الانجليزي و39 من طلائع الدراويش، وكان ذلك في منطقة "بدوين" في 1903/12/19م.

تحرك جيش الجنرال آجرون من "برع" ولحق بمقدمته في بدوين وتحركت الحبشة بقيادة الفيتوراري ومعه سبعة من كبار الضباط الانجليز ووجهة الجميع مركز الدراويش.

أما قوة الدراويش فقد تحركت إلى "جديال" عسكرت فيها، وهي منطقة صحراوية خالية من الأشجار والغابات التي اعتادت الدراويش أن تتستر بها.

ومضت أربع أسابيع والجنرال آجرون وجيشه يعسكرون في "بدوين" في الوقت الذي تعسكر فيه الدراويش في "جدبال".

وفي صباح الأحد 1321/10/22هـ الموافق 1904/1/10م زحف الجيش الانجليزي على "جديال" وأسفر اللقاء الرهيب عن هزيمة الدراويش التي كان تعدادها يبلغ (6000) ستة الآف مقاتل خسرت منهم (460) أربعمائة وستين شهيدا مع أسلحتهم ، (205) مائتين وخمسة من الجرحى في حين فقد العدو تسعين قتيلا.

وبعد انتصار "آجرون" كتب إلى السيد مُحَّد رسالة خلاصتها إذا رددت الرشاشات التي غنمتها في المعارك السابقة، وكذلك البنادق الكبيرة التي تبلغ ألفا وأربعمائة فإن الدولة البريطانية ستسامحك وتقدر لك مشاعر كبيرة،

وتعطيك وأهلك ودروايشك من "نعال ، هود" محلا مخصوصا تعبدون فيه ربكم ولا تطالبكم بشيء من أسلحتها غير ما ذكر.

ولم يرد السيد مُحَّد على هذه الرسالة وقال:

إن آجرون رجل أحمق، قد غره هذا النصر اليسير الذي أحرزه اليوم ولكنه لا يعرف شيئا عن مبادئنا ومعنوياتنا وأننا وهبنا أنفسنا لتخليص بلادنا من كل الأعداء.

دراسة أسباب الهزيمة:

والذي لا شك فيه أن انتصار الانجليز في "جديال" قد وضع الدراويش في الموقف الذي لا يحسدون عليه، وتعرضت قيادتهم زمنا غير قليل لعدم الاستقرار بسبب إحاطة الأعداء بهم من كل ناحية ووجودهم تحت التهديد الحقيقي المستمر.

ولذا أخذ الملا وكبار قادته يدرسون هذه المعركة ليعرفوا من أين كانت هزيمتهم فيها، وقد انتهوا في درس أسبابها إلى ما يأتي:

1- شاء القدر أن يتخلف الملا عن شهود هذه المعركة لمرض أصابه قبلها مما أدى إلى فقد الدراويش للقوة الحاسمة في ساعات التردد واختلاف الآراء.

2- كان اختيار الدراويش لهذا المكان الصحراوي المكشوف خطأ عسكريا كبيرا لأنه يضعهم تحت أنظار العدو ويجعلهم هدفا مكشوفا لنيرانه.

3- كان هذا مخالفة لمألوف خطة الدراويش التي اعتادت أن تختار لنفسها من الطبيعة سواتر تقيها من أعين الأعداء ولذا كانت تفضل دائما أن تختار ميادين معاركها في أرض فيها أشجار وغابات.

4- قائد هذه المعركة كان ممن يمكن وصفه بأنه رجل "متهوس" تنقصه حكمة القيادة الحازمة التي تعرف الفاصل الدقيق بين الشجاعة والتهور.

فهو منذ بداية المعركة كان حريصا على أن يموت بدليل أنه عندما اصطفت الجيوش أسرع يقود جواده نحو معسكر الأعداء حتى ظنوا أنه رسول تسليم. فلما أصبح على مقربة من الضباط أطلق رصاصة على أحدهم أرداه قتيلا ثم لوى عنان جواده وانطلق يسابق الريح وظل يكرر هذه العملية ست مرات حتى قتل في النهاية.

إن هذا دون شك ضرب من السفه والحمق، ومهمة القائد ليست القيام بمثل هذه الحركات الطائشة وإنما الثبات والهدوء وتدبير مصير المعركة في حزم.

5-أنه كانت تسيطر على القوات الدراويشية أو على الأقل على المجموعة المتولية زمام القيادة كانت تسيطر عليها الرغبة في الموت.. أي موت.. وهذا الخطأ. بدليل أنهم رفضوا اقتراحين عظيمين أحدهما بأن تسند الدراويش ظهرها إلى جبل كان قريبا من المكان حتى لا يفاجئها منه العدو.

وأن تقوم فرسان الدراويش بهجوم على العدو من خلفه في الوقت الذي تهاجمه المشاة من أمامه حتى يوقعوه بين شقي الرحى.

والاقتراحين عظيمان، ولكنهم رفضوهما بحجة أنهما يدلان على نقص الشجاعة وعدم كفايتها، وأن مواجهة العدو من خلفه تعني الجبن عن مواجهته من أمامه.

ولقد هزمت الدراويش.

وكان الجزاء العدل أن يهزموا لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى الموقف العسكري الخطير الذي يواجهونه ولم يقدروا ما يترتب على انهزامهم من ضرر أن الهدف الحقيقي لم يكن أن يموتوا .. ولكن أن ينتصروا.

"هدنة الخديعة"



وفي هذا العام 1904م بذلت الدول الاستعمارية كل جهودها لتوقيع اتفاق الصلح الذي أسماه الدراويش "الصلح الخداعي" لما كان يختفي في طياته من نوايا الغدر والاستعداد له.

وكانت إيطاليا هي أكثر الدول الاستعمارية سعيا وراء إتمام هذا الصلح لتيقنها من أن مضيها في ركب السياسة الانجليزية والحبشية سيكلفها الكثير ماليا وعسكريا مما ليست على استعداد للتضحية به.

بل أنه قد يكلفها فقد الجزء الواقع تحت سيطرتها وهو الذي كان معروفا قبل الاستقلال باسم "الصومال الإيطالي" وذلك لعدة اعتبارات أهمها:

أولا– لم يكن لدى إيطاليا في مستعمرتها الصومالية حين ذاك عام 1905م من القوة العسكرية ما يصلح بكفاية لصد هجمات الدراويش وحماية العاصمة منهم.

ثانيا– أن كثيرا من القبائل الصومالية التي كانت تقيم فيما بين منطقتي (لوخ ، عدل) لم تلق سلاحها لم تستسلم نهائيا للسيطرة الإيطالية مما كان في جملته يؤرق مضاجع الطليان، ويحملهم على ضرورة مهادنة الملا لكي يتفرغوا للحرب في جبهة واحدة إذا لزم الأمر.

ثالثا– أن مقاطعتي "مدق" و"المجرتينيا" وإن كانتا واقعتين إسما تحت الحماية الإيطالية ، إلا أنهما كانتا في الواقع متمتعتين بالاستقلال الداخلي وقد ظلا كذلك حتى انتهت ثور الملا سنة 1920م. وكانت إيطاليا تكتفي ببسط نفوذها على المناطق الساحلية وهي مقديشو مركة براوة ثم على أقرب المناطق إلى الساحل مثل أفجوي وبلعط لهذا كانت إيطاليا تتربص الدوائر بسلطاني[6] هاتين المقاطعتين لعلها تنجح في إخضاعهما.

وما دامت ثورة الدراويش مشتعلة فليس من الحكمة أن تدخل إيطاليا مع هذين السلطانين في معركة بل أنها على العكس كانت تجد نفسها مضطرة إلى مدّهما بالسلاح والعتاد لمواجهة الملا الأمر الذي معناه سعيها

[6] السلطانان هما : بغر عثمان سلطان مجرتينا ويوسف علي الملقب بكينديد سلطان هيبة والمدق.

بيديها لتقوية خصم تفرض عليها مصالحها السياسية أن تحطمه ومن شأن عقد الهدنة مع الملا أن يحقق لها ما تمليه هذه السياسة.

وبتأثير هذه الدوافع حاولت إيطاليا أن تعقد مع الملا هدنة خادعة ترتب فيها ظروفها، وتستطيع أن تخفف - ولو قليلا — من الأعباء العسكرية والمادية التي تفرضها عليها حالة الحرب.

وكان تصميم إيطاليا على الوصول إلى هذه الهدنة أكيدا سواء أقرتها الحكومتان البريطانية والحبشية أم لا، لأن الحالة السياسية داخل إيطاليا من ناحية والموقف العسكري في الصومال من ناحية ثانية كانا يفرضان عليها ذلك.

ولهذا أخذت ترسل المكاتبات السرية إلى الملا ودراويشه تطلب إليه المصالحة العامة معها ومع حليفتيها.. انجلترا والحبشة. أو معها وحدها إن شاء وكانت في رسائلها تقدم العروض المغرية بالمساعدات في مختلف الميادين متى تم هذا الصلح.

وقد أمضى الملا زمنا غير قليل وهو يتعمد عدم الرد على رسائلهم إليه لأنه — كما تقول مذكراته — كان يعتقد أن الرد معناه فتح باب المفاوضات وفتح الباب مع عدم تكافؤ القوتين ليس من الحكمة في شيء.

ولذا كان يرى التأجيل ما وسعه ذلك إلى أن يتمكن من تقوية مركزه عن طريق المكاسب والأسلحة والانتصارات التي يحرزها حتى إذا جرت المفاوضات كانت بين الند والند لا بين القوي والضعيف.

وفي شوال سنة 1321هـ الموافق يناير سنة 1904م أرسل السيد مُحَمَّد رجلا يسمى عبد الله بن شحري إلى ممثل الحكومة الإيطالية في إريتريا لجس النبض والتفاهم معه بصفة غير رسمية لعله يتبين ما وراء طلب الصلح هذا من أهداف.

ووصل الرجل تحت ستار من الكتمان الشديد إلى إريتريا، واتصل بالمسئولين الطليان فيها ، الذين استقبلوه بكل تكريم تعبيرا عن نواياهم الطيبة تجاه الملا وتجاه الدراويش في شخص رسولهم غير الرسمي.

وجرت المحادثات في إمكان عقد صلح يشمل الحكومات الثلاث إيطاليا وانجلترا والحبشة وأتباعها من القبائل الصومالية.

وحين عاد عبد الله بن شحري لم يكن وحده ، وإنما كان يصحبه قائد السفينة الحربية "ولتورن" وهو السنيور "بلاتي بييري" نائبا عن الحكومة الإيطالية في إجراء المحادثات التمهيدية باسمها مع الملا.

ومن فوق ظهر السفينة الحربية أرسل السنيور "بييري" إلى الملا كتابا يطلب فيه عقد الهدنة العامة بين الدراويش وبين الدول الثلاث والقبائل الموالية لها وجاء في كتابه:

"إذا أوقفتم القتال من جانبكم فإن حكومتي توقفه من جميع الجهات"
وتأكيدا لهذا الكلام أرفق بكتابه إلى الملا كتابين آخرين أحدهما إلى أولاد سلطان "هبيه" يوسف علي الذي كان إذ ذاك معتقلا في إريتريا بتهمة التقصير في مساعدة جيش الجنرال الانجليزي "منك" الذي كان قد هاجم أراضي الدراويش عن طريق أرض السلطان سنة 1903م.

والكتاب الثاني إلى الضابط الإيطالي المرافق للجيوش الانجليزية المحاربة للدروايش كمستشار ومندوب مساعد من قبل الحكومة الإيطالية لتسهيل مهامها وهو الكابتن "سنتي ألبرتي".

وكلا الكتابين تنبيه بالاستعداد السريع لوقف القتال تمهيدا لتوقيع اتفاق الصلح وقد طلب السنيور "بييري " من الملا إرسال الكتابين فورا بمعرفته إلى أصحابهما لأن الدراويش كانت مسيطر تماما على طريق المواصلات إلى هذه المناطق، وأكد له أن القتال سيتوقف على الفور من جانب انجلترا ومن جانب أولاد السلطان المعتقل بمجرد وصول الكتابين.

كما وعد في الوقت نفسه بإرسال كتابين مماثلين إلى سلطان المجرتينيا وإلى حاكم مقديشو لوقف كل العمليات العسكرية ضد الدراويش.

وأضاف السنيور "بييري" في كتابه إلى الملا أنه لا مانع من الآن من أن يرسل الدراويش سفنهم التجارية إلى ميناء الشمال"بندر قاسم " كدليل مادي على رفع الحصار البحري عن الدراويش.

كان ذلك ما حدث من جانب المندوب الإيطالي المفوض لإجراء محادثات الصلح.

أما من جانب الملا:

فقد أرسل الكتابين من فوره إلى أصحابهما، ولكن رسوليه قتلا في الطريق الأمر الذي أثار ثائرته ونزع من نفسه بقية الاطمئنان إلى صدق هذه المهادنة ، فكتب من فوره رسائل احتجاج ثلاثا ضمها جميعا غلاف واحد وأرسله إلى الضابط الإيطالي المقيم في "بندر قاسم" والذي كانت مهمته تفتيش السفن بقصد تشديد الحصار على الدراويش.

وحمل الكتب الثلاثة أحد خاصة الملا واسمه "الحاج مُحَّمد حسين" وسار بها تحت كثيف من السرية والحذر فلم يكن يدري سر المهمة الملقاة على أحد غيره وغير الملا.

وفيما يلي نصوص هذه الكتب الثلاثة التي تعتبر أول رسائل رسمية يبعث بها الملا إلى المستعمرين في أمر هذا الصلح.

نص الكتاب الأول:

وهو يتضمن الاحتجاج على ما يلي:

*الاحتجاج على قتل الرسولين اللذين حملا رسائل المفوض الإيطالي إلى سلطاني هبية والمجرتين.

*الاحتجاج على أولاد السلطان يوسف علي بسبب ما وقع منهم ضد الدراويش من النهب والقتل بعد الصلح المذكور في الوقت الذي يخضعون فيه للرعوية الإيطالية.

*الاحتجاج على توسع هذين السلطانين وخاصة أولاد يوسف في الأرض المتنازع عليها بينهم وبين قبيلة "رير خلف" من الدراويش.

*الاحتجاج على العدوان المتكرر من قبيلة "إسحاق" الذي هم من رعايا الحكومة البريطانية – على الدراويش بعد الصلح.

قال الملا في هذا الكتاب:

إلى الحكومة الإيطالية ..

السلام على من اتبع الهدى.. وبعد:

فقد وصلنا كتابكم وقبلنا ما فيه من عرض المصالحة علينا وكذلك أرسلنا الكتابين اللذين طلبتم منا إرسالهما إلى الكابتن سانت ألبيرت مرافق الجيوش الأنجليزية وإلى أولاد سلطان يوسف علي..

ولكن لسوء الحظ كانت النتيجة قتل الرسولين اللذين حملا الكتابين في الطريق وأنتم المسئولون عن هذا القتل لا غيركم ، فقد كنا نعرف مبلغ ما يتعرض له هؤلاء الرسل من خطر ومع هذا أرسلناهم نزولا على طلبكم وتعبيرا عن صادق نوايانا في الصلح.

وأما طلبكم منا إرسال سفننا إلى ميناء "بندر قاسم" للتجارة فلن نستجيب إليه، لأننا لا نأمن أن يحدث لها ما حدث لرسلنا من عدوان، ونحن لا نأمن جانب قبيلة المجرتين ، وليست هناك حكومة مسئولة تستطيع تأميننا ضد الاعتداء والظلم وليس لكم في "بندر قاسم" وكيل مسئول. ومعنى هذا أنه ليس هناك إلا قطاع الطريق.

وأؤكد لكم أننا قبلنا الصلح ، وقبلنا المساعدات التي وعدتمونا بها ومن بينها مساعدتنا ضد أعدائنا ، ولذا لا نريد أن نحاربكم أنتم ومن تحت رعايتكم إلا أن تبدءونا بالقتال، ولكننا نرجو منكم أن تعيدوا إلينا أموالنا التي اغتصبتها قبيلة "به در" رعيتكم، التي تسلمت الأموال ولم تقدم لنا ما يقابلها من السلاح.

وإذا احتجتم إلى بينة فإن "عبدل شحري" يعرف من جملتهم الكثيرين وهو موجود لديكم في الوقت الحاضر.

كما أني أطلب إليكم أن تفطنوا بانتباه إلى أعداء هذا الصلح العاملين على عدم إبرامه. والذين يعادوننا وإياكم بسبب مفاوضات الصلح.

وهؤلاء هم الذين سعوا بيني وبين كينديد "سلطان هبية" بالإفساد وهم الذين كانوا السبب في احتلال الانجليز لبلادنا ، وهم الذين اعتدوا على سكان "بران" فإذا كنتم تريدون أن يتم الصلح فتنبهوا لأولئك المفسدين.

وأخبركم أيضا أن أولاد كينديد، رعيتكم والقبائل التي تحت حكمهم قد نهبوا من أموالنا وقتلوا كثيرين من رجالنا بعد الاتفاق على الصلح.

ونحن الدراويش ليس من أخلاقنا الافتراء والكذب والخيانة والجاسوسية ولا نريد أن نهيج الاضطرابات ثانية.

ولكن مما لا شك فيه أن الاضطرابات ستنشب من جديد إذا لم تفعلوا أحد أمرين:

*إما أن تقضوا على نفوذ السلطانين اللذين في حمايتكم وتنفذوا الصلح لسلطتكم أنتم.

*وإما أن تجعلوهما مستقلين عنكم، خارجين عن عقد هذا الصلح لا نطالبكم ولا تطالبوننا في أي شيء من شئونهم.

وإذا نظرنا إلى واقع الحقيقة رأينا أنه ليس من المعقول أن تدعوا لأنفسكم السلطة على هذين السلطانين في حين أنكم لا تملكون من أمرهما شيئا..

فمثلا: إذا كنتم جادين في طلب الصلح في حين أنهم يريدون إفساده فماذا تكون النتيجة؟

الجواب أن النتيجة ستكون وخيمة لأن قبائل المجرمين لا تعترف بالسلطة عليها إلا لبفر عثمان، وإن قبيلة ويرمهد والقبائل الأخرى في "مدغ" لا تعترف بالسلطة عليها إلا لأولاد كينديد "سلطان هيبة" ولا تعترف لكم بأدنى سلطة.

ومع هذا تريدون منا أن نعترف بسلطتكم عليهم وتطالبوننا بكل قطمير ونقير في شئونهم وهذا غير معقول.

وإذا كنتم تزعمون أن لكم عليهم سلطة فامنعوا أولاد "كينديد" من بناء القلاع والحصون في "المدق" إلى أن يتم التفاوض بشأنها، لأن أرض المدق مشتركة بين قبيلة "رير خلف" وهي من الدراويش ، وبين رير كينديد.

من مُحَّمد بن عبد الله حسن.

وفي الكتاب الثاني قال الملا:

إلى الحكومة الإيطالية:

السلام على من اتبع الهدى وبعد، فمرادي من هذه الرسالة أمران:

أولا– أن كل اعتداء علينا من أية حكومة من الحكومات المشتركة في هذا الصلح ، فأنتم المسئولون أمامنا عنه لأننا لم نقبل التفاوض فيه إلا بوساطتكم وعلى أساس مسئوليتكم.

ونحن نحب أن يسود الأمن والسكون في بلادنا، ولذا أدخلت سيفي في غمدها، ورجعت إلى مطالعة كتبي، ولكني فوجئت وأنا في تلك الحالة بأن آذتنا وثارت علينا قبائل عدة من رعاياكم، ولا أحب أن أقابلهم بالمثل حتى لا تحملوني مسئولية نقض هذا الصلح.

ثانيا– أؤكد لكم من جديد أني لا أعمل من جانبي إلا ما تتم به المصلحة على حسب ما طلبتموه مني، ومن واجبكم أن تحولوا دون تكرار مثل هذا العدوان من جانب رعاياكم.

من مُحَّمد بن عبد الله حسن.

وقال الملا في الكتاب الثالث:

إلى الحكوم الإيطالية : السلام على من اتبع الهدى ، وبعد:

فأخبركم بأننا قد عملنا من جانبنا بما يقتضيه الصلح من الهدوء وننتظر أن تقفوا موقف العدل بيننا وبين رعاياكم.

واعلموا أننا لا نقبل بأي تقدير أن يقوموا ببناء الحصون والقلاع في أرض نغال ومدغ. كذلك نطلب أن تأمروا "رير كينديد" (أولاد كينديد) ألا يبنوا شيئا في أرض مدغ وأن تأمروا "به در" أن يردوا للدراويش الأموال التي أخذوها للتجارة ثم اغتصبوها.

وانصحوا الانجليز أن يرحلوا من جميع أراضي الدراويش ونطلب منكم ألا تتعرضوا للسفن التي تحمل إلينا البضائع ولا تمنعوها من الرسو في مياهنا لأنها تحمل إلينا ما يساعد في تعمير بلدنا.

ونطلب منكم كذلك أن تتكلموا مع الأنجليز في تنفيذ الصلح من جانبهم وأن يرحلوا عن أرضنا ويردوا إلينا الأموال التي نهبتها رعيتهم قبيلة "دبيس".

فإذا قبل الانجليز الرجوع من أرضنا فذاك هو مقصودنا. وإلا فنحلف باسم ربنا ألا نكف عن محاربتهم ما داموا في أرضنا وإن لم يبق منا شخص واحد ليقاتلهم، وأهم مطالبنا أن توقفوا جميع الاستفزازات التي لا يمكن الصبر

عليها ، وأهمها إنشاء القلاع في مدغ وفي نغال وألا يقدموا كذلك على الزراعة في "نكال".

من مُحَمَّد بن عبد الله حسن.

تسليم رسائل الملا:

وفي 1321/12/29 هـ الموافق 1904/3/16م وصل الحاج مُحَمَّد حسين رسول الله إلى "بندر قاسم" تحت ستار من التكتم الشديد عن جميع القبائل واتصل بالملازم الطلياني "ورشيل" وسلم إليه الكتب الثلاثة وأخذ منه إيصالا بالاستلام، وأعرب له عن امتنان الملا ورجاله للمعاملة الطيبة التي لقيها مندوبهم "عبد الله بن شحري" وخاصة رفضكم تسليمه إلى الحكومة الانجليزية. ورجع الرجل في الليلة التي وصل فيها خشية أن ينكشف أمره فيقع في أيدي القبائل المجرتينية.

أما الملازم الطلياني، فقد أرسل الكتب من فوره إلى القنصل الإيطالي الموجود في عدن لإبلاغها لحكومته.

وما أن تلقت الحكومة الإيطالية هذه الرسائل حتى أعلنت عن اعتزامها تنفيذ اتفاق الصلح مع الملا حتى ولو لم توافق الحكومتان الانجليزية والحبشية وعينت للمفاوضات السنيور "كبليري بسطلوتزا" الذي كان يعرف العربية وكثيرا من العلوم الإسلامية والعقلية ولا سيما المنطق.

وأبلغت الحكومة الإيطالية عزمها على الصلح إلى الانجليز الذين رفضوا النزول للدراويش عن أرض مدغ زاعمين أن ذلك سيلحق الضرر الكبير

بمستعمراتهم ولكنهم حينما رأوا تصميم إيطاليا على تنفيذ الصلح عادوا فوافقوا عليه كما سيلي:

شروط انجلترا لاتفاق الصلح:

ففي 1322/5/28 هـ الموافق 1904/8/9م أبلغ وزير الخارجية الانجليزية الحكومة الايطالية عن رضا حكومته عن المحاولات التي تبذلها إيطاليا لأجل إخماد ثورة الدراويش السيد مُحَمَّد بالشروط الآتية:

1-عدم تدخله في سياسة القبائل الصومالية التابعة لانجلترا ووقف غزواته لها.

2-أن يجلس مع دراويشه في مكان مخصص لهم لا يتوسعون فيه ولا يجاوزونه إلى غيره.

3-أن ينزل عن خطته في التسلح وتقوية جيشه.

4-ومقابل هذا نرفع عنه الحصار المضروب عليه من جميع الجهات ونسمح له باستيراد البضائع غير الأسلحة متى نفذ من جانبه الشروط السابقة.

ولكن الحكومة الإيطالية التي كانت حريصة على إتمام هذا الصلح كما سبق أن أوضحنا رأت في هذه الشروط تعويقا لمهمتها فرفضتها، وانتهى الموقف بعدول انجلترا عن موقفها وقبولها عقد الصلح مع الملا بتفويض الحكومة الإيطالية.

وفي 1322/6/1 هـ الموافق 1904/8/12م تلقت الحكومة الإيطالية من السفير البريطاني في روما هذا الكتاب.

"إننا نحمد للحكومة الإيطالية مشاورات الصداقة في شأن هذا الصلح ونرجو أن توقع هي باسمنا على كل ما يتوصل إليه "بسطلوتزا" مع السيد مُحَمَّد من المصالحة ، وثقوا بأننا نتعاون معكم في كل ما يتعلق بتنفيذ هذا الصلح، وقد وقع السفير البريطاني الكتاب، وأكد للحكومة الإيطالية أن الحبشة ستدخل معهم في هذا الصلح.

وبعد هذا مباشرة سافر الوفد الإيطالي برياسة "بسطلوتزا" لمقابلة الملا وفي طريقه من بور سعيد إلى عدن التقى على الباخرة بالحبشي المسمى "دجاماش ورقو" المبعوث من جهة الملك "منليك" ملك الحبشة إلى عدن لكي يوسط الشيخ محمود يوسف الورسنقلي شيخ الطريقة الصالحية في عدن في التفاهم مع الملا بشأن الصلح.

ولكنه عدل عن الفكرة بعد مقابلة "بسطلوتزا" واكتفى بالوفد الإيطالي الذي أصبح في هذه الحالة ممثلا رسميا للدول الثلاث في مفاوضة الملا وهي انجلترا وإيطاليا والحبشة.

استئذان في دخول أرض الدراويش:

ولقد أقدم "بسطلوتزا" فور وصوله أرض الصومال على خطوة ديبلوماسية طيبة حينما قرر أن يضم إلى الوفد الرسمي "عبد الله بن شحري" الذي

كان حتى ذلك التاريخ في موطن الثقة وواسطة التفاهم بين الملا والإدارة الإيطالية في الصومال، لعل في حضوره ما يخفف حدة التوتر، ويملأ جو المفاوضات بالثقة.

ومن "بندر قاسم" أرسل بسطلوتزا الكتاب التالي إلى السيد مُحَّد يستأذن فيه دخول أرض الدراويش:

باسم الله، الحمد لله وحده..

إلى الغالي الشيخ مُحَّد بن عبد الله سلمه الله، وأعطاه العافية والخير..

نحن في خير ونحمد الله على جميع الأحوال ، وصلت إلى هنا مبعوثا من إيطاليا القوية لأجل طلب الصلح والأمن والهدنة في جميع بلاد الصومال راجيا من الله تحقيق ذلك.

أقول بإخلاص: اللهم اجعل الهدوء والأمن في صوماليا.

وأما الكتب التي أرسلتها إلى الحكومة منذ أربعة أشهر فقد فهمنا منها أنكم تحبون المصالحة ونسأل الله أن يجيب منا ومنكم طلب المصالحة وأن يجعل نتيجة نياتنا الصالحة أفعالا جميلة.

وإذا كانت عزيمتكم أن تستبدلوا بالحروب الدروس وقراءة القرآن فأرسل لي فورا رسالة يحملها رجل عاقل أمين ذو نية حسنة، وأخبره بجميع مقترحاتم لكي نتبادل الآراء معه، فأعرض النتيجة على الحكومة الإيطالية وأقف على رأيها في ذلك والله يشهد أني مخلص لله في هذا، ولدينا هنا المخلص لكم عبد الله شحري ، الذي كان يساعدنا في هذا الصلح.

هذا ما أعرفه لكم وأحمد الله لو أرسلتم لي جوابكم سريعا بوساطة رسول أمين إلى ميناء "الك" بعد 25 يوما من هذا التاريخ ، وسأصل في "الك" على ظهر باخرة لانتظار جوابكم، جعل الله بيننا الأمن والتسامح وأطال بقاءكم وعمركم.

كتب في بندر قاسم في 12 سبتمبر 1904م الموافق 1322/7/3 هـ.

من أمين الحكومة الإيطالية "بسطلوتزا"

الملا يأذن لهم بالدخول:

وقد رد السيد مُحَمَّد على السنيور بسطلوتزا بالكتاب الآتي في 1322/7/17هـ الموافق 26 سبتمبر 1904م.

من أفقر العبيد وأحوجهم إلى الله الذي ليس لغيره حول ولا قوة.. مُحَمَّد بن عبد الله إلى "بسطلوتزا"، السلام على من اتبع الهدى أما بعد:

فلقد وصلني كتابك المحرر في بندر قاسم بتاريخ 3 رجب سنة 1322هـ – المنبئ لنا بأن حكومتك الإيطالية فوضتك، وجعلتك وكيلا عنها لمفاوضة عقد الصلح معنا، فبناء على رغبتك في مقابلتنا في "الك" فإننا مستعدون لذلك، ويكون الموعد إن شاء الله تعالى 6 شعبان سنة

1322هـ وليجيء معك عبد الله شحري وكل من تريده غير الانجليز ونرجو أن نرى إخلاصك، وحسن نيتك.

أما طلبك مني تقديم مقترحاتنا إليك لتعرضها على حكومتك فهذا العرض سيكون إن شاء الله تعالى بعد محادثتنا وجها بوجه.

الملا في أرض المفاوضة:

وفي الزمان والمكان الذي جرت على أرضه المفاوضات يسجل التاريخ للملا مجموعة من التصرفات الدالة على ما كان يتمتع به من عبقرية واعية وما كان لديه من قدرة في توجيه الأحداث الوجهة النفسية التي يريدها ومقدرته كذلك في أحكام وسائل الدعاية والإعلام، والرد العملي على ما كان يحيط بثورته من أراجيف.

فعندما التقى الوفدان للتفاوض كان الحصار الاستعماري يضيق ويشتد حول الملا ورجاله بصورة خيل للمستعمرين معها أن الملا على وشك الانهيار بسبب سوء أحواله الاقتصادية..

وفي الوقت نفسه كانت الدعاية الاستعمارية العامة، والانجليزية خاصة تحاول التهوين من قيم الملا وجيوشه وتنال من كل انتصار تحرزه وتعزوه إلى أسباب خارجية بعيدة عن قوة الرجل وقوة رجاله.

وعلى هذا كانت انجلترا تبني سياستها لدرجة أنهم ترددوا غير مرة في أمر المفاوضة كما سبقت الإشارة إليه.

من أجل هذا كله كان على الملا أن ينتهز فرصة قدوم وفد رسمي للتفاوض كي يستعرض قوته الحقيقية ويزلزل كل هذه الأراجيف من أساسها ويقدم رده عليها في صورة عملية .. وهذا ما حدث.

ففي شعبان 1322هـ الموافق 1904/10/15 وصل الملا وقوة عظيمة من رجاله إلى ثغر "الك" في الوقت الذي وصلت فيه الباخرة الإيطالية المقلة لوفد المفاوضات.

وأمضى الوفد الإيطالي يوم الوصول في الباخرة.

وبات الدراويش ليلتهم في الجبال الواقعة فيما وراء حصن "الك" الخاص بهم.

وفي السابع من شعبان نزل الوفد إلى الساحل بإذن جديد من السيد مُحَمَّد. وقابلهم الملا ومعه من رجاله ما لا يزيد عددهم عن خمسين في حين كانت القوات منتشرة في أماكنها في وسط الجبال.

وبعد تبادل العبارات التقليدية في مثل هذه الأحوال أمر الملا ببدء الاستعراض وكانت مفاجأة كبيرة للمفاوضين الأجانب.

فقد كانت فرق الفرسان التي زادت على خمسين ألف راكب تمر أمام الوفدين في نظام رائع وملابس فاخرة تحسبها من سندس النعيم كما تقول المذكرات.

وبعد الفرسان مرت فرق المشاة وكان عددها مائة ألف يحملون على أكتافهم اليسرى أنواعا من الرماح لا نظير لها في الطول والعرض والضخامة.

وفي أثناء العرض كان الفرسان والمشاة ينشدون الأناشيد الحماسية التي من بينها:

يا زعيمنا زيد الجهاد ضد الانجليز..

لننتقم لقتلانا في معركة جدبال..

وقد أدى هذا العرض مهمته الأساسية ونجح في إقناع "بسطلوتزا" بأن الحصار المفروض حول الدراويش لم يؤثر فيهم، ولم ينقص شيئا أو سلاحا مما هم في حاجة إليه.

كما أيقن بسطلوتزا أن القوات التي مرت أمامه لا يمكن التغلب عليها بسهولة وقد مال على عبد الله بن شحري عضو الوفد يقول له :

"إن الانجليز الذين قالوا أنهم أبادوا الدراويش في معركة "جدبال" والذي ادعوا أن قواتهم لا تزيد أبدا عن عشرة آلاف مقاتل لم تكن أقاويلهم إلا خدعة وأكذوبة.

ومعنى هذا أن الملا قد نجح في إحراز الانتصار النفسي قبل بدء المفاوضات التي بدأت في اليوم التالي في داخل قلعة "الك".

ماذا يستفيدون من الصلح؟

وجدير بنا قبل عرض تفاصيل هذه المفاوضات وما انتهت إليه أن نشرح دوافع هؤلاء المتفاوضين إلى الصلح وماذا تفيده كل دولة على حدة؟.

فأما إيطاليا:

فكانت تهدف إلى تحقيق الأغراض الستة الآتية:

1-أن تأمن جانب الدراويش حتى يتم لها الاستيلاء على جميع سواحل بنادر (منطقة مقديشو وما يتصل بها) والتي أخذتها بالخديعة والغدر من حكوم السلطان برغش أيام كانت تابعة له، وقد تم الاستيلاء عليها نهائيا عام 1905م.

2-أن تتمكن من التوغل في الأراضي الصومالية شمال "بلعط" و"أفغوي" إي أن تتوغل إلى الداخل بعيدا عن الشريط الساحلي الضيق.

3-محاولة السيطرة على القبائل الداخلية في المنطقتين السابقتين وإخضاعها لحمايتها.

4-أن نتخلص مؤقتا من الالتزامات الباهظة التي كانت مفروضة عليها لسلطان مدغ وهبية، ثم المجرتينيا. فإنها على الدوام كانت تمدهما بالأسلحة والمال بصورة دورية وبالمساواة التامة بين السلطانين حتى لا يغضب أحدهما من الآخر.

5-أن تتاح لها الفرصة الهادئة لإعداد جيش قوي يمكنه الصمود مستقبلا.. لهجمات الدراويش. كما تتمكن من تنفيذ سياستها تجاه الصومال بعيدا عن الاضطراب الذي سببته حالة الحرب.

6-محاولة استمالة الدراويش بالهدايا والأموال لعلهم يقبلون الحماية الايطالية كما قبلها غيرهم من قبل.

أما أغراض انجلترا فهي:

1-أن يكون عامل الزمن كافيا في إخماد جذوة الروح الثوري عند الملا ورجاله وتتميع أهدافهم ولا يصبح من اليسير العودة إلى نقطة البداية.

2-أن تنقذ موارد السلاح والمعدات التي يحصل عليها الدراويش نتيجة انتصارهم في المعارك والمصادمات العسكرية.

3-أن تستخدم هذا الصلح في محاولة التفريق بين الملا ورجاله موهمة أياهم أنه بدأ يساوم المستعمرين.

4-أن تضمن بقاء الدراويش محصورين داخل منطقتهم حتى لا يهددوا المناطق الأخرى.

5-أن يبيح الاختلاط السلمي بالدراويش فرصا أكبر للتآمر وبث الفتنة فيما بينها على نحو ما كشفت عنه الأيام بعد في إحدى محاولات الانقلاب.

6-أن توفر على الخزانة ما تتكبده من أموال، سواء في الحرب أو في مد القبائل الموالية لها بالمال.

وأما أغراض الحبشة فكانت:

1-التخلص من وطأة الحكومة الإنجليزية التي تلزمها دائما بتقديم رجالها للمساعدة في حرب الدراويش، وتعرضهم للتضحيات الكثيرة. وتحملهم من العناء ما لا يكاد يطاق، وخاصة حين يكون ميدان المعارك في غابات هود القليلة الماء المجهولة المسالك ولا سيما أن المساعدات المادية التي تلقتها الحبشة لا تكاد تذكر بجانب هذه التضحيات.

2-تطمع الحبشة في أن يسفر الصلح عن نزول الدراويش لها عن جزء – ولو يسير– من أرض أوجادينيا– تستطيع أن تجبي خراجه وتنتفع به دون حرب.

وأما أهداف الملا والدراويش فكانت مركزة فيما يلي:

أولا: أن تكون الهدنة فرصة لتقوية الجيش المرابط في "الأوجادين" حتى يكون في مستوى جيشهم في الشرق والشمال، وأن يتم بينهما الاتصال الدائم المنتظم الذي كان مفقودا قبل.

ثانيا: أن يتمكنوا من إقامة أكبر عدد ممكن من القلاع في مختلف البقاع التي لم يتمكنوا من قبل من إقامة الحصون فيها. ولقد حدث بالفعل أن أقاموا في مدة الصلح ثلاثة حصون أخرى في ميناء "إيل" على المحيط الهندي وحصنا في "الك" وآخر في "غورن" واثنين في "كبع" و "كوعد" وكلها في المنطقة الواقعة بين أراض السلطانين الخاضعين للحماية الإيطالية وهما : سلطان هبية وسلطان المجريتينا.

ولقد بلغ عدد القلاع والحصون التي أقيمت في مختلف المناطق في أثناء هذه الهدنة اثنين وخمسين حصنا.. عدا التحصينات القديمة.

ثالثا: فيما عدا الأغراض العسكرية كان الملا يهدف إلى الحصول على منفذ بحري يستطيع منه الاتصال بالدول المنافسة للاستعمار في الصومال مثل تركيا وألمانيا لعلهما تستطيعان مساعدته في المجالين السياسي والعسكري.

رابعا: كما كان الملا يرى في عقد الصلح فرصة للاتصال الودي بالجارة الافريقية وهي الحبشة، لعله يستطيع إقناعها بالعدول عن مناصرتها للاستعمار ولعله – كما تقول مذكراته– يستطيع أن يذكرها بأن الرجل الأبيض لا ينوي الخير للرجل الافريقي، وأن عاقبة الحبشة مع الاستعمار لن تكون أحسن من عاقبة الثور الأسود الذي ساعد السبع على أكل أخيه الأبيض كما تقول الأسطورة الشهيرة.

خامسا: من الناحية الداخلية البحتة كان الملا يرى أن هذا الصلح قد يعطيه الفرصة للاتصال المباشر برجال القبائل التي خدعها الاستعمار فيجدد معها محاولات استمالتها إلى جانبه.

سادسا: أن تمكنه فرصة الهدنة من إعداد جيل جديد من القادة الروحيين ليكونوا خلفا لسلفهم الذين استشهدوا في الجهاد، وقد سبق أن أشرنا إلى اهتمام الملا بهؤلاء القادة الذين كان يتولى إعدادهم بنفسه ويعلق عليهم أهمية كبيرة في تنفيذ خططه وسياسته.

هكذا كان اللقاء:

وبهذه الأهداف الكثيرة المتعارضة، التقى الوفد الذي يرأسه بسطلوتزا بالسيد مُحَمَّد بوصفه نائب الدراويش وبعد أخذ ورد طويلين كانت هذه خلاصة ما استقرت الآراء عليه:

أولا: اقترح بسطلوتزا في البداية أن يكون الصلح شاملا لأتباع كل دولة من الدول المشتركة في المفاوضات .. وهي إيطاليا وانجلترا والحبشة.

ولكن السيد مُحَمَّد لم يكن موافقا على أن يشمل الصلح أتباع انجلترا ، لما كان يعرفه من غدرهم وسوء نواياهم وفي النهاية وافق بشرطين:

(أ) أن تنسحب الحكومة البريطانية من جميع أرض قبائل "دلبهنته" وفي (نكال – هود وخاصة عينب – برهودل)

(ب) أن تدفع التعويضات الكاملة للدراويش لأنها كانت دائما البادئة بالعدوان وقد وافق بسطلوتزا على الشرطين من جانبه ، وعلق وضعهما موضع التنفيذ على موافقة بريطانيا.

ثانيا: اشترط السيد مُحَّد للموافقة على الصلح أن تطلق إيطاليا سراح السلطان يوسف علي سلطان هبية الملقب "كينديد" الذي اعتقل في إريتريا عام 1903م بناء على طلب انجلترا بحجة أنه لم يقدم المساعدات لجيوشها في بعض حروبها مع "الملا".

وقال السيد مُحَّد أن هذا السلطان وإن كان من خصومنا ومحاربينا إلا أن اعتقاله كان بسببنا ومن ثم نرى من واجبنا المطالبة بإطلاق سراحه.

وقد وافق بسطلوتزا على هذا المطلب، ولكنه اقترح عدم تسجيله في صحيفة الصلح التي سيوقع عليها الطرفان لما فيه من إساءة إلى سمعة إيطاليا لدى الصوماليين.

ثالثا: طلب السيد مُحَّد إنهاء الحصار المضروب عليه فورا، وألا تتعرض إيطاليا وانجلترا وكذا فرنسا المشتركة في الحصار لأية سفينة تحمل أعلام الدراويش ووافق بسطلوتزا.

رابعا : طلب السيد مُحَّد أن تنزل له إيطاليا –بالاتفاق مع البغر عثمان– سلطان مجرتينيا عن إحدى المدن الآتية لتكون ميناء بحريا له وهي : بندر قاسم – أو حافون – أو علوله.

وقد اعتذر بسطلوتزا عن إجابة هذا المطلب رعاية لجانب البغر عثمان وقال للملا: بدل هذا ننزل لك رسميا عن المنطقة الساحلية الواقعة ما بين "كرعد" جنوبا و"كبع " شمالا، وهي من الساحل الفاصل بين مقاطعتي السلطانين.

وقد عقب الملا بقوله:

أن هذه المنطقة فعلا تحت سيطرتنا نحن الدراويش وأبسط الأدلة على ذلك أن المفاوضات التي تقوم بها الآن تجري في حصن "الك " الدرويشي في المنطقة نفسها فما معنى النزول عنها؟

وأجاب بسطلوتزا:

أن النزول عنها يعطي الأمر الواقع صفته المشروعة الرسمية فيصبح حقا لا مجال للتنازع عليه فيما بعد، وقد قبل السيد مُحَّمد هذا المنطق ووافق عليه.

ولكن بسطلوتزا علق نزوله الرسمي عن هذه المنطقة المذكورة من الساحل على شرط عدم بيع الأسلحة أو العبيد فيما ينشأ بها من موانئ وكذلك إبقاء إسم الحماية الإيطالية على المياه الاقليمية فقط لهذه المنطقة تخلصا من تعرضها لأي عدوان أوربي.

أما أرض الشاطئ بما فيها ومن فيها فالحكم المطلق فيها للدراويش دون أي تدخل وقد اعترض الملا على شرط حظر بيع الأسلحة في هذه الموانى وقال لبسطلوتزا يظهر أن هدفك من هذه المفاوضة وهذا الصلح أن تجردني من كل سلاح.

فقال بسطلوتزا: لا بل إن حكومتي على استعداد لأن تقدم لك جميع الأسلحة التي تحتاجها على شرط ألا يذكر هذا في نصوص المعاهدة وأن تضمن لي في الوقت نفسه ألا تشتري سلاحا من غيرنا. ووافق السيد مُحَّمد.

خامسا: طالب السيد مُحَّمد بتعويضات معقولة من الأموال التي اغتصبتها قبيلة "بهدر" باعتبارها سلعا تجارية لغنائم حرب. كما طالب بدفع التعويضات عل الفتيات المجرتينيات اللاتي كن مخطوبات لبعض خاصة الدراويش ومنهن بنت السلطان عثمان وحصلن من الدراويش على أموال طائلة وبعد هذا جاء المجرتينيون فاغتصبوا البنات ولم يردوا المال.

وقد وافق بسطلوتزا على تعويض السلع التجارية دون غيرها مدعيا أن إيطاليا هي التي ستدفع هذا التعويض من مالها لا من مال القبيلة المذكورة حسما للنزاع ورغبة في الوصول إلى الصلح، وطلب إلى السيد مُحَّمد النزول عن باقي التعويضات فوافق.

سادسا: حدد الطرفان مدة خمسين يوما لتكون مدة الهدنة المؤقتة التي يعود بعدها بسطلوتزا إلى الدراويش بموافقة الحكومات الثلاث أو عدم موافقتها وكان ذلك في 1904/12/6م الموافق 28 رمضان 1322هـ.

سابعا: تعهد بسطلوتزا ألا يقع شيء ينقض الهدنة من جانب الحكومات الثلاث إيطاليا وانجلترا والحبشة وكذلك القبائل التابعة لها من تاريخ علمها بالاتفاق.

رسالة من الملا:

وبعد انتهاء المفاوضات سافر بسطلوتزا وجميع مرافقيه حتى الصومالي عبد الله شحري ليعرض على حكومته المقترحات التي تلاقت عندها وجهات النظر وقد حمله السيد مُحَمَّد رسالة إلى الحكومة الإيطالية يستعرض فيها قصة المحاولات السابقة التي قام مسئولون إيطاليون لعقد الصلح ولكنها دائما كانت لا تنتهي إلى شيئ وأعرب عن أمله في ألا تلقى محاولة بسطلوتزا هذه المصير نفسه.

وفي ختام رسالته أعلن عن عزمه على إحدى إثنين:

إما حرب أبدية وإما صلح حقيقي لا خداع فيه وهذا نص الرسالة في 1322/8/7 هـ الموافق 1904/10/17م.

من السيد مُحَمَّد عبد الله إلى الإيطاليين:

السلام عليكم أما بعد:

فأعرفكم أن المراسلات التي جرت بيننا حتى الآن وتزيد عن أربعين رسالة وكان أول من كتب إلينا منكم هو "دوليو" الذي كان في مقديشو وطلب المسالمة والمصاحلة ووعدنا بالمساعدة في مدافعة الأعداء فلم يوف بوعده ولم يصدق له قول.

ومن بعد كتب إلينا "سوليو" وأطربنا بأقواله المعسولة حتى كدنا نثق بها ونطمئن إليها ولم نر منه وفاء وإن كان أسيس أفضل من الأول بل تقهقر وتراجع في جميع وعوده.

ثم بعث إلينا "إبلات" ثلاث كتب وطلب منا في أحداها وقف القتال وأن نرسل كتابه الثاني إلى إيطالي يوجد مع الجيوش الانجليزية التي تغزونا وأن نرسل الثالث إلى رير يوسف علي.

وأظهر نفسه أمامنا كمن يقدر على وقف القتال من جهة الانجليز ومن جهة يوسف علي إذا أوقفناه من جانبنا.

ولقد أوقفناه نحن من جانبنا. أما الآخران فلم يوقفاه بل ازداد نشاطهما وقتل رير يوسف علي الرسل الأربع التي حملت إليهم كتابهم وقتل الانجليز الرجلين اللذين حملا إليهم كتابهم ومزقت الكتب من كلا الجانبين.

ولما يئسنا من المصالحة من كليهما جددنا عمليات القتال من جانبنا وعقدنا العزم على عدم إيقافه.

واليوم جائنا بسطلوتزا يزعم أنه مبعوث حكومته للصلح وقد أطلعناه على ما في قلوبنا تماما وقبلنا منه عقد المصالحة وجعلته وكيلا من جانبنا في هذا الصلح المزمع عقده كما أنه وكيل من جانب خصومي جميعا.

والكذب والخديعة محرمان وكلامي منحصر في مسألة واحدة تلك المسألة هي إما حرب أبدية وإما صلح حقيقي.

وإذا خاننا بسطلوتزا ورمى مطالبنا من وراء ظهره فسيكون ذلك عارا ملاصقا له إلى الأبد، وقد وافقنا على أن تكون مدة الانتظار لإبرام الصلح هي خمسين يوما فقط حتى يراجع حكومته.

بسطلوتزا يجري اتصالاته:

سافر بسطلوتزا بالمقترحات المتفق عليها ليعرضها على حكومته وعلى الحكومات صاحبة الشأن في الصلح واتصل في "هبية" بمندوب الحكومة الايطالية فيها وأقفه عل سير المباحثات وطلب إليه إبلا غ السلطان يوسف علي المعتقل في إرتيريا بمدة الهدنة.

واتصل كذلك في بندر قاسم بسلطان مجرتينيا وأبلغه أنباء المفاوضات ومدة الهدنة ثم أبرق إلى حكومة لندن بجميع ما أنتهى إليه مع السيد مُحَّد وطلب إليها تفويض الكولونيل "سوين" مندوبها في عدن للتفاهم معه.

وقد وافقت لندن واجتمع بسطلوتزا وسوين في عدن في 11/14/ 1904م ودرسا كل ما انتهت إليه المباحثات مع الملا وقال لبسطلوتزا.

إن حكومة لندن تعارض في أن يضم إلى حدود الدراويش "بوهودل" و"عين" ولا تقبل إلا أن يكونا منطقتي حياد. واقترح أن تكون الحدود بين الانجليز والموالين لهم وبين السيد مُحَّد هي الأماكن : حودن – تغفل – ييل – دنود – قطعس.

وأخطر بسلطوتزا السيد مُحَّد بهذا التعديل الذي يقترحه سوين فرفضه رفضا قاطعا.

خرق الهدنة المؤقتة ونتائج عدم تعيين الحدود:

ولقد نتج عن عدم تعيين الحدود بين الدراويش وبين المنطقة الانجليزية ومنطقة القبائل الموالية للانجليز وقوع عدة اشتباكات ومعارك تناقض مناقضة صريحة نص وروح الهدنة المؤقتة التي تم الاتفاق عليها بين الملا وبسطلوتزا وقد زادت حوادث خرق الهدنة على ست حوادث انتهت بحملة تأديبية كبيرة من جانب الدراويش لأولئك الذين دأبوا على ارتكاب مثل هذه الأعمال الاستفزازية.

*ففي أول رمضان 1322هـ الموافق 1904/11/8م هاجمت قوات سلطان مجرتينيا بقياد "بلي سمتر" مركز الدراويش في "جد نكل" على حين غرة ولكنها هزمت وأسر قائدها ثم أطلقه السيد مُحَّد نظير فدية من المال وكانت هذه أول معركة.

* والثانية كانت بين الانجليز وطليعة الدراويش في "عين طيره" في 18 رمضان 1322هـ الموافق 1904/11/25م وأسفرت عن مقتل أربعة من الدراويش وقد استولى الدراويش على 150 فرسا من خيول القوات الأنجليزية.

* والمعركة الثالثة كانت عدوانا من قوات سلطان هبية على مائة من الدراويش أسفرت عن مقتل أكثرهم وتعرف هذه الواقعة باسم مجزرة "طغورناك" وكانت في 11/30/ 1904م.

*والمعركة الرابعة كانت في حقيقتها مجموعة من حوادث اختطاف النوق والأبقار المخصصة للألبان من الدراويش قامت بها قبيلة ريرمهد التابعة لسلطان هبية وحدثت في المدة ما بين 4 إلى 11 من ديسمبر 1904 م.

* أما المعركة الأخيرة من معارك خرق الهدنة فكانت الحملة التأديبية التي قام بها الملا ضد رجال هذه القبيلة في مياه "آن دنيل" وصادر منهم فيها ما لا يحصى من الأموال ومن بينها أكثر من خمسمائة بندقية.

بسطلوتزا في موقف الحرج:

ولقد سلك بسطلوتزا من تعارض الآراء في مسألة الحدود مسلك الدبلوماسي الحريص على توقيع اتفاق الصلح بأي ثمن والتجاوز عن هذه العقبات ولذا كان يقنع كلا من الجانبين الدراويش والانجليز بأنه سيبذل جهوده في سبيل جعل الحدود على حسب مصلحة كل من الطرفين زاعما أن هذا يحتاج إلى الزمن وإلى التفاوض السري الودي بعد توقيع اتفاق الصلح.

وحين حدثت المعارك والاستفزازت التي كانت خرقا للهدنة من جانب انجلترا وأعوانها قبيل توقيع الاتفاق أرسل بسطلوتزا إلى السيد مُحَمَّد يعتذر إليه

عما حدث من الإدارة الانجليزية في الصومال ويعتذر كذلك عما قام به السلطانان التابعان لها.

عودة بسطلوتزا ونص معاهدة الصلح:

وفي 1322/12/27 هـ الموافق 1905/4/3م وصل بسطلوتزا إلى ميناء الدراويش "الك" على متن بارجة حربية وكان يحمل عليها السلطان يوسف علي سلطان هبية الذي سبق اعتقاله في إرتيريا بناء على طلب الحكومة الانجليزية وكان من شروط الدراويش للصلح إطلاق سراحه ردا لجميله حين رفض مساعدة الانجليز ضدهم على الرغم من أن موقف سلطنته من الدراويش كان معاديا خلال هذه الفترة.

ومن طريق ما حدث إذ ذاك أنه عندما نزل بسطلوتزا من الباخرة إلى الشاطئ، استقبلته الدراويش بالأناشيد الصومالية التي جاء فيها:

"تلين كير كوفد وينو دبديد أن كلانو كدبكي أد شبيد
كينديد مود!؟"

ومعناها بالعربية: أيها الإيطالي ذو البرنيطة الكبيرة لنتفاوض فيما بعد وتلقي علينا الأكاذيب هل أحضرت كينديد معك؟ أي أحضرت السلطان يوسف علي؟

فلما ترجمت الأنشودة له أجاب ضاحكا: نعم — نعم.

وفي 28 من ذي الحجة 1322 هـ الموافق 1905/3/5م وقع الطرفان في حصن "الك" معاهدة الصلح وهذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

الغرض من هذا الاتفاق عند كلا الجانبين هو الوصول إلى صلح وأمن يعمان جميع أنحاء الصومال والجانبان هما: بسطلوتزا المبعوث الخاص الإيطالي والسيد مُحَمَّد بن عبد الله حسن النائب عن نفسه وعن إخوانه الدراويش وقد اتفقنا على المواد الآتية:

1-السيد مُحَمَّد المذكور أعلاه ودراويشه من جانب وإيطاليا ورعاياها مجرتينيين وغيرهم من جانب يكونان في تصالح أبدي.

وكذلك يكون السيد مُحَمَّد وإخوانه الدراويش من جانب وانجلترا ورعاياه وكذلك الحبشة من جانب في تصالح أبدي.

إيطاليا هي المسئولة والنائبة عن نفسها وعن رعاياها وعن الإنجليز ورعاياهم وأي تشاجر أو مخالفة تحصل بين الجانبين سيحل بالمفاوضة والوفادة وسيكون رئيس المفاوضة إيطاليا وللإنجليز أن يحضروا المفاوضات إذا كان الخلاف متعلقا بجانبهم:

2-قد تنازلت إيطاليا وسلطاناها للسيد مُحَمَّد عن جميع السواحل التي تقع بين "كرعد وكبع" لكي يتخذها بلدانا ترسو فيها سفنه التجارية.

وإيطاليا تراقب تلك البلدان من جهة البحر حيث أن مياهها لم تزل في حمايتها ولها أن تجعل في تلك البلدان وكيلها إذا احتاجت إلى ذلك ويمكنه اتخاذ عساكر له للحرس وعلى السيد مُحَمَّد أن يؤمن هذا الوكيل ويساعده ولها أن تأخذ العشور من واردات وصادرات تلك البلدان إذا شاءت.

أن حكم تلك البلدان وحكم برورها يكون دائما للسيد مُحَمَّد والسيد مُحَمَّد هو الوكيل المتصرف عن إيطاليا حتى ترسل وكيلها وعلى السيد مُحَمَّد تأمين تلك البلدان وطرقها وأن يحكم رعايا الدول الثلاث التي في تلك البلدان بالعدل والإنصاف.

3-يكون بيع البضائع حرا في تلك البلدان باستثناء السلاح والعبيد وعلى السيد أن يتعهد بذلك.

4-الأراضي المعروفة والمعترف بها للدراويش هي نكال وهود وعلى الانجليز أن ينزلوا عنها وكذا عن الساحل الذي ذكرناه وهو الواقع بين كرعد وكبع، وكذلك أراضي أخرى ستضم إلى حدود الدراويش من جهة سلطاني مجرتينيا وهبية.

على الدراويش ألا ترسل خيولها وحيواناتها إلى ما فوق "حلين تغفل دنود" إلى أن يعود الوفد الإيطالي بموافقة الحكومة الأنجليزية بالنزول المذكور.

وعلى الدراويش أن ينزلوا لسلطان هبية عن جميع أراضي مدغ وجالكعي، وعلى السيد مُحَّد أيضا أن يعقد صلحا منفردا مع السلطانين ومع قبيلتي عمر محمود وعيسى محمود حيث أنهما لا يعترفان رسميا بسلطة السلطانين عليهما وإن كانت من ضمن قبائل المجرتينيين.

كل ما يحدث للدراويش مما يخل بسلامتهم وأمنهم فعلى الدراويش إبلاغه فورا إلى الحكومة الإيطالية لكي تتخذ الاجراءات اللازمة. تكون فورا لجنة تقوم بتنفيذ هذا الصلح من الجانبين وتتصل بالحبشة ويكون لها عضو في تلك اللجنة.

التوقيع

السيد مُحَّد بن عبد الله	كبليبري بسطلوتزا
28 من ذي الحجة 1322هـ	5 من مارس 1905م

رسالة من الملا:

وبعد توقيع معاهدة الصلح من الطرفين سافر بسطلوتزا ومعه صورة منها ومعه كذلك رسالة أخرى من الملا إلى الحكومة الإيطالية يلخص فيها قصة ثورته وأسبابها، ويؤكد مسئولية المستعمرين عامة وانجلترا خاصة عن كل ما حدث في الصومال من دمار وعدوان على الأموال والأرواح.

ولم يفته في هذا الكتاب أن يسجل التعهدات الشفوية التي التزم بها بسطلوتزا أمامه ولم يشأ تسجيلها في معاهدة الصلح مثل التعهد ببعض التعويضات والتعهد بتقديم السلاح إلى الدراويش ولم ينس أن يعلن في رسالته كذلك أنه ما لم توف إيطاليا بتعهداتها هذه فإنه سيكون في حل من اتفاقية الصلح.. وهذا نص الكتاب:

إلى الحكومة الإيطالية التي تسببت في هذا الصلح:

السلام على من اتبع الهدى وبعد فإني أعرفكم في هذا الكتاب ما يلي:

1- كنت فيما مضى شيخا يعبد ربه في بلاده ولا يهمه من الدنيا شيء سوى مطالعة كتبه مع إخوانه وتلاميذه.

وإن الانجليز هم الذين تسببوا في كل هذه الحروب وهم الذين ظلمونا في بلادنا وأهانوا ديانتنا الإسلامية وحاولوا أن يضللوا شعبنا عن المحجة الشرعية المحمدية وهم الذين فتحوا مدارس الضلال لأبنائنا وهم الذي أدخلوا الدول الأجنبية في بلادنا وهم الذين صادروا أموالنا وأبادوا خيرة رجالنا ويتموا أطفالنا ورملوا نساءنا بدون أي مبرر ودون أي سبب سوى الاعتداء والطغيان والكبرياء.

وهم الذي ضربوا علينا نطاقا قويا من الحصار وقطعوا عنا جميع الامدادات والبضائع وهم الذين ألبوا علينا جميع الدول والقبائل الصومالية.

ولولا وساطتكم هذه لم يكن يتصور من جانبنا عقد مصالحة معهم مهما يكن السبب فإذا لم ينزلوا لنا عن أراضينا "هود ونكال" وإذا لم يعوضونا عن خسائرنا ويكفوا عن اعتداءاتهم فإننا في حل من معاهدة الصلح معهم.

2-إن وكيلكم بسطلوتزا قد التزم لنا بأشياء كثيرة مقابل عقد المصالحة ومنها الأسلحة الكثيرة والتعويضات من جهتكم ومن جهة الانجليز وامتنع في الوقت نفسه أن نسجلها في وثيقة الصلح ونحن وافقنا على أقواله والتزاماته فلا تخرجوا عما التزمه لنا وكيلكم – واعلموا أن شمعة الكذاب لا تضيء إلى العشاء-.

من مُحَمَّد بن عبد الله

في 28 ذي الحجة 1322 هـ

انتهت مهمة بسطلوتزا:

وأبحرت الباخرة من "الك" تحمل "بسطلوتزا ومعه السلطان الطليق إلى سلطنته "هبية" واصطحب معه – بناء على طلبه – أربعة من الدراويش كي يذهبوا معه إلى المجرتينيين وإلى هبية ويشهدوا توقيع كل من السلطانين على اتفاقية الصلح، والأربعة الصوماليون هم : عبد الله بن شحري وديري عدال والشيخ مُحَمَّد أحمد نور وآدم عقال بير.

وقد وصل بسطلوتزا إلى هبية في 1905/5/6م وأنزل السلطان يوسف علي في سلطنته وكان قد كف بصره في الحبس وأطلقت الباخرة لتحيته تسع طلقات من المدفع.

وفي أرض السلطان وبين أولاده وحاشيته وقع اتفاقية الصلح وكذلك وقع البغر عثمان سلطان المجرتينيا في باركال بين قبيلته "به در".

وكأنما كان الوصول إلى هذه المرحلة إيذانا بانتهاء مهمة بسطلوتزا الذي سافر ولم يعد وحل محله السنيور "كبيل".

ملاحظات على اتفاقية الصلح:

الملاحظة الأولى أن نصوص المعاهدة لم تكن دقيقة ولا محدودة في كثير من موادها بل كانت على العكس فضفاضة تحمل التأويل وتبيح فرص العبث لمن يريد أن يعبث.

فمثلا : المادة الأولى: منها لم تحدد موقف الحبشة من حيث ادعاءها لرعوية إحدى القبائل الصومالية ولم تتعرض كذلك لتحديد المكان الذي يفصل بين أراضيها وأرض الدراويش في أوجادينيا الأمر الذي كان مثار خلاف ومشكلات لا تزال قائمة حتى اليوم بل لا تزال معروضة على هيئة الأمم المتحدة وهي مشكلة أرض الأوجادين المعروفة باسم الأراضي المحجوزة في الصومال.

ومثلا : المادة الثانية: الخاصة بالنزول للدراويش عن منطقة الساحل..
لم ينص على أن تكون الموانى المنشأة في هذه المنطقة خاصة بالدراويش لا غير؟ أو أنه يجوز لإيطاليا السماح لسفن الدول الأخرى بالرسو فيها؟

ومثلا: المادة الثالثة: لم تشمل النص على التزام إيطاليا بتقديم السلاح للدراويش – على حسب تعهد بسطلوتزا بذلك وصحيح أن الملا أوضح هذا في كتابه إلى الحكومة الإيطالية ولكن الرسائل شيء وما يسجل رسميا في المعاهدات شيء آخر.

وبالنسبة للمادة الرابعة لم يكن فيها نص يوضح ما يجب اتخاذه لو رفض الانجليز تنفيذ الجزء الخاص بهم فيها ولقد حدث فعلا أنهم رفضوا الموافقة على النزول عن أرض "هود ونكال" ولم يكن الملا مستعدا للنزول عن أي شبر فيها للانجليز ولم يكن مستعدا كذلك لجعل منطقتي "بوهودل وعين " من أرض "نكال" منطقتي حياد كما اقترح الانجليز.

كما أنه لم يوضح في هذه المادة حدود الأراضي المقترح ضمها إلى الدراويش من أراضي السلطانين كما أنها تتضمن تعارضا مع المادة الأولى لأن المادة الأولى تعتبر قبيلتي عمر محمود وعيسى محمود داخلتين ضمن القبائل المجيرتينية ويسري عليهما ما يسري على كل المجيرتينيين.

ولكن المادة الرابعة تخرجهما عن هذا الصلح وتطلب إلى الملا عقد مصالحة منفردة معهما لا يكون الطليان طرفا فيها.

كما أنه في الوقت نفسه في هذه المادة قد أهمل تحديد الحدود الفاصلة بين الدراويش وإيطاليا فلم تحدد لا من جهة شبيلة ولا من جهة نهر جوبا.

والسؤال الذي يرد على الخاطر:

أكانت هذه الملاحظات خافية على الطرفين اللذين وقعاها؟

*أما جانب المستعمرين ورعاياهم فلم تكن خافية بل كان إغفالهم متعمدا حتى يمكن استغلاله فيما بعد كما أثبتت الأحداث.

*وأما من جانب الدراويش فكما تقول مذكرات الملا أنهم قد أغمضوا أعينهم عمدا عن هذه الثغرات لأنهم كانوا يأملون تنفيذ أغراضهم الخاصة في وقت الهدنة والتي سبق توضيحها لأنها كانت في نظرهم أهم من كل الاتفاقية وخاصة أنهم لم يكونوا يثقون في المعاهدات التي تبرم مع المستعمرين حتى ولو كانت في منتهى الوضوح والدقة وكانوا يرون أن تحقيق القوة هو الذي يرغم المستعمر على احترام حقهم ولو لم يكن هناك نص مكتوب.

وهكذا أبرمت المعاهدة وكأنها ستار الدخان الذي يخفي من ورائه الكثير من المفاجآت والأحداث.

"موقف الجانبين بعد توقيع الصلح"



موقف الجبهة الاستعمارية:

كما قدمنا كانت اتفاقية الصلح هذه ستار الدخان الذي أخفى من ورائه الكثير من التصرفات والأحداث في كلا الجانبين ومن الناحية الاستعمارية اتخذت الخطوات الآتية:

1- سلح المستعمرون القبائل الموالية لهم ودفعوها إلى التقدم في الأرض التي تسيطر عليها الدراويش مصطحبين أموالهم وأولادهم بحجة أن الأرض أرضهم وأرض الآباء والأجداد وكان التخطيط الاستعماري يقضي أن تتقدم القوات الاستعمارية بأسلحتها الثقيلة من خلف القبائل الصومالية لكي تحتل كل مكان تتركه القبائل في تقدمها فيتحقق لها بذلك التوغل والسيطرة على أرض الدراويش تحت ستار من

الصوماليين في الوقت الذي يتمسكون فيه بمعاهدة الصلح إذا تصدت الدراويش لهذه القبائل.

2-أن يقوم الملك منليك – ملك الحبشة – بالهجوم على أراضي الدراويش الجنوبية – في أرض أوجادينا بحجة أن اتفاقية الصلح هذه ليست ملزمة له لأنها أبرمت دون حضوره ودون موافقته وأنه لم يوقع عليها حتى الآن.

3-لكي تضمن الجبهة الاستعمارية أحكام رقابتها على مصادر تسليح الملا واتصالاته الخارجية اتفقت فيما بينها على ألا تسمح لسفنه التجارية بالسير إلا على الخطوط التي تقع موانيها جميعا تحت السيطرة الانجليزية أو الايطالية وكل سفينة للدراويش توجد في البحر قاصدة الموانئ العربية أو عائدة منها تصادر بحمولتها ويقدم ملاحوها للمحاكمة.

ولقد طبقت الحكومة الإيطالية هذا الاتفاق للمرة الأولى على السفينية "داو" وقضت بسجن ملاحيها سبع سنوات وكان من بينهم عيسى طولوا الوكيل المتصرف للدراويش كما قامت إحدى البوارج الحربية التابعة للأسطول البريطاني بمصادرة إحدى سفن الدراويش العائدة بالبضائع، من مسقط في الجنوب العربي وأسيئت معاملة ركابها وإن لم يسجنوا.

4-في الوقت الذي يفرض فيه مثل هذا الحصار قررت الجبهات الاستعمارية أن تبخس أسعار البضائع التي يتجر فيها الدراويش وأن تعمل على بوار سوقها فيقع الاقتصاد الدرويشي ببين شقي الرحا الاستعماري فلا يسمح لهم بالتعامل مع الخارج في حين تباع تجارتهم - إن بيعت- بأبخس الأثمان.

5-تسليح كل صومالي يتوسمون فيه القدرة على محاربة الدروايش ودفعه إلى الاعتداء عليهم ثم التبرؤ من تبعة ما يقدمون عليه عند الاحتجاج كما فعلوا مع "فارح محمود" من قبيلة دولبهنتة، "عمر طور طلباس" من المجرتين.

6-الحيلولة دون قيام أي صداقة أو تعاون بين الدراويش والقبائل التي كانت تعتبر حتى توقيع اتفاقية الصلح قبائل محايدة ومحاولة ضمها إلى الصف الاستعماري مثل قبيلة "بيمال" وقبيلة "ورسنقلي" وقبيلة "عقال حامد تورو" من قبائل إسحاق وغيرهم.

7-القيام بحملة تشويه وكراهية ضد الملا خاصة والدراويش عامة يستخدم فيها الشعراء والخطباء والعلماء لإظهار الملا والدراويش بمظهر الخارجين على الدين والقائمين بالفتنة بين الناس وأن حربهم فريضة وأن دمهم حلال بل أنه أحل من دماء المستعمرين ولقد نشطت بالفعل هذه الحملات وكان قيامها بداية ظهور الأشعار الكثيرة التي

نظمها الملا في الرد على المشتركين في تلك الحملة من شعراء وخطباء كما سنعرض له فيما بعد.

8-يتصل بالاتجاه السابق تأليف المستعمرين لوفد من القبائل الموالية لهم بعثوا إلى مكة للاتصال بالسيد مُحَمَّد صالح الدويحي شيخ الملا وأستاذه في الطريقة كي يتهموه عنده بالكفر والخروج على الدين ويحاولوا استصدار فتوى من الشيخ بخطأ الملا في تصرفه أو لومه على قتال القبائل التابعة للمستعمرين.

ولقد استطاع هذا الوفد – وهو في مكة – وضع خاتم الشيخ مُحَمَّد صالح على رسالة مزورة موجهة إلى الدراويش حشوها بكل ما أرادوا أن يكتبوه ، لإحداث الفتنة في صفوف الدراويش وكانت لها قصة شهيرة سنعرض لها فيما بعد.

أما من جانب الدراويش والملا:

فقد اتخذت الخطوات الآتية:

1-أسرع الملا في تقوية الدراويش الجنوبية التي كانت تتعرض للهجوم المتكرر وأنشأ في منطقتها عددا من الحصون والقلاع وأعاد تنظيم جيوشها من جديد ثم أصدر إليهم الأوامر الحاسمة برد كل قبيلة تحاول التوسع في الأراضي الدرويشية.

2-الاتصال برجال القبائل – التي كانت محايدة – ولكنها أوذيت من المستعمرين أو من القبائل الموالية لهم بصرف النظر عن سبب هذا الأذى وتسليح هؤلاء الرجال الذين كانوا يسمون "بطعد" يعني أصحاب العصى البيض لأنها كانت أغلب سلاحهم أو كانوا يسمون "دبت" ويعني الصيادين لأن أكثرهم كان يعيش على الصيد وعلى الثمار الطبيعية التي تجود بها أرض هود وهم في الواقع لم يكونوا من الدراويش – رجال الملا – ولكن المستعمرين كانوا يشملونهم بالأذى جريا على سياسة من ليس معنا فهو علينا.

هؤلاء الرجال كانوا عند الملا "المقابل" لرجال القبائل التي جهزها الاستعمار بالسلاح ودفعوها إلى العدوان وكان يتبرأ من تبعات أعمالها دائما ولقد أثبت هؤلاء كيف كان الملا يؤدب المعتدين عليه ويعاملهم بالأسلوب الذي يعاملونه به في وعي وحزم وثقة.

3-بدأ السيد مُحَمَّد اتصالات داخلية وركز حملته على القبائل المحايدة واختص من بينها من يلمس أن مشاعرهم تعطف على ثورته وإن لم تعلن انضمامها إليه مثل قبيلة "بيمال" التي كانت تقطن في بوادي مركة.

لقد بعث إليهم الملا برسالة جاوز عدد صفحاتها الأربعين وشرح فيها كل ما يتصل بثورته من دوافع وأهداف وشكر لهم مشاعرهم الطيبة نحوه ثم دعاهم إلى تأييده والاتصال به.

ولقد استجابت القبيلة للسيد مُحَّد وبعثت إليه بوفودها للاجتماع به في "الك" على مسيرة شهرين من مركزهم في مركة، وتم الاتفاق بينهما على الجهاد وقام الملا بتسليح هذه القبيلة التي كان لها دور مشرف في مناضلة المستعمرين في الصومال على الرغم من اضطرارها إلى الوقوف وحدها في بعض الأحيان بسبب انقطاع الصلة بينها وبين الدراويش.

4- كما بدأ في الوقت نفسه حملة اتصالات خارجية بالدول التي يعتقد أنها تنافس المستعمرين وتناهض سياستهم شرقية كانت أو غربية ولقد اتصل بممثل تركيا وألمانيا في الحبشة وطلب مساعدتهم في تحطيم الحصار المضروب حوله وإمداده بالسلاح وقد وعدوه بذلك وبعثوا إليه – مؤقتا- بأحد الفنيين الألمان الذي يساعده في إصلاح ما يفسد من الأسلحة.

5- كان السيد مُحَّد يسعى إلى استمالة الحبشة والفصل بينها وبين المعسكر الاستعماري بوصفها جارة إفريقية وكان الملك – منليك – لم يستجب إليه وشاء القدر أن يخلفه – في فترة الصلح- الملك الشاب "ليج ياسو" حفيد الملك السابق فأبدى هذا الاستعداد

العظيم لتفهم القضية الصومالية وأعرب عن رغبته في الاشتراك مع المجاهدين الصوماليين في تحرير شرق إفريقية كله من الاستعمار.

وتبودلت الرسائل السرية بينه وبين الملا وتم الاتفاق على تنظيم التعاون بينهما، وتقول مذكرات الملا أنه كتب إليه يعلن إسلامه ويخطب ابنته وأنه قد أرسل إليه الكثير من الهدايا واتفقا معا على تطهير شرق إفريقية من المستعمرين البيض.

وكانت أبرز مظاهر هذا التعاون وأولى خطواته هي رفع الحصار المضروب حول الدراويش من ناحية الحبشة فأصبح الدراويش يشترون كل ما يحتاجون إليه من مدينة "هرر".

ولكن الاستعمار الذي أذهله هذا الاتفاق الخطير لم يدع الملك الشاب يمضي في تنفيذ خطته وسرعان ما عزل عن عرشه لاعتناقه الإسلام.

وانتهى الأمر إلى تعيين إمبراطور الحبشة المعاصر – الإمبراطور هيلاسلاسي – الذي نجحت محاولات الملا في كسب وده نسبيا بحيث خفت أو انعدمت الغزوات الحبشية على حدود الدراويش.

المصادمات الدموية برغم اتفاق الصلح:

العام الذي وقع فيه اتفاق الصلح كان عام 1905م.

وفي هذا العام لم يقع احتكاك مسلح بين الدراويش وبين المستعمرين وأتباعهم إلا مرة واحدة وذلك في المعركة التي حدثت في 1323/8/16هـ الموافق 1905/10/15م وسبب المعركة أنه كانت هناك أرض زراعية مشهورة بالخصب والرخاء تسمى "بودي" وهي تقع ما بين "مستحيل وايكي " على نهر الشبيلي وفيها قرى كثيرة على جانبي النهر.

وفي هذه المنطقة كانت تعيش مجموعات من القبائل موزعة الولاء بين إيطاليا والحبشة والدراويش وهي مختلفة فيما بينها يحكم كل قبيلة رئيس مستقل عن الباقين وكانت القبيلة الموالية للملا وللدراويش – هي قبيلة "رير عيسى" التي يتزعمها يوسف بن الإمام عادل – أكثر قبائل هذه المنطقة نفوذا وعددا.

وفي الواقع كانت هذه المنطقة بمثابة السوق الحرة والمنطقة الحرة التي يتلاقى فيها كل المتنازعين وكانت الحبشة وإيطاليا تصدران إليها البضائع والرصاص وغيرها مما يباع فيها وكانت سياسة الدراويش لا تسمح لأية من الدول الاستعمارية بالسيطرة التامة عليها حتى لا تهدد الدراويش الموجودة في الجنوب والتي لا تبتعد عن هذه المنطقة بأكثر من اثنتي عشرة ساعة.

ولهذا بنى الدراويش القلاع والحصون في بلدوين لكيلا تزحف إيطاليا من هذه الناحية وبنوا الحصون في "إيمي" لكيلا تدخل الحبشة إليها من ناحية الغرب.

كان ذلك هو الموقف قبل الصلح والذي حدث بعد الصلح أن المستعمرين فكروا في تطبيق ما كان الدراويش يسمونه الزحف البارد عليهم وذلك باحتلال كل الأماكن التي ليست خاضعة خضوعا مباشرا لهم وتضييق الخناق حولهم بهذه الصورة.

وتطبيقا لذلك أمرت إيطاليا إحدى القبائل الموالية لها بالتقدم صوب هذه المنطقة والإقامة فيها تسندها من الخلف الجنود الإيطالية.

فلما علم الدراويش الجنوبيون بذلك أسرعوا للحيلولة دون تنفيذ المخطط الاستعماري فخرجت قوة تبلغ (10.000) عشرة آلاف مقاتل أغارت على تلك القبائل التي أسرعت إلى الهروب عند مواجهة قوات الدراويش ولم يسقط فيها سوى اثني عشر قتيلا.

وتسمى المعكرة "وب جيح" ومعناها التي عبرنا لأجلها النهر.

معارك العام التالي للصلح 1906م.

*في 1906/1/5م وقع صدام بين الدراويش وإحدى القبائل الموالية للحبشة وأجليت هذه القبيلة من المكان الذي كانت قد احتلته وهربت إلى "مرودعد".

*وفي 1906/2/8م وقع صدام آخر بسبب محاولة إحدى القبائل التابعة للحبشة منع الدراويش من شراء ما يحتاجون إليه من طعام وغيره من منطقة "بودي" المشار إليها في معركة عام 1905م، وأسفرت عن مقتل عشرين من القبيلة الثانية.

* وفي 1906/2/18م تصدت القوات الدراويشية لإحدى القبائل التابعة لإيطاليا وصادرت لهم 400 من الإبل ، 1500 من الغنم وردتهم على أعقابهم في "ورردم".

* وفي 1906/5/12م تصدت قوات الدراويش الجنوبية لإحدى القبائل الموالية للحبشة ودار القتال في مكان يسمى "قرحي" وأسفر عن مقتل خمسة من الدراويش وتسعة من الجانب الآخر.

*وفي 1906/7/3م دارت معركة في مكان يسمى "طقر" وانهزمت فيه القبيلة المهاجم التابعة لإيطاليا.

*وفي 1906/8/14م عاودت القبيلة السابقة نفسها هجومها فتصدى لها الدراويش في المكان الذي طردت منه وخسرت هذه المرة خمسين قتيلا مقابل 13 ثلاثة عشر للدراويش.

*وفي 1906/11/6م عاودت إحدى القبائل التابعة للحبشة هجومها على الدراويش والتحم القتال في مكانه الأول "قرحي" وفقدت القبيلة فيه خمسة عشر قتيلا عدا الغنائم.

*وفي عام 1907م

وهو العام الثاني بعد الصلح بلغ عدد الاشتباكات والمعارك إحدى عشرة واقعة منها أربع من القبائل الموالي للحبشة وخمس مع القبائل الموالية للطليان واثنتان مع القبائل الموالية للانجليز.

*وفي عام 1908م بلغ عدد الاصطدامات والمعارك بين المستعمرين وأعوانهم وبين الدراويش ثماني عشرة واقعة ما بين مصادمات ومصادرات لبضائع الدراويش ومحاولات متعمدة لبوار تجارتهم وما إلى ذلك وفي هذا العام نفسه وتحت ستار معاهدة الصلح أنفذ المستعمرون مؤامرتهم السياسية الشهيرة ضد الملا والمعروفة عند الدراويش باسم مؤامرة "الوثيقة المزورة".

"سياسة المؤامرات"

1- الوثيقة المزورة



لم تستطع السنوات الطويلة ولا التضحيات والمعارك أن تنجح في تحطيم الدراويش وإنهاء ثورة الملا.

ولذا قرر المستعمرون الالتجاء إلى الهجوم الغادر من الظهر عن طريق الفتن، والمؤامرات وتزييف الحقائق، وفي الواقع إن هذا الاتجاه من جانب المستعمرين لم يكن وليد هذا العام 1908م، فقط ولكنه قديم قدم ثورة الملا نفسها وما

أكثر ما حاولوا تأليب القبائل والزعماء ضده تارة بالإغراء وتارة بالضغط وأخرى بإثارة الحسد والحقد وغير ذلك.

ولكن الجديد الخطير في مؤامرة هذه "الوثيقة المزورة" أنها كانت تهدف إلى ضرب الثقة الدينية الكبيرة التي كانت للملا في نفوس أتباعه وإظهار تصرفاته كلها على أنها منافية للدين.

ولا شك أنه لو لم يبذل الملا جهده الجبار في كشف حقيقة هذه المؤامرة ولولا أن ثقة أتباعه فيه كانت في غاية المتانة والقوة، لولا هذا لكانت هذه المؤامرة من الضربات القاضية إن لم تكن وحدها القاضية.

فالمعروف أن الملا كان يصف ثورته وجهاده بأنها ثورة مقدسة تباركها السماء ويرضى عنها الدين بل إن الشرع هو الذي يأمر بها ويدعو إليها وله في هذا الشأن خطب ورسائل وأشعار لا تكاد تحصى.

فإذا استطاع المتآمرون أن يثبتوا نقيض ما يدعيه وأن يظهروه مظهر الخارج على الدين فتلك ولا شك كارثة وخاصة إذا كان صاحب الإفتاء وصدر الحكم في الموقف رجلا له احترامه وله مكانته الروحية الهائلة في قلوب الدراويش لأنه شيخهم وشيخ الملا نفسه وهو السيد مُحَمَّد صالح شيخ الطريقة الصالحية.

وتبدأ القصة حينما أوفد إليه المستعمرون إلى مكة وفدا مكونا من شتى القبال التابع لهم أكثره من العلماء الموالين للاستعمار والحاقدين على الملا.

وقد وصل الوفد إلى مكة في شهر جمادى الآخرة 1326هـ الموافق شهر يوليو 1908م أي قبل موسم الحج بستة أشهر وكانت هذه المدة تعتبر كافية لإنهاء المهمة المطلوبة.

وحينما التقى أعضاء الوفد بالسيد مُحَمَّد صالح قدموا شكايات من القبائل الموالية للاستعمار تتهم الملا بأنه يقتل رجالها وأطفالها دون وجه حق، ويرتكب في حقها أقسى الجرائم وبالطبع لم يقل أعضاء الوفد للسيد مُحَمَّد صالح أن هذه القبائل تقف ضد الملا مع أعداء الدين وأعداء الاستقلال وحرية البلاد.

وطلبوا إلى الشيخ المقيم في مكة أن يكتب إلى الملا رسالة يزجره فيها عما يقدم عليه من أعمال ويعلن خروجه وعصيانه وعصيان من يتعاون معه.

وفي هذه الفترة لم يكن الملا على صلة بأستاذه لأن مشاغل الجهاد وظروف المعارك الحربية والحصار المضروب من حول الدراويش قد حالت دون ذلك الأمر الذي مكن للمتآمرين أن يجدوا فرصتهم ومع هذا قال لهم الشيخ مُحَمَّد صالح:

"الذي أعلمه أن هذا الرجل قد خرج يحارب في سبيل الله وأنتم تتهمونه وليس هنا من يتكلم عنه أو يوضح حاله ولذا لا أستطيع الكتابة إليه بناء على ما تقولون".

ولكن الاستعماريين الذين دبروا المؤامرة كانوا فعلا قد وضعوا في تقديرهم مثل هذا الموقف وسرعان ما استخدموا صنيعتهم عبد الله بن شحري، الذي

بدأ حياته صديقا مواليا للدراويش وللملا إلى حد كانوا ينتدبونه ويفوضونه عنهم في كثير من الأمور الهامة ومنها مفاوضات الصلح المعروفة ولكنه انتهى – مع الأسف– إلى صف المستعمرين ويبدو أن كثرة اتصاله بالمستعمرين قد نالت من إيمانه وأثرت عليه حتى باع لهم نفسه في النهاية مما اضطر الملا إلى إعلان سحب الثقة منه.

استخدم المستعمرون هذا الرجل ليكون شاهدهم مع الوفد الشاكي من الملا وكان السيد مُحَمَّد صالح يعلم سلفا أن ابن شحري موال للملا ولم يكن بعد قد عرف حقيقة تحوله فلما استقدموه وشهد بصدق ما قالوا.. لم يكذبه الشيخ وأمر كاتبه الخاص ويسمى عبد الرحمن بأن يكتب إلى الملا رسالة ينصح له فيها بالاستمرار على طاعة الله والكف عن الأعمال التي شهد عبد الله بن شحري بصحتها.

وما أن أصدر الشيخ أمره إلى كاتبه بتحرير الرسالة حتى أسرع وفد المتآمرين فأغدقوا كل ما معهم من الأموال والهدايا على الكاتب المذكور وأملوا عليه رسالة ضمنوها كلما شاءوا توجيهه إلى الملا وإلى الدراويش من اتهامات.

وفعل الكاتب ما أمروه به وعند التوقيع أبرز الكاتب للشيخ رسالة لطيفة ليس فيها إلا نصائح أخوية ووصايا عامة حتى إذا أمر بختمها جعل خاتمه على الرسالة المفتراة وليس هذا فقط بل نسخ لهم منها عددا غير قليل وختمت كلها بخاتم الشيخ.

وعاد وفد التآمر مستبشرا بما حصل عليه وأرسلت صورة الرسالة إل لندن وروما وأديس أبابا، وإلى جميع الأراضي الصومالية التي يسيطر عليها المستعمرون.

وكان أعضاء الوفد عند عودتهم قد ركبوا باخرة إيطالية تسمى "البا" أعدها لهم القنصل الإيطالي في عدن ولما وصلوا قريبا من ميناء الدراويش "الك" في 1909/3/24م وضعوا صورة من هذه الرسالة المفتراه في زجاجة وأحكموا إغلاقها وحملوها في قارب حيث قذفت على الساحل بحيث يراها الدراويش المرابطون في قلعتهم البحرية.

وتناول الجنود الرسالة وحملوها إلى السيد مُحَّد الذي كان إذ ذاك في المركز الرئيسي للدراويش الذي كان على بعد 20 عشرين ميلا من ميناء الك.

أما الوفد فقد استمر في رحلته إلى مقديشيو حيث نزلوا جميعا ضيوفا مكرمين على الحكومة الإيطالية في بذخ لم ير له مثيلا من قبل ، وأمر الحاكم الإيطالي باجتماع كل القبائل الخاضعة للنفوذ الإيطالي في العاصمة مقديشيو حيث قرئت عليهم رسالة الشيخ وسلمت صور منها إلى بعض العلماء ونزل أعضاء الوفد ليقوموا بحمل استغلال الوثيقة داخل البلاد فيما عدا عبد الله بن شحري الذي سافر مع القنصل الايطالي على الباخرة نفسها عائدا إلى عدن.

الملا يرد:

وأما السيد مُحَّمد فقد أعد ردا كبيرا على هذه الرسالة المفتراة سماه "قمع المعاندين" وأرسل صورة منه عن طريق الحبشة إلى السيد مُحَّمد صالح وصور أخرى منه إلى سلطان تركيا كان حتى ذلك التاريخ يعتبر راعي المسلمين ثم ألف في الوقت نفسه قصيدة صومالية ضمنها خلاصة الرسالة ورده عليها وتفنيد ما فيها من أكاذيب وفيما يلي ترجمة بعض فقرات هذه القصيدة:

قال بعد تمهيد واصفا أولئك الذين قاتلوه إلى جانب الاستعمار "إنهم الذين عصوا أوامر ربهم .. الذي خلقهم وطعنوا أنبياء الله وأولياءه".

وقتلوا شهداء الدراويش الأخيار برماحهم.

وصاروا أولادا بررة للنصارى وانتسبوا إلى الافرنج.

وخدموا الكفار باختيارهم دون إكراه بل تسابقوا وكانوا أولياء لها وتآمروا معها لاستئصال الدراويش فقال:

والذين قالوا نحن من أتباع الحبشة وانضموا إلى حكومة هرر وصار لهم منليك أبا يتولى جميع شؤونهم.

وصار جيش الحبشة درعهم المدافع عنهم.

ثم ارتكبوا أعظم إساءة وبثوا الفتنة في البلاد.

وقتلوا الحاج عباس[7] في وقت ليس فيه بين الشعب خلاف ولا خصام ودون سبب.

[7]حدث ذلك في المؤامرة الشهيرة باسم "مؤامرة عنجيل"التي سيأتي تفصيلها.

وغرسوا التنافر بين القبائل ونزعوا الثقة من النفوس.

ثم انتقل لوصف أولئك الذي قاتلوا في صفوف الانجليز فقال : والذين قادوا جيوش الانجليز لمحاربتي.

واستعانوا علي بالكفار وتركوا قتلانا في "ايركو" كما تركوها في غابات "ديول" والذين استأصلوا إخواني وقتلوهم.

ولم يستحيوا من طعن أهل الفضل والخير برماحهم.

بل أطلقوا عليهم الرشاشات بحقد وحفيظة.

والذين كانوا يغيرون علينا ويقاتلوننا في الميادين مجتمعين متكتلين ثم كنت أدعو عليهم حين واجهوني بنيران المدافع وكسروا حصن الك.

ومنعوا عنا المياه في "إيركو[8] بتل".

وتركوا قتلانا في "قفار"[9] تحوم الغربان فوق أشلائهم.

والذين أصابوا بطلقات بنادقهم نحور دراويشي أصحاب العمائم البيضاء.

والذين حالوا أن يجبروني على الاستسلام.

ثم يتموا عندي ألوانا من الأطفال.

والذي أوحشوني من أرض الله.

وطاردوني في القيعان ذات الغبار الكثير.

ووجهوني إلى الشرق في أيام القحط حيث لا زرع ولا ماء.

---

[8] المكان الذي وقعت فيه المعركة.

[9] معركة تسمى "بيرطكا" ومعناها الانبطاح.

واللئام الذين قطعوا رءوسنا في "جدبال".

والذين أغراهم إبليس فلم يتحولوا عني.

والذين باعوني للكفار نظير مكافآت.

ثم تحدث عما لقيه منهم من جحود ونكران مؤكدا أنه أحسن معاملتهم قبل أن ينضموا إلى صفوف المستعمرين وأنه لم يعتد عليهم بل قدم الحسنى دائما لهم .. فقال:

والذين لم يجازوني بما كنت أستحق منهم ولم يستحوا مني.

والذين أقنطوني من مصالحتهم بعد ما أرسلت إليهم الوفود تلو الوفود تناشدهم الله والذين هاجروا عن التوبة والطاعة في هذا الزمن.

ثم عرض لألوان من المآسي التي صبها على رأسه هؤلاء فقال:

والذين صادروا حيواناتي .. إبلها وغنمها.

ولم يرحموني وأنا رجل مسلم.

ولذا كنت أستعين عليهم بالله.

وكنت أقول في دعائي ، اللهم ادفع عنا الكلاب.

والذين أداموني في الحزن والهم والغم والغضب.

والذين أراقوا دم إخواني وأسالوا دموعي عندما أبكوني.

والذين كنت أحلم بهم في الوقت الذي تنام فيه جميع الخلائق.

إن الذين فعلوا بي كل ذلك.

سواء عندي إذا شكوني وأرسلوا الرسائل أو لم يفعلوا.

ما دامت شكواهم مرفوضة لدى الشريعة والعدل.

1- مؤامرة عنجيل:

ولما لم تنجح الوثيقة المزورة في إحداث تأثيرها برغم كل ما أحيطت به من ضمانات النجاح لجأ المستعمرون إلى تدبير التآمر الدموي الذي يهدف إلى القضاء على الملا وعلى الدراويش بحد السيف وبقوة السلاح وكان ذلك في المؤامرة الشهيرة التي عرفت باسم "مؤامرة عنجيل".

وكلمة عنجيل معناها بالصومالية الشجرة الكبيرة الورافة الظلال ، وقد سميت المؤامرة بهذا الاسم لأن الاجتماع لتدبير هذه المؤامرة كان يتم كثيرا تحت ظلال شجرة من هذه الأشجار.

أما المتآمرون فكانوا عناصر شتى يجمع بينها الرغبة في القضاء على الدراويش عامة وعلى زعيمهم السيد مُحَمَّد بصفة خاصة.

من هؤلاء من كان من أغنياء الصومال وكان يوما من كبار الرجال في حركة الملا ولكنه انحرف واستحق التقويم فلما شعر بأن الملا سيحاسبه فكر في الخلاص من الملا قبل أن يتخلص الملا منه.

ومنهم من استغل مركزه في الحركة الثائرة فأخذ يرسل الغزوات والسرايا لجهات لا تعلم القيادة عنها شيئا بقصد الحصول على المغانم لشخصه وللمتصلين به.

ومن هؤلاء من كان مثل المؤلفة قلوبهم إن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون فحينما غنمت فرق "البطعد" "الصيادين" الآلاف المؤلفة من إبل الأعداء وساقتها إلى معسكر القيادة احتجز الملا بعضها لرياسة الجيش ووزع باقيها على من يستحقون على حسب كفاياتهم.

لما حدث هذا كان هناك بعض من تاقت إليها نفوسهم فلما لم يظفروا حقدوا ونما في قلوبهم الحقد حتى اشتركوا في المؤامرة.

وهكذا تجمعت عناصر التآمر التي أحسن المستعمرون تحريضها وتوجيهها للتخلص من الملا.

وكانت خطة المتآمرين تقوم على حملة نفسية محكمة أحسن الاستعمار رسمها لاستغلال الرسالة المزورة التي نسبت إلى الشيخ مُحَّد صالح فكانوا يقولون لمن يريدون ضمه إليهم من شيوخ القبائل: إن الشيخ صالح قد أعلن عصيان الملا ومن يتابعه وأن حركة الملا ليست إلا عصيان من الشيطان ..إلخ!.

وتستمر الحملة المركزة حتى إذا ما أنسوا قبولا لدى من يحدثونه بدأت عملية الإغراء بأن يدعوه للذهاب معهم إلى الحج أو للزيارة أو غيرها حتى تتم السيطرة ويصبح الرجل عضوا في العصبة المتآمرة.

وبعدما اطمأن المستعمرون إلى سير الخطة على حسب ما رسموا وصدرت إشارة البدء تجمع أقطاب المؤامرة للتشاور في خطة التنفيذ.

*فاقترح أحدهم أن يشعلوا النيران في المركز الرئيسي للدراويش إن أمكن من جميع الجهات وبالطبع ستسرع الدراويش إلى عملية الاطفاء وستشغلهم النار عن حمل السلاح وعندئذ تكون هي الفرصة الكبرى لإبادتهم بالرصاص تحت أضواء النيران. واعترض رئيس المؤامرة لما يعلمه من حرص الملا ولأن إشعال النار من جميع الجهات سيكشف المؤامرة وعندئذ تصبح تحت نيران الحراس بدل أن يكونوا هم فريستنا.

*واقترح أحدهم الترصد نهارا لقتل الدراويش الذين يفدون على الملا للدرس والتشاور في الأمر. ثم نشيع أن دراويشه هم قاتلوهم وبذا نضرب بعضهم ببعض.

ورفض هذا الاقتراح ووصف بأنه لا نظير له في الحمق إذ ما فائدة قتل مائة أو مائتين من المتعلمين في حين أن العنصر الخطر وهم حملة السلاح باقون في مكامنهم ؟ بل أنه حتى هذا الخاطر لم نتمكن من تنفيذه لأن الآلاف المؤلفة من الدراويش المنتشرين في كل مكان ستفاجئنا لتمحونا من الوجود.

*واقترح آخر أن يذهب الأفراد المشتركون في المؤامرة والموالون لها ليحضروا خيولهم وإبلهم من أماكنها ثم يتجمعوا علنا عند مقر القيادة ويحاولوا استخلاص أمتعتهم وأموالهم وأسلحتهم وأهليهم ويحاولوا الخروج بها بعيدا عن معسكر الدراويش وإن اعترضهم أحد قاتلوه وهنا تكون الفتنة التي تهز كيان الدراويش وتعرضهم لأشد الأخطار من الداخل.

ورفض هذا الاقتراح كسابقيه لأن المسئول عن الخيل والإبل لن يسمح بتسليمهم إياها إلا بإذن من القيادة العامة كما أن قوة المتآمرين مهما تكن لا تساوي شيئا بالقياس إلى قوة الدراويش.

أما الاقتراح الذي تمت الموافقة عليه فهو:

أن يدس المتآمرون – بصفة سرية- رجالهم على الأماكن والمراكز التي تسيطر على شئون الخيل والإبل والحيوانات وتكون مهمة هؤلاء الرجال أن يعملوا على تجميع كل خيول وإبل وحيوانات المتآمرين في مكان واحد أو أماكن متقاربة.

وحين يستطيعون ذلك تعطى الإشارة المتفق عليها فيفرون بكل مالهم إلى معسكر الانجليز حيث يمكنهم هناك أن يستزيدوا من القوة ويعودوا لمهاجمة الدراويش بعد أن تكون المفاجأة قد أحدثت أثرها في صفوفهم.

وقبل هذا الاقتراح وبدأ الاستعداد للتنفيذ .. لولا أن الملا وقف على كل التفاصيل وأحبط الخطة من قبل إنفاذها بقليل.

فقد كان من بين الذين كلفوا بالتآمر رجل اسمه "شرى عنبال" من إحدى قبائل "دولبهنته" وكان من خاصة الدراويش وحينما دعي للاشتراك في المؤامرة لم يعترض وساير المتآمرين حتى عرف كل شيء.

وحينما أحس باقتراب موعد التنفيذ طلب مقابلة الملا لأمر خطير وهام وطلب كذلك أن يدخلوه من الباب الخلفي للمركز الرئيسي الذي يدخل منه الملا وأهل بيته.

ولما وقف الملا من شري عنبال على تفصيل كل شيء، استدعى من دوره عمه "عامر بن الشيخ حسن نور" وأمره باستدعاء مائة من خاصة الدراويش ويضرب بهم ناطقا دون باب المجلس الكبير للسيد مُحَمَّد.

ثم أمر بدعوة كبار الدراويش للحضور فورا إلى المجالس وجعل خطته أن ينادوا على أسماء المتآمرين بين أسماء كثيرين غيرهم ممن لا صلة لهم بالمؤامرة حتى لا يفطن الآخرون لاكتشاف خطتهم.

ونبه الملا على عمه بأن يتم نزع السلاح من كل داخل إلى هذا الاجتماع عند باب المجلس فإذا كان القادم من المتآمرين طلبوا إليه أن يحضر سلاحه من منزله ولم يمض زمن طويل حتى اجتمع في هذا المجلس أكثر من ألف من المسئولين بينهم أفراد العصابة المتآمرة

وعندئذ بدأ الملا فألقى المفاجأة الكبرى في وجوه الجميع ولم يملك المشتركون فيها سوى الاعتراف.

وعندئذ –كما تقول مذكرات الملا– أخذ السيد مُحَمَّد يضيق الخناق عليهم حتى حدد مسئولية أصحاب الأدوار الأساسية في المؤامرة وانتهى إلى اعتبار اثنين فقط من الستة الكبار فيها أصحاب المسئولية الأولى وأمر بإعدامهما رميا بالرصاص. في حين عفا عن الباقين.

وكانت هذه المؤامرة في 1237/3/25هـ الموافق 4/15/ 1909م.

"عبقرية الثائر في وجه المؤامرات الاستعمارية"



لم تكن البنادق والمدافع أخطر سلاح أشهره المستعمرون في وجه الثائر الصومالي وإنما كانت أسلحة أشد في وقعها ونتائجها وفيما تتركه من آثار من رصاص البنادق والمدافع ونعني أسلحة المؤامرات ومحاولة التفريق وبذر الشقاق في صفوف الثوار.

فبعض هذه المؤامرات استهدف التخلص من الملا بطريق الاغتيال ودس السم في طعامه وبعضها استهدف تذويب خاصة جنده في خضم هائل من جنود المتآمرين حتى يمكن الاجهاز عليهم بضربة واحدة.

وبعضها استهدف تحطيم سمعته وتصويره أمام رجاله وأمام الصوماليين عامة بمظهر الكافر المتمرد الخارج على الدين.

وبعضها كان يهدف إلى تضليله وسط دوامة من الشائعات والاتهامات التي تبلبل أفكار الناس من حوله وتضطره - على الأقل – إلى تبديد كثير من الجهد ومن الطاقة في مواجهة أمور لا أصل لها من الحقيقة.

وعلى الرغم من تعدد الميادين الضخمة التي كان على الملا أن يتحرك وأن يواجه متاعبها واحتمالاتها في وعي وحزم وسرعة فائقة.

وعلى الرغم من الظروف القاسية المضطربة المعقدة التي كان يواجه فيها أعداءه بإمكانيات محدودة وأسلحة غير متكافئة وعلى أرض يسهل فيها بذر بذور الأحقاد والخلاف.

على الرغم من كل هذا ، فقد كان لدى الثائر الصومالي طاقة قيادية جبارة مكنت له من مواجهة ميدان التآمر بكل ألوانه ومحاربته في وعي وسرعة وحزم بأسلحته نفسها بل وبأقوى منها وأقدر على تحقيق الانتصار وتلك سمة العبقرية الثورية الملهمة.

فحينما نزلت الدول الاستعمارية المحاربة للملا عند رغبة أحدها وهي إيطاليا في مهادنة الملا وعقد صلح معه على ما سيجيء تفصيله بقصد إطفاء جذوة الروح الثوري في صفوفه وكسب مزيد من الوقت ومن الفرص للتآمر تحت ستار الهدنة الخادعة.

لما حدث هذا لم يكن في غفلة عما تنطوي عليه ، ومن ثم بدأ هو الآخر يتعامل معهم بأسلوبهم نفسه.. أسلوب كسب الوقت وتوجيه الحوادث لمصلحته ولهذا تعمد أولا إهمال الرد على رسائلهم في طلب التفاوض ريثما يتمكن من الحصول على أكبر كميات من الأسلحة.

وقبل بدء المفاوضات الرسمية قام بعملية "جس النبض" لكي يتبين ما وراء هذا الصلح من أهداف ونوايا عن طريق رسول "عبد الله بن شحري" الذي أوفده إلى إرتريا للاتصال بالمسئولين هناك والتفاهم في شئون هذا الصلح المزمع عقده وقد نجحت مهمة هذا الرجل وكشف للملا عن كثير من الاتجاهات كما سنوضحه بعد وأعانته على تحديد سياسته تجاه كل منها.

وجدير بالتسجيل عند تقدير كفاية هذا الرجل العسكرية والسياسية أن تثبت أنه كان حريصا كل الحرص على معرفة كل شيء عن عدوه، عن سلاحه وعتاده وخططه العسكرية والسياسية معا واتصالاته بالقبائل الصومالية، بل أنه كان حريصا على متابعة مواقف الزعماء الصوماليين الذين يدورون في فلك الاستعمار أو يتظاهرون بالوقوف موقف الحياد.

كان الملا يحرص على معرفة ذلك كله ومتابعته في وقته حتى يستطيع – كما يقولون– طرق الحديد وهو ساخن، وما أكثر المرات التي استطاع فيها الملا طرق الحديد الساخن.

وكانت سبيله للحصول على ما يريد من أنباء هي تكوين أجهزة "مخابرات" على جانب من القوة والبراعة وكفاية التنظيم بحيث كانت منتشرة في كل الأماكن ذات الأهمية الاستراتيجية ومنتشرة كذلك في مختلف أنحاء الوطن الصومالي وخاصة عند الزعماء والرؤساء.

ومن عبقرية الملا وتوفيقه في هذا المجال أنه قصر اختيار أفراد هذا الجهاز على ما يسمونه خاصة الدراويش وهم العنصر الذي يمتاز بالإخلاص الشديد والمناعة النفسية ضد المغريات كما يمتاز بما توافر له من دراية على اجتياز كثير من التجارب والامتحانات القاسية.

ولقد استطاعت مخابرات الملا هذه أن تعينه على إحباط خطط ومؤامرات ضخمة كانت كلها كفيلة بإنهاء تاريخ الملا لو لم يتح له الوقوف على أخبارها في الوقت المناسب.

وإلى جانب توفيق الملا في تكوين أجهزة مخابراته ونجاحها في مهمتها فقد توافرت لديه الطاقة الثورية في مواجهة أي تآمر بالرد الذي ينجيه من الخطر ويحبط ما له من آثار.

فحينما اشترى الاستعمار وأعوانه بعض الأقلام والألسنة الصومالية من كتاب وشعراء أو رجال دين لكي يهاجموا الملا وينظموا القصائد في الطعن في سياسته وسياسة الدراويش عامة.

عندما حدث هذا كان رد الملا في منتهى القوة وفي منتهى الوضوح والحسم بالسلاح المستخدم نفسه وذلك بإنشاء مجموعات من

الأشعار باللغة الصومالية تشرح حقيقة الموقف وتدفع الاتهام عن رأس الدراويش.

بل إن الملا كان دائم الاهتمام بعملية الإعلام والتعبئة حتى لو لم تحدث مؤامرات معينة لكي يظل أتباعه على الدوام يعيشون في مستوى الأحداث التي تحيط بهم ولكي تكون الأمور دائما واضحة أمام كل الصوماليين.

ومن توفيق القدر لهذا الرجل العظيم أنه قد منح إلى جوار مواهبه السياسية والقيادية موهبة التأثير الخطير في الناس عن طريق الكلمة، فقد كان شاعرا وكاتبا وخطيبا ومتفقها في الدين وذا دراية غير محدودة بنفسيات أتباعه وخصومه على السواء.

وأشعار الملا ورسائله تحتاج وحدها إلى مجلد خاص وإلى دراسة متخصصة نرجو أن يشاء الله لنا إخراجها في المستقبل وهي في مجموعها تؤكد مقدرته الرائعة على مواجهة أي موقف وتوضيح جانب الحقيقة فيه.

وحينما لجأ الاستعمار إلى محاولات الاغتيال الفردي أو الجماعي للملا أو لكبار قواده لم يكن الرجل يتردد فور اكتشاف أي مؤامرة في الضرب الحازم على أيدي المشتركين فيها مهما تكن صفاتهم في قبائلهم مما كان يعكس صدى عميقا من الهيبة والرعب في نفوس

الأعداء ويحمل الذين يفكرون في التآمر عليه على أن يترددوا عشرات المرات قبل أن يتورطوا في مثل هذه الحماقة.

بل أن سرعة الحركة وتملك زمام المبادرة دائما كانت تكتب للرجل نجاة شبه أسطورية من كثير من المواقف الخطرة. فحينما اقتربت المؤامرة المعروف باسم مؤامرة "عنجيل" من نهايتها والتي كانت تستهدف اغتيال الملا ثم إحداث فتنة كبيرة في صفوف الجيش والهرب بالسلاح والخيل إلى معسكرات الأعداء.

حينما اكتشف أمر هذه المؤامرة كانت الحركة السريعة والحازمة من الملا هي العامل الأول والأخير في إحباط الخطة وإنقاذ الجيش الصومالي كله من الفتنة الكبرى ثم ملاحقة من هربوا بسلاحهم وانتزاعه وانتزاع الخيل منهم قبل أن تنالها يد العدو.

ومثل هذا حدث في مؤامرة "كردم" المشهورة التي اكتشفها الملا بفراسته وبحسه العسكري القيادي قبل أن يكتشفها بجهاز المخابرات.

ومع هذا لم يتردد لحظة وهو على صهوة الجواد الأبيض الذي أعده المتآمرون ليركبه وليكون شارة البدء بالتنفيذ لم يتردد لحظة واحدة في اتخاذ الإجراء السريع الحازم الذي أفسد خطة المتآمرين وكتب النجاة للملا ولجيشه من هذه الكارثة التي كانت وشيكة الوقوع.

وهكذا نرى الملا يواجه مؤامرات المستعمرين وعملائهم وسلاحه القوي ليس ما تحت إمرته من جيوش ولكن ما يملكه من الطاقة

القيادية الحاسمة المرتكزة على الحس النافذ والمبادرة الخاطفة وتلك – فيما أرى – من أعظم ميزاته.

"انجلترا والجلاء من الصومال"



في جلسة مجلس اللوردات البريطاني المنعقدة بتاريخ 6 من أبريل عام 1910م ابتدأ اللورد "كرزون" كلامه منتقدا عزم الحكومة على الجلاء عن الصومال فقال:

"إني لم أر مسألة خطيرة كعزم الحكومة على الجلاء من قسم من الأراضي يمتد إلى طول 300 أو 400 كم. ويمتد عرضا إلى 299 كم ويتردد عدد سكانه إلى 200 أو 300 ألف نسمة انبسطت عليهم حماية انجلترا منذ أكثر من ربع قرن.

إن المسألة هامة لأهالي البلاد أنفسهم وكذلك لها أهميتها لما تؤثر به على مجرى السياسة وعلى خطة انجلترا نفسها وكذلك يكون لها تأثير في الأراضي المجاورة لها. نعم لقد تم الجلاء عن الصومال أو لا يزال جاريا الآن وسحب العلم البريطاني وفصلت الاحتياطات التي اتخذت لذلك في كتاب أزرق ظهر حديثا".

وقد تأثر الذين تصفحوا الكتاب الأزرق تأثرا شديدا لأنه من المعلوم أن انجلترا ضحت كثيرا في سبيل الصومال من رجال وأموال خلال الخمس والعشرين سنة الأخيرة حيث تردد ما أنفقته بين ثلاثة أو أربعة ملايين من الجنيهات الانجليزية.

واليوم تريد أن تترك الصومال للملا حتى يكون صاحب الأمر والنهي فيه وقد أعفت كذلك – الجنود الوطنيين وجعلت القبائل الصومالية تحت رحمة أعدائهم وذهب في لحظة ما تم عمله في ربع قرن كامل.

ما هذا إلا سياسة يجب أن نقف على غوامضها ونداقع عها وليس من اللازم أن نظهر عدم الاكتراث أو عدم الاهتمام بها.

لقد بدأ الملا عام 1899م يسبب لنا الارتباكات والقلاقل وحدث خلال السنوات العشر الأخيرة أن أرسلت الحكومة إليه ثلاث أو أربع حملات وألحق به الجنرال أجرتون خسائر عظيمة ورده على أعقابه في سنة 1904م حتى اضطر إلى أن يلجأ إلى الأملاك الإيطالية ويعتصم بها.

وقد تجددت مجهودات الملا عام 1908م لكن الحكومة لم تكن على استعداد لأن ترسل إليه حملة كبيرة بل أظهرت ميلا للاتفاق معه.

وقد أبرقت الحكومة إلى مندوبها الوطني هناك في 12 من مارس 1910م تذكر له النفقات الباهظة اللازمة لنقل الجنود ذكرت عزمها علنا على الجلاء من الصومال، وعطفت من جديد على فكرة الاتفاق مع الملا واستفسرت الحكومة من مندوبها عن رأيه في إمكان تسليح القبائل الموالية للدفاع عن نفسها ورد المندوب البريطاني في الصومال يقول:

"إن فكرة الاستئثار بالسلطة ما تزال مسيطرة على الملا وإن القبائل الموالية ليست كفئا للدفاع عن نفسها."

واقترح المندوب : ضرورة الاحتلال الداخلي لتأمين القبائل من ناحية ولوضع حد لزحف الملا من ناحية ثانية ثم اعترض اعتراضا شديدا على سياسة الجلاء التي تسبب لانجلترا أضرارا بالغة في إفريقية الشمالية الشرقية.

ووردت الحكومة فأرسلت للمندوب في 12 من نوفمبر 1909م بأنها حددت سياستها نهائيا على الجلاء وإعفاء الجنود الوطنيين من الخدمة ونقله إلى وظيفة أخرى غير وظيفته في الصومال.

ورد اللورد "كيرو" محاولا التهوين من قيمة الصومال كأرض صحراء فقال:" ... وقد ألقت انجلترا نفسها في أزمة مستحكمة مع الملا وقد كلفها القتال مليونين أو ثلاثة ملايين من الجنيهات".

وقد تشجع الملا كثيرا بما كان يصيبه من السلب والنهب وبما أوتي من حظ وافر كان له أحسن الأثر في مساعدته.

ومعلوم أن القوات التي تأتمر بأمره عظيمة لأن رجالها من المدربين البسلاء الذين لا يوجد لهم مثيل بين رجال القبائل الأخرى.

وأمامنا الآن نقطتان جديرتان بالملاحظة وهما: إما أن نرسل قوة عظيمة ولا نأبه بما ينفق عليها لمقاتلة الملا ودحره وإما أن ننسحب من الصومال وهي النقطة التي أقرتها الحكومة.

فإذا نظرنا إلى الأولى نجد احتمال القبض على الملا غير مؤكد لأننا في سنة 1904م لم نستطع ذلك بحملة مكونة من 7 آلاف جندي إلا إذا حاصره الطليان ويبدو أن ليس لديهم هذا الاستعداد الآن للتضحية والدخول في مغامرة..

وقالت التيمس:

"إن الاستعدلد للجلاء من الصومال يجري على قدم وساق".

وإن كنا لا نظن أن الرأي العام يأسف على هذا الحادث لأن بلاد الصومال قد كبدت هذه البلاد من أول عهدنا بها إلى اليوم أموالا طائلة ونفوسا غالية وكانت عبئا ثقيلا على كاهلنا مع أننا لم نربح منها إلا تجارة ضئيلة صبغتها باللون الأحمر على الخريطة.

وأول ما ورد ذكر الملا هو (سنة 1899م) عندما ذكرت مناوشاته الحربية التي كبدتنا ثلاثة ملايين من الجنيهات قبل أن نتغلب عليها في واقعة جدبال.

ولقد كان لا مناص لنا من اتباع أحد أمرين : إما الاشتباك في حرب عامة إما الجلاء، والحق يقال: أنه لم يكن في استطاعتنا أن نقف في وجهه وأن نبقى قابضين على داخلية البلاد إلا بإنشاء خطوط حديدية.

ولكن لم لم نستخدم المال ؟ كما استخدم في الهند؟

الجواب: أن القبائل التي كانت على حدود الهند كانت تأخذ المال وتحافظ على السلام .. أما الملا فكان يأخذ المال ليشتري به سلاحا يحاربنا به..

ولا جدال في أن حادث الجلاء عن الصومال حادث محزن ولكنه علمنا دروسا كثيرة منها أننا ذهبنا إلى الصومال دون أن نقدر ما ينتج

عن ذلك حق قدره ووعدنا بالحماية فلم نبر بوعدنا واشتبكنا بخفة في وقائع حربية دون أن نعرف صعوبتها ومخاطرها وأموالها الباهظة.
وهذه النتائج من جميع الوجود دليل على قصر النظر.

قصة هذا الجلاء:

ولكي نقف على الظروف الحقيقية التي دفعت بريطانيا إلى اتخاذ مثل هذا القرار الذي أثار الرأي العام البريطاني ونشر عليه ظلال الإحساس بالخيبة والفشل ينبغي أن نطالع القصة من بدايتها:
ففي مطلع عام 1909م وبعدما كانت انجلترا قد أرسلت عدة حملات للقضاء على الملا دون أن تنجح في ذلك وبعد ما كانت قد أرهقت ميزانيتها بنفقات لا طائل منها عدا ما تحملته حكومة الهند في نفقات الجيوش المحاربة دون أن تظفر بمساعدة إيطاليا بعد هذا كله أخذت الحكومة الانجليزية تنظر بعين الشك في النصائح والآراء التي كان يوافيها بها مندوبوها المقيمون في الصومال، ولذا قررت تحري الحقيقة في أرضها بصورة مباشرة وأرسلت من لندن الجنرال "سير ريجنالد ونيكات" الذي كان حاكما من قبل في السودان والمستر رودلفو برون فون المعروف باسم أستلن باشا وكان لديهما تفويض كامل: إما أن يتصالحها مع الملا مصالحة حقيقية وإما أن ينصحا بتجديد الحرب الشاملة مع الدراويش وإما أن ينصحا بالجلاء.

وفوضتهما الحكومة كذلك في أن يعرضا على الملا السيد مُحَّمد مساعدة مالية شهرية تبلغ (50.000) خمسين ألف جنيه إذا رأوا استعداده للمصالحة الحقيقية.

وقد أرسل الوفد رسالة إلى السيد مُحَّمد يطلب المفاوضة من جديد ويعرض الصلح الحقيقي وهذا نصها:

في 30 من أبريل 1909م الموافق 1327/4/10 هـ.

إلى مُحَّمد بن عبد الله حسن سلمه الله تعالى.

بعد السلام وصلت إلى بربرة بأمر الحكومة لنعلم حقيقة الأحوال في صوماليا وقد علمنا منها معلومات كثيرة وقرأنا رسائلكم التي أرسلتموها إلى الحكومة وقد كنتم عرضتم فيها للحكومة أنكم تحبون المصالحة مع الحكومة ومع المواطنين وأنكم تجتهدون لتحقيق هذا الصلح.

أما من طرف شكاياتكم من رعيتنا فلقد علمنا أنكم بدأتم بالاعتداء عليهم ثم أنهم قاموا ضدكم بانتقام غير قانوني فتسبب ذلك في قيام الحرب بيننا.

ولا شك أنكم تعلمون أن إثارة الفتنة أشد من القتال ومن قتل الأبرياء مع حرمتهما لأن الفتنة تفقر الوطن وتؤخر التقدم فيه وتجلب الدمار ولذلك فكرت الحكومة ألا ترسل قوات إلى هذه البلاد مع أنها غير عاجزة عن ذلك.

وتعلمون أيضا أن الأموال التي نهبت منكم لم تدخل في جيبنا وهذا لا يحتاج إلى شاهد ويكفيك دليلا أننا لا نأخذ العشور من أموال رعايانا الأعراب فكيف نأخذ منهم ما يسرقونه منكم وليس من الحكمة أن تعتقد أن الحكومة بعد ما تنازلت عن حقوقها وهي "العشور" تأخذ أموالا مسروقة من أمة تعبد الله وحده.

وبهذا يزول عنكم كل شك في نية الحكومة التي لا يهمها سوى حصول الصلح والطمأنينة والأمن لمخلوقات الله تعالى وتوسيع الطرقات للمواصلات التي فيها نجاح الوطن.

وإن كان مقصودك هذا وتريد أن تجتهد فيه فإنه عين مقصودي وسيتم لكم بمساعدتنا، وأيضا إذا منعتم رعاياكم البدو عن النهب فأصرح لكم أن الحكومة تمنع رعيتها عن رعيتكم وتفتح طرق المواصلات.

وعلمنا أيضا من رسائلكم أن مركبا نهب أموالا من سفينتكم فنصرح لك أن هذا المركب كان لحكومة أخرى ومع ذلك سمعنا أنه كان يريد منع السلاح الذي يحمل للأعراب الذين يتقاتلون به فيما بينهم.

وعلى كل حال ما دام هذا الحادث قد وقع فأصرح لكم أنكم تقدرون أن تجعلوا هذه المسئولية على الوالي "كورون" وهو رجل طيب يفكر لمصلحة الوطن..

ونحن نقيم هنا خمسة وعشرين يوما فإذا رأيتم فأرسلوا إلينا وكلاءكم المخلصين كي نتبادل معهم الآراء ورسالتي هذه تعطي لوفدكم الأمان

باسم الله واسم النبيّ ونعاهدكم بعد أن نقف منهم على رأيكم ونخبرهم برأينا أن نرجعهم إليكم آمنين من كل سوء ونحن واثقون إن شاء الله أن يعودوا لكم شاكرين مقابلتنا لهم ولكم الخيار في تعيين الوقت والطريق ومن توفدون.

ولكننا نريد أن يكونوا عارفين باللغة العربية لأننا نعرف العربية جيدا ولا نحب وساطة التراجمة.

من الجنرال "سيرجنالد وينكات"

رد الملا لا يصل:

ولقد رد السيد مُحَمَّد على الجنرال وينكات وأبدى استعداده للتفاهم ولكن المنتفعين بالحرب وخاصة كردون أوكس وسوين وأعوانهم الصوماليين حالوا دون وصول رد الملا إلى الجنرال حتى انتهت المدة التي قضاها في بربرة وهي خمسة وعشرون يوما واضطر بعدها للسفر وقد أوصى حكومته بضرورة الانسحاب.

احتجاج المنتفعين بالحرب:

ولقد أصدرت الحكومة الانجليزية قرارها بالانسحاب في يناير وفبراير سنة 1910م كما سبقت الإشارة ولكن جماعة المنتفعين بالحرب في الصومال سائهم ذلك وحاولوا ما استطاعوا أن يحولوا دونه ومن هؤلاء

الحاكم البريطاني المقيم في بربرة كوردون أوكس وموسي أغره وغيرهما ممن كانوا يستفيدون مما ترسله الحكومة البريطانية من أموال وقد حرضا بالفعل بعض زعماء القبائل التي كانت تدور في الفلك البريطاني كي ترسل احتجاجها على الانسحاب وتعلن أنه خيانة من بريطانيا لهذه القبائل التي ستضطر إلى الوقوف وحدها في وجه الملا.

واحتجت على الانسحاب كذلك الدول الاستعمارية التي سبقت أن وحدت سياستها تجاه الملا وخاصة إيطاليا التي يبدو أن قرار الانسحاب كان مفاجئا بالنسبة إليها.

ولقد جند الوالي كوردون أوكس (4000) أربعة آلاف شخص من رجال رعيته الصوماليين وأمرهم بمهاجمة الدراويش فجبنوا عن ذلك ولم يتقدم إلا فريق واحد منهم يقوده "عمر طور" أحد المتآمرين الهاربين ولقد هزم وجيشه هزيمة منكرة في مكان يسمى "كرسل" من أرض الدراويش الجنوبية.

ومرة أخرى دفعهم كرودون أوكس إلى الحرب وقدم لهم من السلاح أكثر مما في المرة السابقة ولكنهم رفضوا أن يقدموا على هذه المهام إلا إذا صحبهم فيها ضابط من الأنجليز. وفشلت محاولات أوكس ونقلته الحكومة البريطانية وعينت مكانه الجنرال (مني) الذي سرح الجيش النظامي وأعطى الأسلحة والخيول للقبائل الدائرة في نفوذه وطلب إليها أن تدافع عن نفسها إذا هاجمها الدراويش.. ولكنهم بدلا أن

يفعلوا هذا ارتد بأسهم بينهم وحملوا السلاح على أنفسهم حتى قتل الأخ أخاه.

ومنذ أصبح الانسحاب البريطاني من الصومال حقيقة واقعة في عام 1910م تعرضت هيبة الحكومة الانجليزية وأتباعها لضربة شديدة استمرت عامين حتى بدأت محاولات استعادتها مرة ثانية على يد الجيوش الهندية التي كان يقودها الجنرال الانجليزي "كوفل" وإن لم تكن المهمة بالنسبة إليه إلا تضحية دفع فيها حياته وما استطاع أن يقهر الثوار.

معارك ما بعد الجلاء:

سلحت الحكومة الانجليزية القبائل الموالية لها وجهزتها لحرب الملا كما أشرنا وكان ممن سلحتهم ذلك الرجل الداهية المسمى "فارح محمود" والذي كان المدبر لمؤامرة "عنجيل" المشهورة وموضع الثقة البريطانية.

وقد منحته الحكومة الانجليزية المال والسلاح بسخاء وهيأت له وسائل النصر في مواجهة الدراويش وكان قوام جيشه – عدا القبائل – الجنود المسرحون من الجيش النظامي الذين تلقوا المزيد من الخبرة والتدريب.

وكان الملا يقدر خطر هذا الرجل ويحسب حسابه وكان يقول عنه: "لست أخاف أحدا ممن كانوا سابقا معنا ثم انضموا إلى أعدائنا... إلا هذا الرجل".

وكان يأمر أساتذة القرآن أن يعلموا الأطفال قصيدة صومالية تعبر عن التضرع إلى الله تعالى أن يكفي الدراويش شر هذا الرجل، ومن الطريف أن نسجل بعض ما جاء فيها:

يا فارح: إذا رأتك طلائعنا فالله يحبسك لها بعمامتك.

وإذا حاولت الهرب فالله يمسك فرسك ويصيبه بالعياء.

وإذا حاولت الرجوع إلى الحق فالله يغطي عنك الطريق المستقيم.

وإذا أردت أموالا تعتز بها فالله لا يعطيكها .. ولو حمارا.

وإذا دعوت الله أن يحقق مآربك فالله لا يجيب لك دعوة..

"لاس دار "ومصرع فارح محمود:

ويشاء القدر أن يحرم فارح محمود شهود المعركة الأولى التي كان يستعد لخوضها مع الدراويش بعدما رتب لها الرجال والسلاح وخرج من بربرة متجها نحو مركز الدراويش.

فقد حدث بطريق المصادفة أن أرسل الملا اثني عشر رجلا من رجاله الخاصة لدى قيادة الدراويش الجنوبية في أثناء عودتهم من المهمة رأوا – بطريقة المصادفة- آثار إبل وخيل على الطريق الذي لم يكن

مطروقا فمضوا وراء الآثار يحاولون اكتشافه فلقيهم رجل من الصيادين الذين لا ينتمون إلى القبائل المحاربة ومنه عرفوا أن فارح محمود قد نزل بقواته في لاس دار وأنه يستعد فيها لبناء قلعة كبيرة تكون مركزه للهجوم على الدراويش وقطع طرق مواصلاتهم وأن الامدادات في طريقها إليه..

وقررت هذه الطليعة فيما بينها وقد واجهتها فرصة العمر. قررت أن تحاول اصطياد فريستها من حيث لا يحس بها أحد فحملت الصياد معها على أحد خيولها ولما اقتربوا من معسكر فارح نزلوا واتخذوا ساترا لهم وراء الأشجار حيث جلسوا ليحددوا المكان الذي فيه الرئيس المطلوب فارح محمود.

وفي مثل لمح البصر كانت الطليعة الدراويشية تهجم على فارح محمود وتنهي حياته ثم تختطف عمامته وفرسه وتخرج كما دخلت ولما يفق الحراس المذهولون من هول المفاجأة.

هل تكهن الملا بنهاية عدوه:

وتقول الرواية الدرويشية: أن السيد مُحَمَّد كان قد خرج لتوديع تلك الطليعة وتوصيتها عند خروجها في مهمتها وأنه سار معها قرابة ميل وما إن أدار ظهره حتى عاد ثانية يناديهم وقد أخذ في يمينه شيئا من تراب الأرض وهو يقول لهم: "تسابقوا إلى دم فارح محمود".

فتقدمهم رجل يسمى "سير أرشو" فأقبل عليه الملا وكأنه سيناوله التراب ولكن وثب بينهما رجل يسمى "علي مكن" فانتزع التراب من يد الملا الذي قال له أرجو من الله أن تقتله.

فعجب أفراد هذه الطليعة القليلة من كل ما حدث متسائلين كيف يمكن لهذه الفرقة القليلة أن تأتي برأس رجل حصين في جنده وسلاحه وأمواله ثم عجبوا كذلك من تفضيل "علي مكن" على صاحبه ولكنهم مضوا وعلامات الاستفهام لا تزال تبحث في رءوسهم عن إجابة حتى كان ذلك اليوم..

وحين هجمت الرسل على فارح محمود حاول أن يدفع عن نفسه فلم يستطع فهم بالجري فتعثر في عمامته وكانت فرس "شيرارشسو" أسبق الخيل إليه فأطلق عليه من بندقيته طلقة غير أنها لم تصب منه مقتلا وحاول بعدها أن يجري.

وإذا الرجل الذي أخذ التراب من يد الملا يلحق به فيعطيه الطلقة الثانية والقاضية ، ترى أكان الملا في لحظة من لحظات الشفافية قد طالع في ضمير الغيب مسير عدوه اللدود ؟ أم هي الأساطير التي تنتشر في كل مكان وزمان بين كل الشعوب في حالات الانتصار الذي تناله أيديهم ولم تكن عقولهم تستطيع حتى أن تتصوره!؟

مصادمات 1910م:

وفي هذا العام كان عدد المعارك التي خاضتها الدراويش في مواجهة القبائل المؤتمرة بأمر السياسة الانجليزية والايطالية إحدى عشر معركة هزمت الدراويش في واحدة منها وانتصرت في الباقيات مما أكد للمستعمرين البريطانيين عجز القوات الصومالية وحدها عن الصمود في وجه الدراويش الأمر الذي كانت نتيجته وصول المشير الطلياني "مارتيني" إلى مقديشو ليتولى قيادة الحركة ضد الدراويش بنفسه.

ويلاحظ على معارك هذا العام أنها في مجموعها كانت تهدف إلى تضييق الحصار على الدراويش عامة وإحراز انتصار ضد الدراويش الجنوبية وخاصة من وجهة النظر الايطالية التي كانت تعتبر دراويش الجنوب أقوى ظهير للثورة التي اندلعت من قبيلة بيمال في مركة كما يلاحظ أن الاستعمارين الانجليزي والايطالي أخاذا يتكاتفان أكثر من ذي قبل وأخذت إيطاليا تطبق السياسة التي انتهجتها انجلترا عند الانسحاب وهي دفع القبائل الموالية لها بعد تسليحها إلى مهاجمة الدراويش.

وعلى الرغم من كل هذه التجمعات فإن النصر كان حليف الدراويش إلا في معركة واحدة انهزموا فيها نتيجة اختلاف بين القائدين العسكري والمدني في الفترة التي كان فيها القائد العام لدراويش الجنوب قد سافر إلى الشمال للتفاهم مع الملا في بعض الشئون.

عام 1911م ومعركة "عوسن":

في هذا العام بدأت السياسة التي اتبعها المشير "مارتيني" تؤتي ثمارها، فتوالت هجمات القبائل الموالية لايطاليا والخاضعة لها في مهاجمة الدراويش وكانت أبرز الأحداث التي شهدها هذا العام ما يأتي:

معركة عوسن وانتصار الدراويش فيها:

كان انتصار الدراويش في هذه المعركة من أوضح وأخطر أحداث ذلك العام نظرا لما أحاط بها من ظروف كانت تحتم هزيمة الدراويش ليس في هذه المعركة وحدها بل ربما إلى الأبد فقد كان هذا العام من الأعوام القليلة المطر التي اضطرت الدراويش إلى تفريق قواتهم على أوسع رقعة من الأرض يستطيعون التحرك فيها بحثا عن الماء والمرعى لهم ولحيواناتهم..

ومن ثم لم يكن المركز الرئيسي للدراويش منيعا بالقدر المفروض توافره والذي كان على الدوام متوافرا له كما أن قوات الدراويش لم تكن تستطيع التجمع في منطقة واحدة على النحو الذي يخشى بأسه بل أن ظروف القحط اضطرتها إلى التفرق مما كان يمكن أن يجعل منها فريسة سهلة أمام العدو.

ولكن عظمة القيادة وتوفيقها من ناحية ثم بطولة القادة التنفيذيين وفدائية جنودهم من ناحية أخرى هي التي غيرت وجه النتيجة وحولت الهزيمة المحتومة إلى انتصار رائع. فكيف حدث ذلك؟

لما نقل السيد مُحَمَّد مركز الدراويش الرئيسي من ناحية الشاطئ في "الك وايل" إلى الداخل في "نفال" وبنى هناك قلعته العتيدة الشامخة الباقية إلى اليوم في "عيل دمير" استيقن المستعمرون أنه معتزم الدخول معهم في معركة كبيرة فقرروا الهجوم عليه قبل أن يكمل تحصينه واستعداده وأن يكون هدفهم تحطيم المركز الرئيسي واستئصاله وكما قلنا وبسبب ظروف القحط كان الدراويش متفرقين ولم يبق بالمركز سوى (710) سبعمائة عشرة من الفرسان و (1250) ألف ومئاتين وخمسون من المشاة.

في ذلك الوقت كان بين سلطان مجيرتين والدراويش صلح وتفاهم فلم يكونوا يرسلون طلائعهم على حدوده ومن ثم صدرت الأوامر الاستعمارية إلى سلطان ميجرتينا وسلطان ورسنقلي بضرورة الهجوم وجهزت كل حكومة السلطان التابع لها بالمعدات والأسلحة الحديثة. وكان يقود الجيش الميجرتيني ولد السلطان يوسف علي وكان تعداده (7777) سبعة آلاف سبعمائة وسبعة وسبعين نزولا على ما أشار به السحرة لتحقيق النصر.

أما الجيش الثاني فكان تعداده (1800) ألفا وثمانمائة ويقوده سلطان ورسنقلي محمود بن علي شري.

وانضم الجيشان في الطريق وأسندت القيادة الهامة إلى يوسف بن يوسف علي وعندما وصلوا إلى مكان يسمى "بران" حارب الجيشان نقطة استطلاع من نقط الدراويش كان فيها (60) ستون من رجالهم بقيادة "محمود فيت" فأشعلوا النار في جوانبها واحترق جميع من كان بها من

الدراويش سوى رجلين شاء القدر أن ينجوا من الموت بما يشبه المعجزة وأن يكونا مبلغي إنذار الخطر إلى الدراويش.

مجلس الحرب:

وما أن علم الملا بما حدث حتى عقد مجلسا من خواص أصحابه وقادته للتشاور: هل تخرج قوات الدراويش لملاقاة العدو في بران؟ أو تبقى في أماكنها بالمركز ومن حواليه حتى يصل العدو فتحاربه وهي في ديارها ؟ أم توزع نفسها بين المركز وبين ملاقاة العدو؟!

ثم تحدث الملا فأثبت كما قلنا في صدر هذا الكتاب أنه رجل حرب موهوب وأن عبقريته العسكرية كانت وستكون موضع التقدير والإعجاب، قال السيد مُحَّد: "إذا أرسلنا قواتنا إلى الميدان فلربما غلبوا لقلتهم وكثرة عدوهم وعندئذ تكون الطريق مفتوحة أمام العدو ليواصل زحفه إلى المركز فيحطمه دون مقاومة ويحرق بيوتنا ويقتل أبناءنا.

ولقد نرسل قواتنا من طريق آخر لا يكون العدو قد سلكه فيأتي من طريق آخر وتكون النتيجة كما سبق..

وإذا احتفظنا بقواتنا هنا في المركز كان هذا أخطر من الاقتراح السابق لأن العدو سيواصل زحفه حتى يصل إلينا وعندئذ يكون القتال في داخل المركز الذي ليس فيه من القوات ما يوازي قوات العدو المتفوقة عددا وسلاحا.

ولا نستطيع الآن أن نستدعي القوات المرابطة في الخارج مع الحيوانات والخيل لأنها بعيدة وقد ينتبه إليها العدو فيقطع الطريق عليها وتكون الكارثة.

وإذن فليس أمامنا اليوم سوى الآتي: أن نرسل بعض قواتنا إلى أرض ميجرتين ونرسل بعضها إلى أرض ورسنقلي ونجعل في الحصن ما يمكن أن يتسع له من السلاح والكتب.

وقسم الجيش فأرسل إلى ورسنقلي (1500) ألف وخمسمائة من الفرسان و(1200) ألف ومائتين من المشاة بقيادة "شرعنبال" الذي اكتشف من قبل مؤامرة عنجيل.

وقال له السيد مُحَمَّد: واصل سيرك ليلا ونهارا حتى تشن الهجوم فورا على ورسنقلي التي هي أقرب إلى المركز من الثانية "الميجرتين".

وأرسل إلى أرض الميجرتين (200) مائتين من الفرسان يقودهم إبراهيم حسن الملقب "بقل" وأمره بمواصلة السير حتى يهاجم أرض الميجرتين.

وقال السيد مُحَمَّد: أن قوات ورسنقلي والميجرتين إذا علمت أن أموالها وأولادها التي تركوها من خلفهم ستكون تحت رحمة الدراويش فإنهم سيرجعون من فورهم لإنقاذهم وفي مدة الرجوع هذه يمكننا استدعاء بعض قواتنا الغائبة بعيدا.

"ثم أمر خمسين من المشاة أن يتحصنوا فوق الحصن المنيع وأن يحاربوا العدو من مكانهم الحصين بالمدافع الرشاشة."

"كما أرسل اثنين من الفرسان لإبلاغ هذه التطورات والخطوات إلى القوات الغائبة حتى ترتب نفسها وتصرفاتها في ضوء ذلك وأرسل أيضا (8) ثمانية من الفرسان إلى ارباض المركز ليكونوا طلائع تنذر بقدوم العدو إذا لم تنجح الحيلة في صرفه وتحويل وجهته.

"أما العائلات من النساء والأطفال فقد أمر بأن يختفوا داخل الكهوف المنتشرة في الجبال المطلة على المركز متى سمعوا الإنذار المتفق".

وهكذا نرى السيد مُحَمَّد يحسن التصرف لمحاولة التخلص من المأزق الرهيب الذي تعرض له ويواجه هجوم العدو بهجوم مضاد ينزل به ضربة نفسية هائلة وذلك بعد أن يتخذ الخطوات اللازمة لمواجهة كل الاحتمالات.

والحق أن جزءا كبيرا من نجاح هذه الخط كان يتوقف على إخلاص وبطولة الذين وكل إليهم الملا مهمة التنفيذ وفي هذه الناحية يضيف الملا إلى عبقرتيه الملهمة في وضع الخطة عبقرية أخرى في اختيار الرجال وتكليفهم بما يصلحون له.

لقد وصل "شري عنبال" إلى الهدف المحدد له بسرعة مذهلة فشن هجوما خاطفا على قبيلة ورسنقلي وهزم القوات التي لقيها هناك واستولى على كل ما وجده من خيل وأنعام وغيرها.

وانتقل خبر هذا الهجوم إلى القوات التي كانت في بران يقودها سلطان ورسنقلي وسلطان مجيرتينا فاجتمع السلطانان للنظر فيما يمكن اتخاذه.

وقبل أن يتفقوا على قرار فاجأتهم أنباء أخرى عن وصول قوات دراويشة إلى مجيرتينا أبادت الشعب الذي صادفته هناك وإن لم تأخذ شيئا من الحيوانات، فدبّ الرعب والفزع في نفوس الجند وقرر السلطانان والمستشارون أن يزحف الجيش باتجاه ورسنقلي ليسترد الحيوانات المنتزعة ثم يعود فيواصل الزحف إلى مركز الدراويش فيمحوه من الوجود.

أما القائد "شري عنبال" فقد اتجه بقواته القليلة إلى بران حيث يجتمع الجيشان الكبيران وكانت معه الحيوانات الكثيرة التي غنمها من ورسنقلي وكان يسلك طريقا آخر ولكنه تعمد أن يواجه الجيش هنا ليدخل معه في مناوشة تشغله عن اتجاهه نحو المركز الرئيسي للدراويش.

ويشاء القدر أن يحدث ما يشبه المعجزة.

فقد التحمت القوات ونشب القتال بين جيش ضخم تعداده (10000) عشرة آلاف مقاتل مجهزين بالسلاح والعتاد وبين (2700) ألفين وسبعمائة قادمين لساعتهم من سفر بعيد في معركة ساخنة. نشب القتال عند مكان يسمى "هبر هنبل".

وأرسل الجيش الكبير في مقدمته سبعة تيوس تتقدمه قبل أن يخطو الجنود خطوة عملا بوصاية أحد السحرة فما كان من الدراويش إلا أن استقبلوها بالسيوف التي أحالتها ذبائح عظيمة ثم دارت المعركة الضارية.

وأسفرت عن هزيمة جيش السلطانين هزيمة لم يسمع بمثلها طوال ثورة الصومال.. فقد فقدوا فيها أكثر من ألف من رجالهم وغنمت الدراويش (700) سبعمائة قطعة من مختلف أسلحتهم النارية.

أما الدراويش فقد فقدا (140) مائة وأربعين شهيدا وجرح منهم (150) مائة وخمسون وقد سجل الملا هذه المعركة في قصيدته الصومالية الهائية التي وصفت المعركة وصفا دقيقا. ولقد حدثت هذه المعركة في 1329/8/20هـ الموافق 1911/8/15م.

ولقد تتابعت المعارك خلال هذا العام حتى أصبحت (15) خمس عشرة معركة ما بين غارات من الدراويش على القبائل المعادية والدائرة في فلك الحكومات - الاستعمارية - وما بين حملات تأديبية لبعض القبائل التي تظاهر المستعمرين في عدوانهم على القبائل البيمالية حتى يخف الضغط عليها في ثورتها ضد الاستعمار الإيطالي.

أما العلامتان البارزتان في علاقة الدراويش بأعدائهم في هذا العام فيما بعد معرك عوس فهما أولا:

تأكيد معاهدة الحماية الإيطالية مع أولاد سلطان يوسف علي.

وثانيا:

اغتيال "علي بري بن مُحَّد نائب" زعيم قبيلة كسر التي كانت إذ ذاك من أشد القبائل على دراويش الجنوب وأكثرها عدوانا عليهم.

تأكيد معاهدة الحماية:

في 1329/10/15هـ الموافق 28 /1911/9م. توفي سلطان هيبة يوسف ابن علي وكان مرتبطا مع الحكومة الايطالية بمعاهدة حماية ولذا خشيت الحكومة الايطالية بعد وفاته أن يختلف ورثته ومن ثم أسرعت الحكومة الايطالية في إرسال اثنين من كبار رجالها عقب موته هما: السنيور "كرسبي" والسنيور "كسبريني" للتوسط لدى أولاده الخمسة في أمر السلطنة وقد تمت وساطتهما بنجاح ونصب أكبرهم "علي بن يوسف بن علي" سلطانا على هيبة.

ولم يفت الوسيطان الايطاليان أن يحرزا كسبا جديدا لمصلحة نفوذهما على سلطنة هيبة وذلك بتأكيد معاهدة الحماية السابقة ثم إضافة فقرات تحمل امتيازات جديدة وهذا نص المعاهدة الجديدة:

"بصفتي السلطان علي بن السلطان يوسف أصرح للحكومة الايطالية بأن المعاهدة التي كانت سابقا بينها وبين والدي ستكون سارية مع هذه الالتزامات المزيدة فوقها:

(1) سأحارب جيش مُحَمَّد بن عبد الله بن حسن بغاية جهدي حتى أدفعهم عن المستعمرة الصومالية الايطالية سلطنتي وسوف أكون مشتركا مع الحكومة في الدفاع عن المستعمرة بكل وجه ووسيلة تطلبها مني الحكومة الايطالية.

(2) لا أحارب مع الملا محمد بن عبد الله إلا بأمر الحكومة الايطالية وإشارتها.

(3) لا أحارب القبائل الخاضعة للاستعمار الإيطالي وجميع الخلافات التي تقع بيننا سأرفعها إلى الحاكمين الإيطاليين اللذين أحدهما في هيبة والآخر في "مريك".

(4) لا أستعمل جيشي البالغ عدده (500) خمسمائة إلا برضاء الحاكم الإيطالي في هيبة.

(5) سأنظم جيوشي وسأجمعها في أماكن معينة استعدادا للطوارئ.

(6) من اليوم فصاعدا تكون التجارة بيني وبين القبائل التابعة للحكومة الإيطالية حرة وبدون ضرائب آخذها منها.

(7) سأحكم رعيتي بالعدل والانصاف مع استشارة الحاكم الإيطالي وأنا معترف له بالوكالة عن الحكومة الإيطالية.

توقيع : علي يوسف علي.

اغتيال علي بري:

وعلي بري هذا كان زعيم أقوى قبيلة من القبائل المقيمة في المنطقة المسماة "بودي" على نهر الشبيلة وهذه المنطقة تقع ما بين مستحيل وايكي وفيها كثير من القبائل ذوي الميول السياسية المختلفة بعضها مع الطليان وبعضها

يميل إلى الحبشة وبعضها يميل إلى الدراويش وكان أقوى هؤلاء الزعماء وأشدهم خطرا عل الدراويش ذلك الرجل.

وكانت سياسة الدراويش تجاه هذه المنطقة ألا تحتلها هي ولاتدع المستعمرين يحتلونها ولذا بنى الدراويش قلاعهم في بلوين وايجي لكيلا تزحف إيطاليا أو الحبشة وكانوا يفضلون أن تظل كما يقال حديثا منطقة مفتوحة يستفيدون منها في الحصول على ما يلزمهم من التجارة وخاصة في ظروف الحصار..

ولكن هذا الرجل كان لا يفتأ يسبب للدراويش الكثير من المتاعب التي تؤذيهم ولا يحبون أن يواجهوها بالعنف الذي يواجهون به أمثاله من القبائل الأخرى.

ولذا كان قائد الدراويش الجنوبية يرفض دائما المقترحات التي تقدم إليه لغزو هذه القبيلة "كسر " برغم ما توقعه بهم من أذى — وصمم على اتخاذ خطوة إيجابية ولو تكن فردية.

ودون علم قيادة الدراويش امتطى الرجل صهوة جواده وقد اصطحب معه رفيقا له وسارا حتى نزلا أرض القبيلة المذكروة.

واصطنع الرجل الحيل فقال لزعيم القبيلة: إني رسول الدراويش الجنوبية إليك وإني موفد من أجل المصالحة والتفاوض وأقام عنده أياما يجري خلالها مفاوضات وهيمة لكي يدرس عن قرب أحوال القبيلة ويقف على ما يستطيع من أسرارها.

وبعد انتهاء المفاوضات الوهمية خرج زعيم القبيلة يودع المندوب الزعوم ومن خلفهما جيش من الحراس وبعد الوداع التقليدي امتطى الرجل ورفيقه جوادهما وبعد أن مضيا في طريقهما ما يقرب من 50 مترا تظاهر الرجل بأنه يريد أن يفضي إلى زعيم القبيلة بكلمة خاصة فناداه بعيدا عن حرسه.

وما أن أصبح زعيم القبيلة منه حتى عجل له "دعال قرن" طلقة من بندقيته أردته قتيلا في حين أعجزت المفاجأة المذهلة حراسه وجيشه الكبير من إصابة الرجلين اللذين انطلقا يسابقان الريح.

أما أحدهما وهو الرفيق التابع الذي لا يذكر التاريخ اسمه اليوم فقد دخلت به فرسه في أحد التجمعات الشوكية المعشبة ولم تستطع الخروج فتركها.. ثم نجا.

أما الثاني وهو دعال قرن فقد وصلت به فرسه سالما معافى إلى الدراويش.

في عام 1912م:

ولقد كانت لهذه الحركة الفردية آثارها السيئة على علاقة الدراويش بهذه القبيلة وإذا هي تقوم بمجموعة من التصرفات الانتقامية ضد الدراويش في الجنوب مثل قطع الطريق أمام مبادلاتهم التجارية أو قوافلهم التي تصل إلى المنطقة بودي والاشتراك في كثير من الغزوات على حدود الدراويش.

ولقد وجد الاستعمار الإيطالي فرصته في مثل هذه الظروف فأغدق الكثير من المال والسلاح عل زعماء هذه القبيلة وظل يغريهم بحرب الدراويش حتى

كان يوم تحركت فيه قبلية "كسر" تساندها بعض قبائل الجنوب وعندئذ تحرك جيش الدراويش بقيادة بطل يسمى علي تري الذي قسم قواته قسمين.

قسم هاجم القبائل الزاحفة من الجنوب والغرب وانتصر عليها في معركة غرب نهر شبيلة ، وقسم آخر هاجم قبيلة كسر في بودي كي يشل حركتها فلا تستطيع إمداد الآخرين وقد أسفر القتال عن مصرع علي متان قائد القبيلة وزعيمها وشقيق قائدها السابق الذي اغتيل بصورة فردية كما سبق الإشارة.

إيطاليا تواجه الدراويش:

وكان من آثار فشل القبائل الموالية للاستعمار في إحراز انتصار على الدراويش على الرغم مما زودوا به من سلاح وعتاد أن اضطر المستعمرون للنزول جهارا وعلانية لمحاربة الدراويش. وكانت إيطاليا هي البادئة في هذا العام وخاصة بعد ما شلت انجلترا يدها نسبيا عن احتمال تبعات الحرب.

تقدمت القوات الايطالية من مقرها في بلعط متجهة إلى شبيلة في ربيع الأول من عام 1330هـ الموافق مارس 1912م أنشئت "مهداي" وخطب المشير الطلياني مارتيني يوم افتتاحها فقال:

"في الوقت الذي يحاربنا فيه خليفة المسلمين في ليبيا ومُحَمَّد بن عبد الله حسن في صوماليا باسم الدين.

في الوقت الذي ترحب بنا هذه القبائل الكثيرة وتلتف حولنا بما لها من الكثرة والعزم والمحبة ومعها علماؤها وزعماؤها ولا يتأثرون بكلام المحرضين علينا ولا بدعاة الجهاد من سلطان تركيا وأمير ليبيا ومُحَّد بن عبد الله حسن."

واتبع المشير الطلياني خطبه وتصريحاته بتقديم المساعدات الضخمة من الأموال والهدايا أما السلاح فقد أغرقت به القبائل بصورة لم يسبق لها نظير كي تباشر مهمتها بنجاح.

وقد نجحت خطة المشير الإيطالي وبدأت القبائل الموالية تقف موقف التحدي من الدراويش وتعمل على تضييق خناق الحصار الاقتصادي من حولهم مما اضطر القائد الجديد لدراويش الجنوب وهو "خليف بن الشيخ عبد الله حسن" شقيق الملا إلى القيام بحملة تأديبية انتقامية من القبائل التي سارت في ركب السياسة الايطالية وخاصة من العلماء الذي زينوا لقبائلهم هذا الطريق.

وقد تميزت حملته هذه بالقسوة والروح الانتقامي لأنه أمر قواته بقتل المحاربين من الرجال ما بقيت أسلحتهم في أيديهم وأسرهم إذا قبض عليهم أحياء وكانت تلك أول مرة يأمر فيها الدراويش بالاقدام على عملية الأسر منذ نشوب الثورة حتى هذه المعركة.

ولقد أسرت القوات المسلحة بالفعل (443) أربعمائة وثلاث وأربعين ، أطلقت سراحهم بعد شهرين بأمر السيد مُحَّد.

كما أحرق الجيش القرى التالية: جللقس – بغداد – حدرعان– منصور – أفكوي بادعد – بكرال – بوركوس – بورطير وهذه الأخيرة "قرية العلماء الذين زينوا لقبائلهم اتباع السياسة الإيطالية ضد الدراويش.

1913م ومعركة "تليح" (إنذار إلى إيطاليا):

حينما بدأ هذا العام كانت الحكومة الإيطالية قد واجهت بنشاط وحزم مسئولياتها في المنطقة الجنوبية من الصومال فأقدمت على تسليح عدد من القبائل المحيطة بمنطقة بودي ذات الأهمية الحيوية تسلحا كاملا وأغدقت عليهم الأموال – وقامت ببناء عدد من التحصينات الهامة في "مهداي" و "وتيكلو" وغيرهما مما كان له أكبر الأثر في تنشيط حركات العدوان من جانب هذه القبائل بصورة يطبعها التحدي والاستفزاز ولقد استطاعت بعض القبائل أن تحرز عدة انتصارات نسبية على بعض الحملات التي كان يجهزها دراويش الجنوب لمقاومتهم مما اقتضى تحرك القيادة الشمالية للدراويش وتوجيه إنذار من الملا إلى الحكومة الايطالية التي أثبتت المعلومات أن تسليحها للقبائل لم يكن سوى مقدمة للغزو الشامل الذي تستعد له وهذا نص الخطاب:

تليح في 1331/10/24 هـ الموافق 1913/9/25 م.

من العبد المستقوي بالتوكل على الله القوي الغالب إلى الحكومة الايطالية في صومالية أما بعد:

فلا تخفى علينا أعمالكم العدوانية ضدنا منذ قيامنا بالجهاد دفاعا عن ديننا وعن بلادنا حيث كنتم دائما تساعدون في جميع المعارك عدونا الأكبر وهو الانجليز، فقدمتم لهم المساعدات المادية والمعنوية وكان لكم في جميع غزواته علينا ضباط مستشارون في جميع الشئون الحربية.

وكنتم مشتركين معه في الحصار الذي ضربتموه علينا من البر والبحر. ذاك الحصار الذي شاركتكم فيه الحبشة وفرنسا وجميع أتباعكم من القبائل الصومالية.

وكنتم دائما تسلحون القبائل ثم تسلطونها علينا وكنتم الذين وضعتم لأجل مكيدتنا الخطة الخداعية في صلح "الك" ذلك الصلح الذي لولا اليقظة التي وهبها الله لنا لكنا ضحية فخ خديعتكم الذي نصبتموه لنا.

وكنتم أنتم الذين دبرتم لنا مؤامرة عنجيل. تلك المؤامرة التي فشلتم فيها أشد الفشل.

كما أفسدتم علينا رسولنا عندكم عبد الله بن شحري حينما أرسلتموه إلى مكة ليشهد لكم على حساب الدراويش أمام الشيخ مُحَّد صالح.

كما نشرتم في جميع العام والصومال الرسالة المزيفة – المختلقة على لسان الشيخ. تلك الرسالة التي بذلتم في تحصيلها الأموال الكثيرة.

وكنا نتغافل عن كل ذلك كأننا لا نعلم منه شيئا.

والآن بعد فشلكم في جميع المحاولات المذكورة اعتزمت حكومتكم الخائنة أن تسيطر على أرض شبيلة "بودي" لكي تقطعوا عنا سبل معيشتنا.

ولقد قصدتم إلى "بلدونية" ولولا سبقنا العجيب إليها لكانت حياتنا الاقتصادية اليوم في خطر عظيم ولله سبحانه وتعالى تدبير فوق جميع التدابير.

والآن أحذركم في هذه الرسالة وأقول لكم بصراحة:

أن أرض شبيلة "بودي" هي أرضنا وهي ملك للدراويش والمسلمين وليس لكم فيها أدنى استحقاق وملكية فإذا لم تتراجعوا عن أطماعكم فيها فأحلف بالله العظيم أنكم ستندمون على هذا الطمع في وقت لا ينفعكم فيه الندم.

ولقد يكفيكم عبرة وعظة ما حدث لـ "كوفل" ذلك الرجل العنيد المتكبر الذي خالف أوامر حكومته واتهم كل من قبله من الجنرالات الذي انهزموا أمامنا بالضعف والعجز والجهالة وحلف أن يمحو الدراويش من الوجود في أقل من أشهر معدودة ، فكانت نهايته أن قطعنا أوصاله إربا إربا ، ثم حملنا روحه القذرة رسالة إلى أرواح إخواننا الشهداء.

من العبد الضعيف راجي نصر الله القوي – مُحَمَّد بن عبد الله حسن.

”مراسلات ما بعد المعركة الكبرى ..

“يا انجليز يا أولاد الانجليز..



وبعدما أرسل الملا رجاله لسبر أغوار السياسة الانجليزية ومعرفة حقيقة اتجاهها بعد عقد معاهدة الصلح وبعد إعلان انجلترا قرار الانسحاب وبعدما أعاد إليهم الحيوانات التي كان قد صادرها من القبائل الموالية لهم وبعدما

انسحب الجيش الذي كان مرابطا في "بوهودل" ليتيح للقبائل الموالية حرية الحركة والتنقل كما يقضي اتفاق الصلح.

بعدما فعل هذا لم يتلق من المسئولين البريطانيين في "بربرة" سوى رسالة فيها التهكم به وروح التهديد له فكتب إليهم يقول:

"يا انجليز يا "رير" إنجليز ، رأينا رسالتكم التي فيها التهجمات والشتائم التي لا تليق بنا ولا بموقفنا وكرامتنا ومع هذا لم أمزقها ولم ألق بها في المزابل التي تناسبها وإليكم الجواب اللطيف الذي ليس مثلها.

ولقد دعاني إلى ذلك حب المصالحة والمسالمة ولولا ذلك لكان بوسعي بل من واجبي أن أكتب إليكم جوابا أشد من رسالتكم.

والحاصل أنه إذا كنتم تريدون المصالحة وترغبون فيها فإني أحبها وإذا كنتم تريدون التفاوض في الصلح الحقيقي فأنا مستعد له وإن الدراويش الذين تشكون من أعمالهم في "بوهودل" وفي عيك وتقولون أنهم من رعايانا فإنهم في مكان يبعد عنا مقدار ثلاثة أيام على الخيل ومن قبل قد أمرناهم أن يرابطوا في الحدود ليدفعوا عن بلادنا جميع أعدائنا لا ليهاجموا أحدا بدون علمنا. ومنذ هذا التاريخ سننهاهم عن كل هجوم غير مناسب بدون علم منا.

من الفقير إلى ربه القدير: مُحَمَّد بن عبد الله حسن.

وكان الرد الانجليزي المسجل في 1912/6/7م هو:

من والي بربرة إلى مُحَمَّد بن عبد الله وبعد:

وجدت رسالتكم ورسولكم ورسالتكم هذه كانت أحسن بكثير وأفضل من ذي قبل وأنتم تخبرونني فيها مرة أخرى برغبتكم في المصالحة واستعدادكم للتفاوض مرة ثانية.

وتعلمون أننا قد تفاوضنا مرة قبل ذلك الصلح وبعدها هاجمتم رعيتنا وبدأتم الحرب من جانبكم فإذن كيف أصدقكم؟

ولكن إذا أوقفتم هجومكم علينا في ظرف 6 أشهر من الآن ومنعتم رعيتكم من غزو رعايانا وتوقفتم أنتم عن تدخلكم الكثير في شئون رعايانا وتحريضكم إياهم علينا خلال المدة المذكورة عندئذ أصدق رغبتكم في الصلح.

ويمكنكم في نهاية تلك المدة أن ترسلوا رسولا آخر يحمل مقترحاتكم في الصلح وأرسل أنا بيد رسولكم نصوص اقتراحاتي صادرة من حكومتي.

ولقد أخبرتنا في رسالتك أن رعاياك هؤلاء قد فعلوا ما فعلوا دون علمكم وأمركم وأنا أوافق على ذلك ولكنكم تعلمون أن المسئولية تقع عليكم وعلى عاتقكم. وتعلمون أيضا أن رعيتكم تؤذي رعيتنا وكنا نشكوهم إليكم فتعتذرون بأنهم عصاة وأنا أعلم أنكم تقدرون على منعهم ولا أقبل إلا ذلك منكم.

ولذا أفهم أنهم إذا قاموا باعتداء علينا تكونون قد أرسلتموهم وأحملكم جميع المسئولية وأخبرك أيضا أنكم إذا لم تنهوهم عن الاعتداء علينا فإني أفعل كفعلكم وأسلط رعيتي عليكم وأعطيهم من قبل حكومتي مساعدات كبيرة. ولكن إذا منعتم رعيتكم من رعيتي وتركتم التدخل والتحريض علينا فإني أمنع رعيتي عنكم وأجتهد في تحقيق المصالحة التي ذكرتموها والله يهديك.

حين علم باستعدادهم للحرب:

وفي شهر ذي الحجة من عام 1330هـ الموافق ديسمبر 1912م علم السيد مُحَمَّد أن الحكومة البريطانية تستعد للقيام بهجوم مفاجئ على الدراويش بعد ما استيقنت من عزم الحكومة الإيطالية على النزول إلى ميدان حرب الدراويش علنا بعد فشل خطتها التي كانت تقوم على الحرب من وراء القبائل الصومالية بوساطتها.

وكانت الخطة أن بريطانيا تكلف الجنرال "كوفل" أن يستعين بقوات ضخمة من عدن ومن الهند وأن يجهز تحت إمرته المباشرة جيشا منظما مدربا من القبائل الخاضعة لسيطرته وقد فعل الجنرال ذلك ونجحت خطته في كسب ولاء بعض القبائل الصومالية إلى حد أن كان بعض زعمائها يقسمون إيمانا مغلظة أن الجنرال كوفل "أحب إليه من أولاده وأبويه ومن جميع ما على ظهر الأرض.

وكانت الحدود بين الدراويش والمنطقة الانجليزية مغلقة فأرسل الملا بعض رجاله يحملون هذه الرسالة وكان هدفه أن يستطلعوا حقيقة الموقف وراء الحدود وأن يعرفوا: هل الاستعداد للهجوم قد تم أو لا فبعث هذه الرسالة:

إلى القنصل الانجليزي – وبعد:

أخبرك أني أرسلت إليكم رسائل عدة تتعلق كلها بالمصالحة فلم تقبلوها وكلما كتبت إليكم رسالة كان جوابكم خارجا عن موضوعها ومليئا بالشتائم والعبارات القبيحة وقد عرفت في هذه الأيام عن استعدادكم العاجل لمهاجمتنا على حين غرة.

والآن أخبركم من جديد في هذه الرسالة أني مستعد لكل مصالحة ومسالمة إذا تمت على غير حسابنا وحساب بلدنا.

ويكفي دليلا على صدقنا أني رفعت قواتي من "بوهودل" المحايدة وأعدت لكم الحيوانات التي صودرت من رعيتكم وسوف أعاقب إن شاء الله كل من يأخذ منكم شيئا بدون أمر صادر منا ولعلكم سمعتم أني أدبت أولئك الذين أخذوا منكم تلك الحيوانات التي أرجعتها إليكم وجردتهم من الأسلحة والخيول.

وأؤكد لكم أني – مرة أخرى- سأعاقب كل مفسد قد يتسبب في خراب البلاد.

في 1331/1/16هـ الموافق 25/ 12/ 1912م

من مُحَّد بن عبد الله الدرويش.

وأجاب القنصل الانجليزي:

من الوالي (بيات) إلى السيد مُحَمَّد بن عبد الله:

تذكرون في رسالتكم أنكم تكلمتم في أمر المصالحة ستة مرات وأنا أقول أن الرسائل التي كتبتها إليك متعلقة بالصلح تبلغ مائة رسالة وأخبرك أننا الآن نرحب ونقبل المصالحة معكم ولقد قلت لكم سابقا أنكم المسئولون عن كل ما تفعله رعيتكم ضد رعيتنا أو ليس هذا من الصواب؟

وأما قولك أنك قد رددت الحيوانات فهذا أمر حسن ولكن إذا كنتم تريدون المصالحة الحقيقية فردوا لنا جميع الأموال واسحبوا قواتكم من جميع أراضينا إلى أراضيكم.

هذا وأخبركم أنه إذا كان مرادكم المصالحة والموافقة فاعلموا أنه ليس من القوانين أن تتفاوضوا مع الصوماليين الذين هم رعيتي[10] وأن الذي يتولى أمر المصالحة هو أنا لا رعيتي. وإذا صح عزمكم على ألا تثيروا الاضطرابات من جانبكم فنحن كذلك لن نثير أي اضطرابات من جانبنا.

من الوالي "بيات "

في 1913/1/11م

الموافق1331/2/3هـ

[10] كان الملا قد أمر برد الحيوانات إلى القبائل المصادرة منها شخصيا متجاهلا السلطة الانجليزية حتى لا يكون هذا اعترافا ضمنيا بقبول حمايتها عليها.

نقل المركز الرئيسي:

وقد حققت خطة الملا هدفها وجاءه الرسل يحملون المعلومات الهامة التي تؤكد عزم الانجليز على الهجوم الغادر واستعداداتهم الكبيرة لذلك.

ولهذا أمر الملا على الفور بنقل مركز الدراويش الرئيسي إلى منطقة تكون أكثر مناعة وحصانة من "عيل دمير" وأكثر سيطرة على أماكن المياه ووقع اختياره على منطقة "تليح" التي صارت فيما بعد عاصمة الدراويش. لأنها أكثر سيطرة على مياه "انغال" التي ستكون ميدان الاصطدامات الحربية المقبلة.

وأسرع الملا بإقامة التجهيزات والتحصينات القوية.

وبالطبع عرفت الحكومة الانجليزية بذلك فأيقنت انكشاف خطتها وأن الهجوم لن يحقق عنصر المفاجأة المرجو منه ولذا تقرر إرجاؤه إلى حين.. مع القيام بعمليات مخادعة لكسب الوقت وذلك بالكتابة إلى الملا ولفتح باب الصلح المزعوم وكانت تلك في الوقت نفسه هي خطة الملا فبعث إلى الوالي بيات رسالته الثانية:

إلى الوالي الانجليزي "بيات":

أما بعد: فقد وجدت منك رسالة شديدة اللهجة تتهموننا فيها ومما لا شك فيه أن ذلك مما يعوق المصالحة بيننا ولست أريد مجاراتكم في هذا المضمار لعلمي أن هذا الزمان الذي نعيش فيه يقل فيه العقلاء ولقد علمت أنكم لا

تتصرفون بآرائكم وأفكاركم أنتم وإنما تعملون بآراء غيركم من عملائكم الصوماليين وتستوحونهم في كل شيء.

وهم لا يوحون إليكم إلا بالأكاذيب الملفقة ويغرونكم لا يخلصون لكم النصح ولو مشيتم بآرائكم لكنا قد وصلنا إلى نتيجة.

وهناك رجال آخرون يعرقلون المصالح ألا وهم الجواسيس الذين ترسلونهم فيعودون إليكم من وسط الطريق زاعمين أنهم وصلوا مركز الدراويش ويلفقون الأخبار الكاذبة من أنهم التقوا بالدراويش وحاربوهم وقتلوا منهم. والحقيقة أنهم ما رأوا شخصا واحدا من الدراويش ولا أطلقوا رصاصة واحدة وإنما باعوا جميع الرصاص لإخوانهم في الطريق.

وحتى لو تصادف أن رأو أحدا من الدراويش وقتلوا شخصا واحدا فيقولون لكم أنهم قتلوا مائة ومائتين لكي يحصلوا على المكافأة.

إن هؤلاء الجواسيس الخونة قلوبهم سوداء كوجوههم ومن يصدق الكذاب فهو مثله كذاب.

وأني أحب أن ترسلوا من طرفكم رجلين عاقلين لبدء مفاوضات الصلح معنا وبعدها يمكن أن أقابلكم وجها لوجه في "برع" أو شيخ أو بربرة أو أي محل تريدونه ولست على استعداد لإرسال من يبدءون التفاوض معكم، لأني لا أثق بأحد في هذا الوقت إلا من تقول لي أنت أنه أمين وثقة حتى تقع تبعية خيانته عليك لا علي.

في 1331/5/2 هـ الموافق 1913/4/8 م.

من الفقير إلى الله القدير: مُحَّمد بن عبد الله حسن

وكان الرد الانجليزي:

من الوالي "بيات" إلى مُحَّمد بن عبد الله ..

لقد تلقيت رسالتك يحملها رجلان من قبيلة "هوية" ولقد تأخرا بها كثيرا في الطريق ولكيلا نضيع الوقت جعلت جوابها من نسختين أرسلتهما إليك من طريقين.

وإن رسالتك وإن كان فيها تنديد بنا بطريق غير مباشر فإن أكثر ما فيها حق وصواب وفي الوقت الذي أعتقد فيه أن أكثر الصوماليين طيبون أعتقد أيضا أن منهم مفسدين كثيرين وكما لا تثق بهم فإني لا أثق بهم.

وإذا أردت أن نتقابل وجها لوجه فإني أعتقد أن أنسب مكان هو "شيخ" وأحب أن نتقابل فيه قريبا على أن تأخذ معك عشرة رجال فقط وأنا أحشد مثلهم وأني سأستعد لحراستكم من جميع الأعداء وسترجع إلى حدودكم تحت حراستنا وإني ضامن لكم الأمن والأمان وكلامي هذا صدق وتستطيعون أن تسألوا الرجال الذين معكم عن وفائي للعهد ومحافظتي على الأمن.

وحدد لي في الرسالة التالية المكان والزمان بشرط ألا تصحب معك أكثر من عشرة حتى لا أظن ويظن من معي أنك جئت للحرب لا للمفاوضة.

وأحب أن أراكم في شهر جماد الآخر ثم أتشاور مع حكومة لندن فيما اتفقنا عليه.

وستكون النقاط التي نتفاوض فيها هي:

1-الحدود الرسمية بينكم وبين القبائل التابعة لنا.

2-تحديد أسلحتكم وأسلحة رعيتي.

3-كيف نعطيك جانبنا مقابل هذا الصلح النقود ومقدارها وطريقة أخذها إما جملة وإما سنوية.

في 26 أبريل 1913 م الموافق 20 جمادى الأولى1331 هـ

من الوالي "بيات".

لم أبع ديني وشرف بلادي بالمال:

وما أن تلقى الملا هذه الرسالة حتى أمر بتمزيقها شر ممزق وقال للدراويش: إن بيات هذا أحمق رجل جرت بيننا وبينه من الانجليز مكاتبات في الشئون السياسية فهو يظن بعقله الخفيف أني سأقابله في ِ"شيخ" ومعي عشرة رجال لأتيح له أن ينال من حكومته رتبة ما بعدها رتبة ثم يتحدث في الأندية الأوربية التي تحتقر المسلمين عامة والافريقيين خاصة كيف استطاع أن يصيد في الفخ أكبر عدو لحكومته وهو أنا.

إنه يحسب أني آخذ منهم أموالا أبيع بها ديني وبلادي وشرفي وأجعل له فيها حدودا رسمية، وإذا كنت في مفاوضات "الك" قد طلبت منهم أمولا فإنها كانت تعويضا عما لحقنا من الخسائر بسبب اعتداءاتهم علينا ولم تكن أموالا اتقاضاها مشاهرة مقابل ديني وشرفي وبلادي.

أراد هذا الأحمق أن يحدد لنا أسلحة تساوي أسلحة القبائل التي تخضع له وتركع لسيادته.

لقد بدأ هذا الأحمق بكتابة رسالة تجعل الدراويش قبائل متفرقة ، فقال رجلان من قبيلة "هوية" كلمة القبيلة هذه أفظع عندي من جميع ما ذكره.

وكيف يحسبني الأحمق أن أرضى بقوله قبيلة فلان وتعلم حكومته أني لا أرض إلا باسم الدراويش الذي هو أعم حتى من اسم الصومال؟؟!!

وتلك كانت آخر رسالة بين الدراويش والانجليز حدثت بعدها المعركة الجبارة التي قادها الجنرال "كوفل" وتعاونت على إنجاحها إيطاليا والحبشة وتعاونت أيضا كل القبائل الموالية فلم تنته إلا إلى الهزيمة الساحقة لقوات المستعمرين وأعوانهم في المعركة الشهيرة في تاريخ الثورة الصومالية الكبرى وهي معركة تليح.

السبق إلى بلدوين:

وقبل أن ندخل في تفصيلات معركة تليح ينبغي أن نقف على الظروف التي سبقت هذه المعركة ومهدت لها فقد كان هدف المستعمرين جميعا هو الدخول مع الملا في معركة فاصلة وخاصة بعدما تولى الجنرال كوفل قيادة القوات الانجليزية لأنه على ما بدا من تصرفاته منذ وصوله الصومال كان حاقدا على الملا وكان مصمما على الدخول معه في معركة حاسمة ولعله كان يعتقد أنه الذي كتب القدر على يديه محو عار الهزائم البريطانية السابقة.

فإن الحكومة الإيطالية كانت قد بنت مهدي وتيكلو وحصنتهما واعتزمت أن تتخذ منهما قاعدة للانطلاق إلى بلدوين الذي يعتبر الاستيلاء عليها كارثة كبيرة على الدراويش الشمالية والجنوبية معا لأن معناه سيطرة إيطاليا سيطرة تامة على المنطقة الحيوية "بودي" على نهر شبيلة.

ومعنى سيطرة قوة معادية للدراويش على هذه المنطقة ألا يجدوا مكانا واحدا في الأرض يحصلون منه على احتياجاتهم الضرورية سواء من الأغذية أو من التجارة وشئون الحرب حيث كان الحصار الاستعماري محكما حولهم في كل مكان من البر والبحر وكانت هذه المنطقة "بودي" متنفسهم الوحيد وهذا معناه أن تحدث كارثة يعقبها بعد الحصار الزحف العسكري الذي كان الجنرال العنيد كوفل يستعد له ويستعد له الموالون للاستعمار.

ومن ثم كان على الدراويش أن يأخذوا عدوهم قبل أن يأخذهم وأن يقوموا بالعمل السريع الخاطف المضاد لما يفكرون فيه.

فصدرت الأومر من الملا إلى أخيه الذي كان في الوقت نفسه قائد دراويش الجنوب – أن يستولي فورا على بلدوين– قبل أن يستولي عليها الايطاليون.

ولم تكن الظروف الداخلية في بلدوين نفسها مما يشجع استيلاء الدراويش عليها بسبب سوء العلاقة بين الدراويش وبين الصوماليين في هذه المنطقة الذين كانوا قوة يحسب حسابها وطالما سعى الدراويش إلى كسب صداقتها دون جدوى.

خرج قائد الدراويش الجنوبية بنفسه على بلدوين بقوة يبلغ مقدارها (10000) عشرة آلاف مقاتل منها ألف من الفرسان.

وكان نهر الشبيلة في موسم الفيضان مليئا بالماء حتى ليطغى على شاطئيه والمنطقة التي يريدون الاستيلاء عليها في الجانب الغربي للنهر في حين أن الدراويش في الشاطئ الشرقي وليس معهم ما يستطيعون به عبور النهر من الزوارق أو غيرها وكانوا حريصين على ألا يطلع عليهم النهار قبل أن يكونوا قد عبروا النهر بأية وسيلة حتى لا يأخذ الآخرون حذرهم ويضيع كل شيء.

وفي ظلام الليل كان جنود الدراويش جميعا يعبرون النهر المائج على حبل مشدود على عرض النهر كله بين الشاطئين ربطه في الناحيتين بعض

السباحين المهرة من الدراويش وعندما أشرق النور مع طلائع الفجر كان الجيش الكبير يهاجم المنطقة كلها ويستولي عليها وشرع البناءون والعمال على فورهم في إقامة حصن كبير للدراويش أما قائد هذه العملية الهامة فقد أسرع من فوره بالعودة إلى مركزه خشية أن تهاجمه القبائل المعادية وترك من ورائه قائدا يسمى "مُحَّمد بن يحيي" ليشرف على بناء التحصينات والقلاع خاصة ثم كتب تقريرا بصورة الموقف كله إلى المركز الرئيسي للدراويش في الشمال.

الجنرال يفقد أعصابه:

ويبدو أن انتصار الدراويش في الاستيلاء على بلدوين قد أصاب الجبهة الاستعمارية بضربة هائلة وخاصة إيطاليا التي كانت الخطة تقضي باستيلائها هي على بلدوين وكانت فعلا قد استعدت لذلك وأقامت تحصيناتها في مهدي وتيكلو كما سبق وأن أشرنا.

أما الجنرال العنيد كوفل فقد أصيب بما يشبه الجنون وقرر القيام بعمل انتقامي سريع ضد الدراويش ولذا كتب من فوره إلى الملا دون استئذان حكومته يقول:

إلى المجنون مُحَمَّد بن عبد الله:

"اعلم أننا سننسفك نسفا إذا لم تتراجع عن غوايتك وإذا لم تخمد ثورتك الجنونية.

واعلم أيضا أن حكومة صاحب الجلالة عظيمة جدا ولا يستطيع مجنون مثلك أن ينال منها شيئا ولو تافها فأنصحك أن ترجع عما أنت فيه وعد إلى رشدك وصوابك قبل أن تقع عليك المصائب ثم تظهر ندامتك على أعمالك السيئة.

في 8 يوليو 1913م من القائد كوفل.

وكان رد الملا:

من السيد مُحَمَّد بن عبد الله حسن قائد القوات الدراويشية الإسلامية إلى الجنرال كوفل قائد قوات الشيطان... وبعد:

"فلقد اطلعت على رسالتك وفهمت منها جميع أغراضكم الدنيئة وأهداف حكومتكم الوضيعة الماكرة.

وأعلمك أن قواتكم التي تفاخرون بها لا تساوي عندي شيئا وأخبرك أنكم إذا حاربتموني معتمدين على القوات الهائلة التي تخوفونني بها فإني أحاربكم بنيتي الصادقة وإيماني القوي وبعزيمتي الصادقة التي لا تعرف الانحراف والملل هذا وأخبركم أيضا أنه مهما يكن من شيء فلا تطمعوا مني في أن استسلم لكم وأن أكون للشرك عبدا.."

في 1331/8/21 هـ، الموافق 1913/7/25م.

وبعد هذا لم يكن باقيا على الصدام العسكري سوى صدور أوامر الزحف من هنا ومن هناك لتتم المجزرة العنيفة التي محت من الوجود جيش كوفل وأسفرت عن تقطيع أوصاله في الميدان.

كيف وقعت المعركة؟

(في أول رمضان من عام 1331 هـ الموافق 1913/8/2 م) أرسل حاكم الدراويش الجنوبية خليف بن عبد الله حسن 50 خمسين بعيرا محملة بالثياب إلى المركز الرئيسي في تليح لأن الدراويش الجنوبية تستوردها من المنطقة بودي على نهر شبيلة ومن هرر حين كان ثمة وفاق بين الدراويش والأحباش على أيام (ليج ياسو).

وما أن علم الجنرال كوفل بأمر هذه القافلة حتى أرسل من القبائل الموالية له (40) أربعين رجلا ليقطعوا عليها الطريق ففاجئوها عند مكان يسمى (سول قرجب) وقتلوا تسعة من رجالها وجرح رئيسها طاهر بن عمردي فهرب ممتطيا جواده إلى تليح وهرب الباقون من رجال القافلة إلى مكان قريب من نقطة الحادث تقيم فيه حيوانات الدراويش الشمالية وخيولهم تحرسهم قوة بقيادة يوسف بن عبد الله حسن شقيق الملا.

وما أن علم هذا القائد بما حدث حتى تعقب هؤلاء القراصنة بجيش تعداده ألفان من المشاة ومعهم (600) ستمائة فارس ، وقد واصل الجيش مسيره حتى أغار فجأة على المكان الذي نزل فيه القراصنة والقافلة معهم ويسمى (إداوين) فاستردوها منهم ومزقوهم شر ممزق كما استولوا على أموال كثيرة للقبائل الموالية لانجلترا في هذه المنطقة وكان ذلك في نهار الخميس 5 رمضان 1331 هـ الموافق 1913/8/7م.

وحين بلغ السيد مُحَمَّد تفصيل ما حدث مع ذلك كله وخاصة خروج الجيش من مكان الحيوانات والخيول اتخذ الخطوات التالية:

*أرسل رسالة عاجلة وراء الجيش الذي كان يحرس الحيوانات والخيول وخرج دون إذن القيادة ليتعقب القراصنة ولامهم على تصرفهم قائلا : لقد غزوتم دون أمرنا ودون علم منا وتركتم الحيوانات والخيول دون جيش يحرسهم من الأعداء المتحلقين من حولنا وأمامكم الجنرال كوفل بجيشه الكبير المدرب كما تعلمون.

وليس جيشكم هو الذي أعددناه لمحاربته بل هذا الجيش عندنا في تليح وليست أسلحتكم هي المعدة لقتاله بل هذه الأسلحة عندنا في تليح، الأسلحة التي معكم لا تصلح إلا لقتال القبائل التابعة للمستعمر لذا آمركم أن ترجعوا فورا من أي مكان تصلكم فيه رسالتي.

أما الجنرال العنيد فقد ثارت ثائرته – وكان عندئذ بجيشه في برع، فتحرك بهذا الجيش بأسلحته الثقيلة إلى مكان الحادث...

متحديا أوامر بربرة الذي بعث في أثره كابتن سمر كي يرده عما اعتزمه بل متحديا الحكومة وأوامرها وقال الجنرال: مخالفة الأوامر أهون من العار كيف لا أحارب الدراويش وقد صادروا أموال رعيتي في مكان قريب لي؟ وعلى الفور أرسل مائتين من الفرسان إلى مكان الحادث كي يجمعوا جميع القبائل المحيطة بالمكان لتشترك بأسلحتها في إطلاق الرصاص من كل جانب على الدراويش... حتى تجيب الدراويش بالمثل فينفذ ما لديها منه كما تقوم هذه القبائل نفسها بالهجوم على الدراويش من الخلف في الوقت الذي يبدأ فيه الجنرال هجومه من الأمام.

وسار الجنرال بجيشه يستره الظلام والليل حتى نزل أمام الدراويش في مكان يسمى "دلمدوب – مغال ير" وأقام الاستحكامات من حوله في مكان كثير الأشجار والسواتر الطبيعية.

وبدأت القبائل المصاحبة له تطلق الرصاص على الدراويش من كل جانب تنفيذا للخطة كما سبق أن أشرنا ولكن قائد الدراويش فطن إلى ما يريدونه فأمر رجاله ألا يطلقوا طلقة واحدة ضد هؤلاء وقال :

إن هدفهم أن ينفذ رصاصنا في الرد عليهم وعندئذ يهاجمنا سيدهم في الصباح ونحن بلا رصاص.

وصباح السبت 7 رمضان 1331 هـ الموافق 9 أغسطس 1913م تحرك الجيش الدراويشي يستاق أمامه الأموال الوافرة التي غنمها من القبائل ردا عل حادث العدوان على القافلة الدرويشية وكانت الأموال التي يسوقها الجيش (10000) عشرة آلاف من الإبل و(150) مائة وخمسين من الخيول و(100000) مائة ألف من الغنم. وقسم القائد قواته إلى ثلاثة أقسام:

*قسم تعداده (1300) ألف وثلاثمائة تقدموا الجيوش والمال.

*قسم تعداده (400) أربعمائة يسيرون خلف الجيش والمال لرد ما قد يحدث من عدوان من الخلف.

* وقسم ثالث تعداده (900) تسعمائة أكثرها من الفرسان كانت في وسط المال.

وبعد مسيرة أقل من ثلاثة كيلومترات وصلت مقدمتهم إلى مركز الجنرال كوفل والتحم الجيشان واشتدت المعركة بينهم وبينه وعندئذ هوجمت الدراويش من الخلف بوساطة القبائل ولكنها لم تلبث أن هربت أمام مؤخرة الدراويش التي كانت معدة لهذه الحالة.

ولقد كانت المعركة عنيفة لدرجة لم يسبق لها مثيل في تاريخ حرب التحرير الصومالية بسبب ما كان يعتمل في نفس الجنرال العنيد من

حقد على الدراويش ورغبة في استئصالهم ، وقد استمرت المعركة ست ساعات وكأنها ست ساعات في الجحيم نفسه وأسفرت المعركة عن هزيمة ساحقة لجيش الجنرال كانت أشبه بالمجزرة التي ساق إليها الجنرال رجاله بل ساق إليها نفسه من قبلهم فإن المعركة لم تنته إلا بقطع رأس الجنرال وتمزيقه إربا إربا في أرض المعركة حتى اختلطت أشلاؤه بالأرض تحت سنابك الخيل.

ولم ينج من هذا الجيش الجبار إلا الذين فروا بجلودهم داخل الأشجار الشوكية الكثيفة ولو أطاع الدراويش رأي أحدهم الذي اقترح إحراق هذه الأشجار لكان معنى ذلك الإبادة التامة لجيش الجنرال كوفل.

ولكن هذا الرأي قد رفض تكريما لجثث شهداء الدراويش التي ربما كانت موجودة في داخل الغابات الملتفة.

وقد استشهد من الدراويش (140) مائة وأربعون وجرح وجرح (170) مائة وسبعون وفي تمام الساعة السابعة صلى الدراويش الظهر والعصر في أرض المعركة ثم استاقوا الغنائم والسلاح ولم يتركوا منهما شيئا حتى وصلوا به مركز الدراويش الرئيسي في تليح.

الملا يسجل المعركة بالشعر:

وقد سجل السيد مُحَمَّد هذه المعركة في قصيدته الصومالية التي وصف فيها غطرسة كوفل وجبروته وإلى أين انتهيا به فقال:

*البيت الصومالي " أداجبيتي آن كوفلو دند جوغينة أذكا جدكي لغغ ود جمع لنا نيده جهنم لغييو اذا آخر وجهانه).

ومعناه: أنت يا كوفل قد بعدت عن الدنيا بدون رجعة إليها وأنت المسوق في الطريق الذي ليس فيه الرحمة وأنت الذي راح إلى الآخرة أيها الجهنمي.

*البيت الصومالي: (نمنكي جنو كعي وربي جرن أشالييه جميعو ينكى لي هداد جوهرني ارغتو سدى ايبهي كوجري ورجوتاييده).

ومعناه: أن شهداءنا الذين سبقوا إلى الجنة ربما يحبون أن يسمعوا الأخبار فإذا رأيت هذه الجماعات التي أرواحها كالجواهر فأخبرهم كيف ابتلاك الله تعالى في الدنيا؟

*البيت الصومالي: (دراويش حكار نغم دين تن أي جيركي طه انكريس جيبو وحاكطعي جع أي بارود طه وحي نوححو بنينه واجبشديني طه).

ومعناه: وقل لهم إن الدراويش لا تزال تحاربنا منذ ذلك الوقت البعيد وأن الانجليز قد هزموا في المعارك كلها منذ ذلك الوقت البعيد وقد وقع عليهم الصواعق والرصاص وأصيبوا واستؤصلوا.

*البيت الصومالي: (انفته جكري الهلين شلي جهاد طه جغت ونربي غورير فئة اغجتيبن طه مجينغ هرتيسي رساس أنمغ جوجين طه).

ومعناه: وقل لهم أصابوني في جهادهم أمس ببندقية من طراز وجكري وهي فرنسية الصنع وقل لهم: في وقت الضحى أحاطوا بي وأحدقوا بي من جميع الجهات وقل لهم : أصاب الرصاص الذي أطلقوه ما بين كتفي وصدري.

*البيت الصومالي: (جيلانيدي الجغين جلعفكودي طه سدي كوغ جيجين مكلغ جططعدي شيغ بلاوه سدو كوجرجري جيبيك أموجي).

ومعناه: وقل لهم بعدما أصابوني بالرصاص ضربوني برماحهم الثقيلة وعليك أيضا أن تكشف لهم جسدك وتريهم كيف كانوا يشرحونه بالخناجر؟ وعليك أيضا أن تتجرد من ثيابك ليروا ويتحققوا من الطعنات الخنجرية التي أصابت جوانبك.

*البيت الصومالي: (نف جعليسفي بان وطه جالو غد طه جلجليعدي اودنه جيب كسورقي طه جيد الدي با انطه كراجلاد ميتطه).

ومعناه: قل للشهداء يا كوفل إذا رأيتهم : قلت للدراويش الغزاه حبا في الحياة يا أصحابي أوقفوا الطعنات.

وقل لهم أيضا أن حبال قلبي قد انقطع بعضها لكثرة الالتفاتات وقل لهم : لقد تبعتهم عيناي عند خروج روحي.

*النص الصومالي: (جمع كغمهلن توغمد أن جربي روحي طه – مركان جوق أطا هدب أفكي أغجفيين طه – وحبدت بان جلاعي طغان جلق لآيسين طه)

ومعناه: وقل لهم أيضا لم أجد منهم رحمة ألححت عليهم بطلب روحي وكلما وجهت إليهم كلمة ضربوني على فمي بأسفل رماحهم.

وقل لهم كثيرا ما صرخت ولكن صرخاتي لم تجد آذانا صاغية.

*النص الصومالي: (غورتان جريون غبو تلل كجان قادي- سدي جنندي هرتضع إغجغوغنا طه تلدي جنغ أي هرمري جاسديد هلي طه).

ومعناه : وقل لهم أيضا حينما يئست من الحياة المزدحمة تجسمت أمامي الهموم والأفكار ورأيت نفس مصير زملائي الجنرالات السابقين الذين قتلهم الدراويش في المعارك الماضية ولقد تلقيت الجزاء الذي أستحقه في اتباع الشيطان.

*النص الصومالي: (جيده حنونكي مركي لاغ جيرا رشي جيارك اغسوبجي دوكي جيفك قبل واطه مركي ربد جوتط اربي أغ أغجبشين طه).

ومعناها: وقل للشهداء حينما جاءتني الآلام الخارجة عن الحصر في جميع الجهات بسبب جر الملائكة روحي بالعنف من جسدي كانت صرخاتي وصيحاتي توقظ النيام.

وحينما خرجت روحي رفعوا أصواتهم بالأناشيد والأغاني شماتة بي.

*النص الصومالي: (جيط كيغ بهل باعنوجيتي هلبكي طه – جرمدي برورتي – طروا جفح كس يا طه – جطجطدي سيده تكي أغفجادين طه).

ومعناه أكلت الوحوش والسباع لحمي بعد خروج روحي وتجاذبتها فيما بينها وأما الشحوم فقد استأثر بها الضباع وازدرتها من دون بقية السباع وأما اللحوم الصغار التي بين المفاصل وكذا الرباطات والعروق فقد كانت من نصيب الغربان.

*النص الصومالي: (هدان ليس جكارين تلكع لغ جل روناطه أبيد كودب والغ جرا جلب طغ دولان طه – سيد كينه واجبنطوغي جوغ سوبجي طه).

ومعناه: وقل لهم أيضا ما لم يكن هناك عناد وجحود للحقيقة فإن الدراويش قد غلبت قبيلتي وانتصرت عليهم كما كانت تنتصر في كل المعارك السابقة.

وقل لهم أيضا أن الضجيج والأصوات التي تسمعونها هي السيد مُحَّد وجيوشه المتجهة ناحية الانجليز.

الاستفادة من انتصار تليح:

ولم يدع الدراويش فرصة الانتصار الرائع الذي أحرزوه في تليح وعلى الجنرال العنيد كوفل وأتباعه تمر دون أن يفيدوا منها على أحسن وجه تقتضيه الظروف التي يعيشون فيها.

فقد كان من الضروري الضجة الكبيرة التي أحدثها الجنرال قبل المعركة التي زعم فيها أنه سيمحق الدراويش ويمحو إسمهم من جميع أنحاء الصومال وأنه سيحسن الانتقام للإهانات التي لحقت شرف البريطاني وحكومته صاحبة الجلالة ثم إنذاراته المدوية إلى الملا وتأكيده له أنه سينسفه نسفا وسيفعل به الأفاعيل.

هذه الضجة الدعائية الاستعمارية وما صحبها من أساطير وكلام كان من الضروري وقد سحقها الدراويش سحقا وجعلوا منها وهما كبيرا في أرض المعركة أن يحسنوا الاستفادة منها وأن يسخروا من الأساطير والخرافات التي كان يروجها المستعمرون عن أنفسهم وعن قواتهم.

ولقد رأينا كيف أن السيد مُحَمَّد نفسه قد بدأ بقصيدته الجميلة التي صور فيها مشاعر الجنرال العنيد المهزوم أجمل تصوير وكيف عاش اللحظات الأخيرة من عمره تمزقه رماح الدراويش وخناجرهم تستل روحه وهو في أشد حالات تعلقه بالحياة.

بناء قلعة شنبرس:

ولقد كان خبر انتصار الدراويش وحده كافيا في إلقاء الرعب في قلوب أعدائهم وتحطيم شوكتهم حتى ليفكرون مرات ومرات من قبل أن يرفعوا أيديهم بالسلاح في وجه الدراويش.

وكان هذا وحده يكفي ولكن الملا أبى إلا أن يطرق الحديد الساخن فإذا هو بعد أقل من ثلاثة أسابيع على هذه المعركة يرسل (600) ستمائة من رجاله لبناء ثغر "شنبرس" وهو محصن طبيعيا في منطقة جبلية لا تبعد عن أقصى حدود المستعمرة البريطانية أكثر من (28) ثمانية وعشرين ميلا ولا يمكن للقبائل التابعة للحكومة الانجليزية أن تعيش دون ارتياد المراعي التي تسيطر عليها شنبرس ومعنى هذا أن الملا أحكم قبضته على أعناق هؤلاء الناس ويضعهم تحت رحمة الدراويش بهذا الحصن.

ولكي يقوم الملا بتحويل أنظار الأعداء عن هذه العملية الكبرى الخطرة أرسل إلى جانب هؤلاء (60) ستين من الفرسان يهاجمون مركز القوات الحكومية في برغ وضواحيها حتى يلقوا في قلوبهم الرعب ويوهموهم أن هذا العدد القليل من الفرسان ليس إلا مقدمة جيش كبير يقوده السيد محمَّد بنفسه لتحرير المستعمرة بعد هزيمة الجنرال.

ولقد حققت الخطة هدفها ولم يزل هؤلاء الفرسان يشنون الغارات على ضواحي المدينة مدة عشرة أيام فتكوا خلالها بكثير من الأعداء وقتلوا ما لا يقل على مائة حتى هربت الرعاة إلى بربرة وتم بناء الثغر.

وقد استمرت آثار تليح حية نابضة في مشاعر الصوماليين عامة وأعداء الدراويش خاصة فما يكادون يرون طليعة من الجنود الدرويشية حتى يدب الفزع في قلوهم ويحسبونها مقدمة جيش هائل من الدراويش وفي الحدث الذي وقع في 1332/5/4هـ الموافق 1914/3/30م أي بعد تليح بما يقرب من ثمانية أشهر ما يدل على ذلك.

لقد سمعت الدراويش الشمالية المرابطة في قلعة شنبرس التي تعتبر أقرب الحصون الدرويشية لمعسكر البريطانيين في برع، سمعوا أن الحكومة البريطانية تحشد قوات كبيرة في العاصمة بربرة لتهاجم القلعة وتنسفها ولكيلا يتسرب الخبر فإن تجمعات الجيوش تختفي في شعب دبار القريبة من العاصمة.

وللتحقق من صحة النبأ أرسلت الدراويش من قلعتهم شنبرس (40) أربعين من الفرسان يقودهم الحاج (مرسل أو ساعد) وكانوا يرتدون ملابس الجنود الحكومية خديعة لأعدائهم وكلما لقيهم أحد في الطريق أفهموه أنهم جنود الحكومة حتى وصلوا أماكن الشعب المذكوره فلم يجدوا بها جنودا ولا جيشا.

وأغرتهم العاصمة بأن يغيروا عليها فاقتحموها في ظلام الليل يطلقون نيران بنادقهم مما أفزع الجيش الحكومي فالتجأ إلى القلاع والحصون ظنا منه أن هؤلاء ليسوا سوى مقدمة جيش درويشي كبير وهربت الرعية كلها من العاصمة ولم يبق فيها أحد ومات في زحام الهرب كثيرون لا يكاد يحصى لهم عدد واستأجر الكثيرون من الصوماليين سفينة كانت راسية في الميناء "قهوجي"، بأضعاف أضعاف إيجارها العادي وهربوا إلى البحر كما أسرعت القيادة البحرية فاستدعت البوارج الحربية من عدن لمواجهة الموقف.

أما الدراويش الأربعون فقد عادوا بعد ساعتين سالمين من طريق غير الذي أتوا منه وفي هذا ما يكفي لتصوير مدى الرعب الهائل الذي ملأ القلوب من سطوة الدراويش وخاصة بعد تليح.

"رسالة من الملا"



وبعد هزيمة الانجليز في تليح وبعد ما بنى الدراويش قلعة شنببرس على حدود المستعمرة البريطانية سادت فترة من الصمت المريب في العلاقات بين الدراويش والانجليز انقطعت فيها المخاطبات والمراسلات مما دفع السيد مُحَّمد إلى الكتابة إلى الحكومة الانجليزية لعله يستشف من ردودهم ما هم عازمون عليه تجاه المركز الرئيسي

للدراويش ولا سيما بعدما عرفت النوايا الإيطالية لنسف قلعة بلدوين حتى يتخذ من الاستعداد ما يناسب الموقف وهذا نص الرسالة:

من السيد مُحَمَّد عبد الله إلى الوالي الانجليزي في بربرة وبعد: فلقد أرسلت إليكم رسائل كثيرة فلم تعيروها أي اهتمام بل كانت جميع أجوبتكم هي التهجمات المحضة عكس رسائلي التي تتسم بلطف العبارة وقبل حادث "دلعدوب" أرسلت إليكم كتابا اقترحت فيه أن تعينوا من جانبكم مكانا نتفاوض فيه للصلح معكم ومع رعيتكم وقد قلتم في جوابكم أن المكان المناسب هو "شيخ" وقلتم أيضا أنكم تؤمنوني في ذلك المكان من كل شيء.

وقلتم أيضا أن الحكومة الانجليزية لا تعرف الكذب ولا الغدر والخيانة وقلتم أيضا في الجواب إذا كنت في شك من هذا فاسأل عنا الرجال العارفين لحكومتنا الانجليزية من دراويشك.

وحينما رأيت كتابكم هذا استخبرت عنكم الحاج أحمد سود وآدم علي كري وهما سابقا كانا من خواص رجالكم فأخبراني عنكم كلاما يناقض كلامكم.

وحينما قلت لهم أنني أريد الذهاب إلى "شيخ" مع (10) عشرة أشخاص فقط نصحا لي بعدم الذهاب إليها وقالا لي:

إن الانجليز هم أهل غدر وخيانة وقالا: لو كان هذا الكتاب الذي أرسله الوالي إليك صادرا من المملكة لكان يستحق الاطمئنان والتصديق أما وكلائها فليس كلامهم إلا كذبا وغدرا وخيانة.

ولقد تحققت ويتقنت صدق قولهما حينما غزوتمونا (7) سبع مرات بعد كتابكم وقتلتم بعض رجالنا وأرسلتم رجالا وأسلحة ورجالا ينهبون أسفارنا من أرض أوجادين في الطريق لكي تقطعوا طرق المواصلات وعلمت أيضا من مصادر أخرى أنكم تستعدون لهجوم مفاجئ علينا وبعد جميع ذلك تحققت صدق كلام صاحبي ونصحهما.

وهذا كله كان منكم بعد ما رددت لكم الحيوانات التي صودرت من رعاياكم في "بوهودل" وفي "عيك" وبعدما عاد الهدوء والاطمئنان إلى البلاد وإذن فمسئولية دلعدوب تقع عليكم وعلى رعاياكم الصوماليين.

هذا عن الماضي.

أما الآن فأقول لكم من جديد نحن نحب المصالحة الحقيقة والمسالمة إذا كنتم لا ترفضون ذلك ، وأقول لكم أيضا، لا تصغوا إلى كلام الذين لا يريدون في البلاد إلا الفساد لأجل ما يأكلونه منكم ولكن: اسمعوا كلامي لأنه أنفع لكم ولنا معا.

ومن ناحية أخرى إن البلاد كانت سابقا منقسمة للقبائل الصومالية وكانت شنبرس محسوبة من حدودنا ومن بلاد القبائل الدراويشية

ولكنكم استوليتم عليها بالقوة والآن – قد ردها الله تعالى منكم إلينا وبذلك نكون قد وصلنا إلى حدودنا ونحن لا نريد فوقها. ولكل منا ومنكم أن يطلب بلاد القبائل التابعة له وجميع مصالحهم.

وأختم كلامي بأن أقول لكم: إن الشيء النافع الوحيد هو ألا تستعموا إلى كلام الذين لا يغنون عنكم شيئا ولا يفكرون في مستقبل هذه البلاد الصومالية ولا تهمهم العواقب.. وأيضا أقول لك أيها الرجل غير الخبير:

هدئ نفسك وبالك وأعصابك لأني أحلف لك بالله وبشرف رسولي وبشريعته السمحاء أني أحب كل مصالحة ليس فيها غدر وخيانة وسأعمل من أجلها.

في 1332/4/8 هـ الموافق 1914/3/5 م.

وأجاب الوالي الانجليزي فقال:

من الوالي إلى السيد مُحَمَّد عبد الله وبعد:

فأخبرك في هذه الرسالة أني رأيت رسالتكم وفهمتها وفي إحدى رسائلكم من زمن بعيد كنتم تقولون لي: لا نسمع نحن ولا أنت كلام الناس لأن الصوماليين هم الذين يبذرون فيما بيننا الخلافات وقلت لي: لأجل ذلك ينبغي أن نتواجه أنا وأنت في مكان.

والآن تقول لي: لا تسمع كلام أهل الفساد والفتن وفي الوقت نفسه تخبرني أنك استخبرت عنا الحاج سود وآدم علي كري وهذا اعتراف منك بأنك استمعت إلى كلام النمامين ولا أفهم أي مبرر لكم في ذلك فإذا كنت ترفض كلامي ولا تصدق فإين تجد السبيل إلى المصالحة؟

والآن أقول لك: إذا أردت المصالحة فأرسل كتابا صادرا من صميم فؤادك لا من فؤاد أصحاب الفتن وأقول لك حينما حلفت باسم الله في رغبتك في المصالحة أرسلت إليك هذا الكتاب وأما قسمة البلاد للقبائل فأنتم تعرفون بلاد أتباعكم والحكومة تعرف بلاد أتباعها وأنا أعرف الحدود تماما وأخبركم أن حامل كتابكم كان من أتباعنا جاء إليكم لكي تردوا له إبله التي نهبتموها وقد أراد الآن أن يبقى عندنا فإذا أرسلتم كتابا إلينا فأرسلوه مع من تثقون به.

تحطيم شنبرس:

ويبدو أن قلعة شنبرس هذه كانت مصدر المتاعب الكثيرة والتهديد المتصل للقبائل الصومالية الموالية للاستعمار ولعاصمة الاستعمار البريطاني في الصومال بربرة مما دفع الحكومة البريطانية إلى ضرورة التفكير في التخلص منها بصورة حاسمة ولا سيما أنها كانت رأس الجسر أو المنطلق الطبيعي إلى العاصمة الصومالية.

وفي 1933/3/29هـ الموافق 1915/2/13م هاجمت القوات الانجليزية المسلحة بالأسلحة الثقيلة المستوردة من عدن ومن الهند هاجمت القلعة وظلت تصليها نيرانها الحامية ويبدو أن بناء القلعة لم يكن من المتانة بحيث يستعصي على نيران المدفعية الثقيلة كما استعصت القلاع الأخرى التي لا يزال بعضها باقيا إلى اليوم.

وأسفرت المعركة عن انتصار الدراويش ونسف القلعة المذكورة واستشهد من الدراويش (72) اثنان وسبعون مقاتلا كما فقد العدو خلال أيام القتال الذي دار حول القلعة ما لا يقل عن (80) ثمانين بينهم ضباط كثيرون.

وما إن علم الملا بهذا الخبر المؤسف حتى أرسل من فوره جيشا قوامه (30000) ثلاثون ألف مقاتل وعامل يقودهم سوف كليف خرجوا من تليح في اتجاه خليج عدن وشرعوا في بناء القلاع الحصينة في كثير من الأماكن ذات الأهمية العسكرية مثل جيدل – سرد – بطن وقد أنجزوا ما أمروا به وأصبحت هذه الحصون أشواكا قوية في قلب البريطانيين وأتباعهم في تلك المنطقة.

ومحاولة تحطيم قلعة بلدوين:

ومنذ انتصار الدراويش في معركة تليح 1913/8/3م والصراع الاستعماري ضد الملا وضد الدراويش لم يتوقف ساعة واحدة وإن اتخذ أشكالا أخرى.

ففي تلك الفترة كان الدراويش قد استطاعوا التفاهم مع الملك الحبشي الشاب ليج ياسو الذي كشف عنهم أذى القوات الحبشية وامتنع عن توجيه رعاياه من القبائل الصومالية إلى العدوان على الدراويش بل على العكس فتح لهم أبواب هرر ليشتروا منها ما شاءوا من متاجر وحاجات.

ومن هنا بدأت الحكومتان الانجليزية والايطالية تسلحان القبائل الموالية لهما للضغط على الدراويش بغية تحطيم قواهم وخاصة وأنه في ذلك الوقت كانت الحرب العالمية الأولى قد اشتعل أوارها وكانت انجلترا على ما هو معروف أحد أطرافها ولديها من المشاغل الكبيرة فيها ما يصرفها مؤقتا عن التفرغ الكافي لحرب الملا فاكتفت بتأمين حدود مستعمرتها ضده وأخذت إيطاليا زمام الحركة لمواجهة الدراويش.

ولقد طالعنا من قبل كيف أن الاستيلاء على بلدوين كان ضربة درويشية هائلة وجهت إلى الخطط الاستعمارية في هذه المنطقة أصبح

وجود الدراويش فيها من أهم أسباب الخطر والمتاعب للاستعمار عامة والاستعمار الإيطالي خاصة.

ولهذا عمدت إيطاليا كما رأينا إلى إحاطة هذا المركز الدراويشي الهام بسلسلة من الحصون القوية في (مهدي – تييكلو – بق) وغيرها لتكون مراكز حصار حول الدراويش من ناحية ونقطا للهجوم على بلدوين من ناحية ثانية وطالما خرجت من هذه الحصون ومن التجمعات القبلية المتاخمة لبلدوين غارات تهدد أمن الدراويش وتحاول إزعاجهم في تلك المنطقة ما كان يقتضي بالطبع أن تقوم الدراويش بهجوم مضاد وحملات تأديبية ردا على ما يقع عليهم من اعتداء وخاصة بعد ما أعطى الملا لبلدوين هذه سلطة الإدارة المحلية وجعلها محافظة مستقلة.

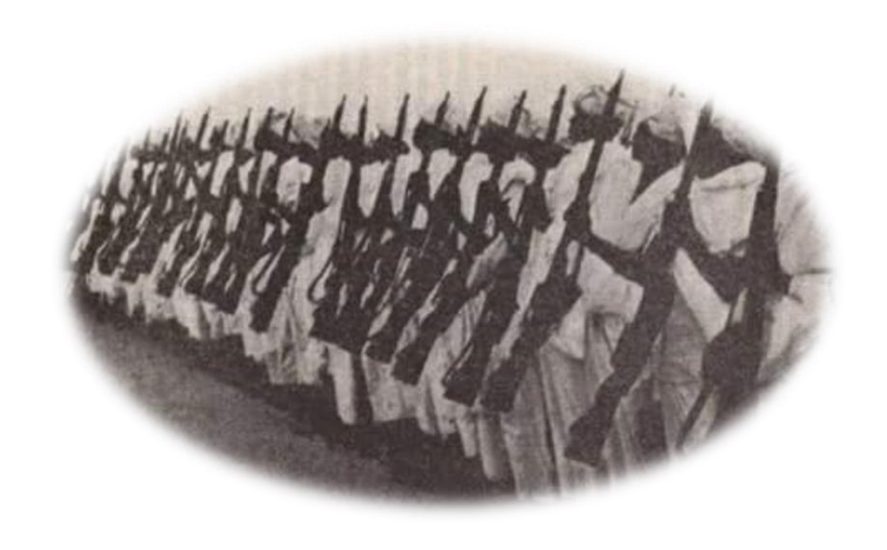
ففي 1334/7/7هـ الموافق 1916/5/9م أرسل سلطان هيبة حملة كبيرة قوامها (3800) ثلاثة آلاف وثمانمائة جندي لنسف قلعة بلدوين هذه بأمر الحكومة الإيطالية وكان مع الحملة مدفع كبير أرسلته الحكومة الايطالية إلى السلطان لهذا الغرض مع الخبراء اللازمين له.

ولقد ظل المهاجمون يطلقون مدفعهم على القلعة الحصينة في بلدوين حتى أفرغوا فيها (143) مائة وثلاثة وأربعين قذيفة باءت كلها بالفشل ولم تنل شيئا من صلابة القلعة وانتهى الضرب بأن وجه الدراويش

بعض رصاصهم إلى جوف المدفع فانفجرت فيه إحدى القذائف وقتل (الطاقم) الإيطالي الذي كان يعمل عليه.

وحين بدأ الجيش المهاجم في الانسحاب كان قد خلف وراءه (280) مائتين وثمانين قتيلا مقابل (25) خمس وعشرين من الدراويش الذي كانوا يقاتلون من داخل حصونهم على أن هذا الجيش وإن لم يظفر في بلدوين بما أراد فقد أغار عند الانسحاب على ضواحيها وهاجم قبيلة جودال التي كانت موالية للدراويش وغنم الكثير من أموالها.

"معركة دال والقصيدة الصومالية"



ومن أهم المعارك التي خاضتها الدراويش هذا العام 1916م تلك المعركة الشهيرة باسم معركة دال وترجع أهميتها لأن انتصار الدراويش فيها كان أشبه بالقدر المحسوم الذي تتدخل في صنعه عوامل لم تكن مما يحسبه القائد المحارب فالجيش الذي دخل هذه المعركة لم يكن أبدا موجها لكي يخوضها وإنما كان مرابطا في بعض الثغور القريبة وساقه القدر إليها.

كما ترجع أهميتها بصورة أوضح لما غنمه الدراويش فيها من الأسلحة وما خسره العدو من الضحايا وفوق هذا فقد كانت درسا تأديبيا هاما لأحد السلاطين الذين ساروا في ركب المستعمرة فذاقوا الهزيمة المرة.

ففي 1334/10/29 هـ الموافق 8/28/ 1816م أمرت الحكومة الانجليزية محمود علي شري سلطان ورسنقلي أن يقود بنفسه حملة كبيرة لمهاجمة الدراويش قرب جيدل كما فعل غيره من السلاطين من قبل تنفيذا لأمر إيطاليا.

فقاد السلطان الحملة الكبيرة بعد ما أمدته انجلترا بما لا يتصوره من الأسلحة وسار حتى نزل عند مكان يسمى دال فيه حيوانات للدراويش وخيولهم فأغار الجيش فجأة على هذه الحيوانات.

ولكن لحسن حظ الدراويش وصلت فجأة أيضا إلى مكان الحيوانات قوات من جيش الدراويش قوامها (3000) ثلاثة آلاف مقاتل كانوا يعسكرون في مواجهة بعض المراكز الانجليزية، والتحم القتال صباحا بين قوتين متكافئتين وأسفرت المعركة عن مصرع (410) أربعمائة وعشرة من القوات المهاجمة – قوات السلطان– وغنيمة الدراويش (500) خمسمائة بندقية. وكانت قتلاهم فقط (19) تسعة عشر.

القصيدة الصومالية:

ولأهمية المعركة وروعة الأثر النفسي الذي صنعته في نفوس الدراويش نظم الملا السيد محمّد قصيدته التي وصف فيها المعركة وتناول موقف الدراويش عامة من قضية تحرير البلاد من الأطماع الاستعمارية!.

النص الصومالي:

(دغت ويرر قوبكي هدي وررغتي ييطي اغان دغنين قبن هدى تلد بالسيي دويد الو فئته هدي دال كراطافتي).

ومعناه:

في الوقت الذي سمعنا فيه أصوات أرجل خيول الأعداء الذين يشنون علينا الهجوم ونحن لا نعلم شيئا من أخبار هذا الجيش حتى جاوزت أوائل خيلهم مكاننا وهو دال لم نرهم إلا وهم في وسطنا وحوالينا.

النص الصومال:

(فيلد دلو نكثه هدي نلد رئيسي دغدغ انان اسولاولا وتد واد طبيكيده مدلكيتي نمن دوبعد أooده دراويشه)

ومعناه:

حينما سمعنا الصياح المرتفع المتجه إلينا الدال على الهجوم المفاجيء تخففنا للقاء العدو وهذه عادة الدول ثم جعلنا فوقهم رجالا معممين بالعمائم البيضاء وكلهم من الدراويش.

النص الصومالي:

(دكر هدوكوكلي حربد أنفغ دولكيغ ديبدي هربتب بقي دبد ناغينه عيدن ميان دافت لراعي)

ومعناه:

حينما دخل جيشي في المعركة وهو يذكر الله تعالى هربوا في أول الوهلة الأولى، ثم تابعناهم من الخلف ومن الجانبين بجيش كبير كالجراد.

النص الصومالي:

(سدي آرد لو بي مركان اغ دنا هيي دلدي شريديد مركان دبوغ جيحسي بي - دايبرك ميل أوسن كون دي مجيحسي سي).

ومعناه:

حينما صرخت فيهم مثل الأسد الذي يزأر وحينما طاردتهم في الجبال الكثيرة الأشجار حتى لم يتورعوا عن الهرب في الأشجار المسماة – دبو- وهي ذات أشواك كأنها الزقوم – بل اقتحموا الأماكن التي لا يقدر القرد على اقتحامها.

النص الصومالي:

(دنب مله عدواه ننكغ دل كحواري درجو الهي كهل لبد داروده دبك ايم نح ننئ كفرغ درس ود اغانه).

ومعناه:

لا ذنب على من رمي أعداء الدين في الهوة السحيقة بل سيجازيه الله تعالى أعلى الدرجات في الدارين ولذا لا أرحم من يعاون الكفار ويجاورهم.

النص الصومالي:

(فرنجغ دريسكله كوي ديرد أقادي إيغب دريقد إلى دينت عاصيته وخي نودليد شيه وادود وبنهائه).

ومعناه:

الذين تابعوا الافرنج المستعمرين وصاروا لهم رعايا كيف أرحمهم لقد عصوا الله وحادوا عن طريقه ودينه كما قال قاتلونا من الخلف حينما كنا نحارب الكفار.

النص الصومالي:

(دلمغان بنانين كوي دوفل أغهيي هدان دان واانغه أو داود فريه دبنكس رساسيد) (ميان ديلن كفييلي).

ومعناه:

أما الذين نصروا الكفار علينا بالظلم الذي لا يجوز فإني إذا صالحتهم وتركت قتالهم أكون ممن نقض عهد الله وميثاقه ولهذا فقد واجهتهم برصاص كالصواعق المحرقة فأباد جيشهم حتى أصبح كالأرض الخالية من الأشجار والعشب.

النص الصومالي:

(نمنؤهواف لب بان مرنك دينينيه دلاده عدلا نعم شب هدل دليليده مد قبي ريربر وحو دونيو هلايه)

ومعناه:

يا قوم: لا يمكن أن يترك المرء والنزاع فم له خدان يتكلم صاحبه. ولكن ينبغي أن يقال ما يخالف الحقيقة في المكان الذي ليس فيه من يعرف الحقيقة ولذا أسالكم جميعا هل هزمنا الجيش الذي هاجمنا من الشرق هزيمة شنعاء؟! ولا جواب على هذا إلا قول: نعم.

النص الصومالي:

(دريمد كبدن ميدك يال ددبت بوريده طيغودسد دوغمسد ويسغى دحيه دغاغي علبة قوذي جري لوديا فدييه)

ومعناه:

جثث القتلى هناك أكثر من الأعشاب ودماؤهم جرت مثل السيول في الأرض وضيفت على لحومهم السباع والطير.

النص الصومالي:

(انفنه دلكودان لبن دبوليده دائر ايبي مركي ديق نلسي بن مديال دغي موفها دهر لفاطسي بي).

ومعناه:

ولقد وجدت بقتلهم انتصارا كان مستورا حتى يجيء وقته المقدور، ولذلك حينما أعطانا الله هذه النعمة أخذنا نلعب ابتهاجا وسرورا على الخيل من الصبح إلى وقت الظهر.

والقصيدة طويلة ولكن هذا فقط هو القدر المتصل بهذه المعركة.

" الاتفاق بين الحبشة والدراويش "



وخلال هذا العام 1916م:

كانت الاتصالات بين الملا وممثلي الحكومات الألمانية والتركية والحبشية قد أسفرع عن نوع من الاتفاق والتعاون فيما بينها لمساعدة الملا والدراويش على تحرير الصومال من الاستعمار وظهر هذا التعاون في توقيع اتفاق قبول الدراويش- للانضواء تحت لواء الخلافة العثمانية وقبول حمايتها فيما لو قدر الله لها أن تخرج منتصرة من الحرب. هذا الاتفاق الذي سنسجل هنا نصه فيما بعد.

كما وعدت كل من ألمانيا وتركيا ببذل العون المادي للدراويش عن طريق تهريب الأسلحة والمواد الحربية إليهم ما استطاعوا سبيلا إلى ذلك.

ومن جانب الحبشة كان الاتفاق أن تمتنع امتناعا كاملا عن تقديم أية مساعدة لأعداء الدراويش من المستعمرين وألا تساهم في أية عمليات عسكرية ضد الملا ليس هذا فحسب بل أن تمده ما استطاعت بما ينفعه في جهاده لتحرير الصومال والاشتراك معه في تحرير هذا الجزء من افريقية تحريرا تاما. وتم هذا بالاتفاق مع وفد الدراويش إلى أديس أبابا في 1916/8/16م.

وكانت الثمرة العملية الأولى لهذا الاتفاق هي عودة الوفد من أديس أبابا ومعه خبير ألماني في إصلاح الأسلحة على اختلاف أنواعها. وكان هذا شيئا مهما بالنسبة للدراويش نظرا للحصار الذي كان مضروبا حولهم حتى لا يتمكنوا من استيراد حاجتهم منها.

وقد وصل الخبير الألماني واسمه (أميليو كرش) ومعه (50) خمسون بعيرا تحمل أجهزته وآلاته إلى مركز الدراويش الجنوبية في كبلو مع حراسة حبشية فاستقبله حاكم الدراويش وحمله من فوره إلى تليح عاصمة الدراويش بحرسه في الطريق (2000) ألفان من الجنود.

وقد أحسن الملا استقبال الخبير الألماني وعمل على توفير كل ما يحتاج إليه. وتقول المذكرات: أنه خصص لإقامته من الحجرات بيتا من الحجر ذا طبقتين ويقيم وحده مع خادمه الخاص (السواحيلي الجنسية) وأمر بتوفير كل شيء في بيته من السمن والعسل والدقيق والأرز والشاي واللبن البقري مع

كبش كبير يذبح عنده كل يوم. كما رتب الملا لحراسته (50) خمسين من خاصة الدراويش.

ولقد أدى الخبير المهمة التي أوفد من أجلها وأفاد الدراويش من وجوده أكبر إفادة خلال المدة التي أقامها إلى أن اختفى إثر محاولة للهرب ضل فيها طريقه في 1917/6/24م.

وحين علمت الدول الأوربية بأمر الاتفاق الدراويشي الحبشي أخذت تحرض الزعماء الأحباش على الملك الحبشي ليج ياسو مؤكدة أنه سوف يتزوج ابنة السيد مُحَّمد عبد الله حسن وأن هذا دليل أكيد على أنه أسلم. ونجحت حملة الكراهية ضده وانتهت بأن أعلن كبير الرهبان الأحباش المسمى متريوس عزل ليج ياسو عن العرش في 1334/12/30 هـ الموافق 1916/10/27م وبعدها عادت الحبشة سيرتها الأولى في معاداة الدراويش.

"اتفاق الحماية العثمانية"



لقد كانت الظروف التي اجتازها خلال هذا العام والأعوام التي لحقته من الظروف الشديدة التي تكاتفت ضدهم فيها كل القوى الاستعمارية الأوربية وتخلفت الحبشة عنهم واشتدت في عدوانها لهم بعد عزل ليج ياسو وبعد ما حطمت قلعتهم الهامة في شنبرس وتوالت الحملات لتحطيم مركز الدراويش

في بلدوين حتى يحاصروا ويموتوا من الجوع وخاصة بعد ما نظم الأعداء قواهم من عدن في الشمال إلى كيسمايو في الجنوب.

في هذه الظروف كان على الدراويش أن يتحركوا خارج الحدود ليجدوا لهم نصيرا يستعينون به وقد كان الاتجاه الطبيعي بالنسبة لهم هو الدولتان المحاربتان للاستعمار وهما تركيا وألمانيا.

والمعروف أن تركيا حين دخلت الحرب العالمية الأولى كانت تمثل – على الأقل حتى ذلك التاريخ – فكرة روحية لها تأثير كبير على وجدان الجماهير في أغلب بلاد العالم الاسلامي وهي فكرة الخلافة الاسلامية التي لم تكن أي دولة اسلامية تشعر نحوها بغير العطف والولاء.

ومن ثم بعث السيد مُحَّد وفدا من الدراويش إلى الحاكم العسكري العثماني المقيم في منطقة الشيخ عثمان المتاخمة لعدن لكي يعقد معه الاتفاق على التعاقد الذي يرى أنه محقق لمصلحة الدراويش. ولقد عقد هذا الاتفاق – وكان سريا– ولكن رئيس الوفد بعث به إلى الدراويش مع رجل بدوي عجوز وقع في قبضة سلطان ميجرتينيا فأخذها منه وسلمها – مع نفس الرجل – إلى الحاكم الإيطالي في علوله في أوائل عام 1917م وهذا نص الوثيقة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حرر في 9 من محرم 1335 هـ الموافق 4 من نوفمبر 1916 م.

الموقع على هذه الحماية السنية للدولة العلية العثمانية – أيدها الله بفتحه ونصره- هو الشيخ أحمد شروع بن محمود الصومالي المندوب المفوض المأمور بالتوقيع على حجة الحماية من السيد مُحَمَّد بن عبد الله حسن نور أمير قبائل الصومال بإفريقية الصومالية الغربية والشمالية والنائب عنه والقائم مقامه ومقام التابعين له من العلماء ومشايخ قبائل الصومال والتابعين لهم على العموم بقوله:

إننا نقرر ونعترف لخليفة المسلمين السلطان الأعظم مُحَمَّد رشاد خان الخامس والدولة العثمانية أيدها الله بالحماية المطلقة واليد الطولى القوية لأننا من التابعين لها المتمسكين بعرض الخلافة الإسلامية العثمانية وسلاطينها من آل عثمان العظام أيدهم الله على مر الزمان.

وإننا لا نعترف ولا نقر لغير خليفة المسلمين بتبعية دينية وعلاقة سياسية ونرفض رفضا كليا ما تزعمه دولتا الأنجليز والطليان علينا من المزاعم الوهمية التي لا ظل لها من الحقيقة.

بل نعلن عليهما الحرب المستمرة وقد هزمنا جيوشها في الحروب السابقة المشهورة بيننا وبينهما وإننا لا نقر لهما بحق ولا لغيرهما من دول الاستعمار في أرضنا غير الدولة العلية العثمانية.

نحن النائبون عنها والقائمون مقامها المستقلون بأرضنا المنفذون أحكامنا في حدودنا الأربعة: شرقيا: قبائل الميجرتينيا من الصومال والبحر وغربيا: حدود الحبشة وجنوبا: مقديشو وشمالا : قبائل ورسنقلي والبحر.

هذه حدود أرضنا مستقلين فيها من قديم الزمان المحتوية على جبال ورمال ووديان وسهول ووعور وشعوب وقبائل شتى من الصومال.

وبناء على إعلان الخليفة الجهاد المقدس في هذه الحرب العمومية على دولتي الانجليز والطليان المتفقتين معهما نعلن نحن جهادنا عليهما وعلى كل من قام بنصرتهما ضد خليفة المسلمين. ومن الآن فصاعدا نلزم أنفسنا ونوجب القيام التام بحقوق الدولة العثمانية العلية وما وجب لها علينا ديانة وسياسة من رفع أعلامها وموالاة من والاها ومعاداة من عاداها على حسب ما توجبه علينا ديانتنا الإسلامية بمقتضى الفتوى الشرعية وأن نراعي رضاها ونتجنب كل مداخلة أو محالفة أو مصادقة أجنبية لا ترضيها على الإطلاق.

هذا عنا وعن أبنائنا وأتباعنا ما دمنا ودامت الدولة العلية العثمانية في الوجود، ثم إننا نلتمس من رجال دولتنا العلية العثمانية أيدها الله إعلان حمايتنا ونشرها إلى جميع الدول الأوربية ليعلموا حقيقة احتمائنا بالدولة العلية العثمانية ليؤيدوا ذلك ويثبتوه قياما بواجب الحماية والحرية الواجبتين على كل دولة متمدينة شد أزرها.

كتبنا على أنفسنا وارتضيناه واخترناه بأنفسنا وعاهدنا الله على الوفاء والقيام به لقوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾.

ارتضاه والتزم به من أنابه العمل بعد رضاه "الشيخ أحمد شروع".

قال المستعمرون:

ولم يمض شهران على توقيع اتفاقية قبول الدراويش حماية الدولة العثمانية واتفاقهم السري مع ليج ياسو ملك الحبشة حتى كتب المستعمرون –وخاصة بريطانيا- إلى الملا كتابا خلاصته:

إنك قد ضعفت في الحروب الكثيرة وقد أصبحتم لا تطيقون أن تحاربوا معنا ومع الحبشة والإيطاليين ومع جميع القبائل الصومالية التي معنا.

ولأجل ضعفكم تطلبون من ليج ياسو ملك الحبشة ومن مُحَّمد رشاد سلطان تركيا ومن ألمانيا المساعدة والمصاحبة وكلهم لا ينفعون أنفسهم فضلا على ألا ينفعوكم بشيء. من أجل هذا أنصحكم أن تطلبوا مصالحتنا لأنها وحدها هي التي تنفعكم.

وواضح من أسلوب الخطاب وتوقيت إرساله مباشرة بعد القبض على الرجل البدوي العجوز الذي كان يحمل الرسالة إلى الدراويش بنص اتفاق الحماية التركية واضح أن الهدف كان إشعار الملا بأن المخابرات البريطانية ساهرة، وتشكيكه من ناحية أخرى في الرجال الذين يحيطون به وقد يعرفون أسراره. كما كان يهدف إلى إضعاف الأثر النفسي الذي يتركه عقد مثل هذه الاتفاقات في نفوس الدراويش وإظهاره على أنه شيء لا أهمية له.

ورد الملا قائلا:

في 1335/5/12 هـ الموافق 1917/3/5م.

إلى الانجليز السلام على من اتبع الهدى، أما بعد:

ذكرتم في رسالتكم أن بيننا وبين ليج ياسو وسلطان تركيا وألمانيا علاقات وأننا نحتاج إليهم لمساعدتهم لضعف طرأ علينا.

وتقصدون بهذا الكلام لو أننا أولو قوة لما جرت بيننا وبينهم علاقة، هذا كلام مفهوم وإليكم الجواب.

أقول لكم أيها الوحوش هل تجهلون أو تتجاهلون ما فعلنا في الأيام القريبة بالقبائل التي سلحتموها ثم أرسلتموها لمحاربتنا مثل قبيلة ميجرتين وورسنقلي؟

لا شك أنكم تعلمون!!!

وأعلم أنا كما تعلمون أيضا ما فعله بكم أعداؤكم من الألمان وتركيا الذين انتصروا عليكم في كثير من المعارك في ميادين القتال من ابتداء الحرب إلى اليوم، وأما ما بعد اليوم فلا أحد يعرف نتيجته إلا الله سبحانه.

وأما قولكم لأجل ضعفكم تطلبون مصاحبة الألمان وتركيا فردي عليه أنه إذا فرضنا صحة ضعفنا فهذا شيء نتج عن أعمالكم واعتداءاتكم الوحشية علينا ، تلك الاعتداءات التي شاركتكم فيها دول وقبائل تحاربنا من جميع الجهات ليلا ونهارا بتحريضكم وتسليحكم والجنود الذين استقدمتموهم لمحاربتنا من جميع أجناس البشر من العرب والسودان والسواحيليين والهند

والنوبة وفرنسا وبلخستان، ولولا ضعف فيكم لحاربتمونا وحدكم مستقلين كما حاربناكم وحدنا مستقلين.

ولا يجهل أحد أنكم لما ضعفتم وعجزتم عن مقاتلة ألمانيا وتركيا استعنتم على حربهم بجميع الذين استعنتم بهم لقتالنا كما استعنتم بالروس والأمريكان والصرب واليابان واليونان والسيك والبانيال والأفغانيين والمصريين، وكل هذا دليل ضعفكم واضطراركم إلى الاستعانة فشأنكم شأن العاهرات اللواتي يأخذن الأموال من كل مخلوق لفقرهن وذلهن ودناءة نفوسهن.

وأما مسألة المصالحة معكم فإذا كنتم تقولون ذلك بإخلاص ونية حسنة فارفعوا الحصار عنا قبل كل شيء وأطفئوا النيران التي أشعلتموها ولا تقطعوا طرق القوافل التي تحمل إلينا الميرة والبضائع وكذلك السفن المتجهة نحونا.

ومن طرف آخر أخبركم أن العربي ابن درمون الموجود لديكم في بربرة كنت قد استدنت منه حين وجودي فيها قهوة قيمتها (80) ثمانين روبية لذا أرسلت إليه (200) مائتين ربطة من الجلود فاسمحوا له باستلامها.

في 1917/3/5 م من الدرويش مُحَمَّد بن عبد الله حسن.

"ثورتان لم تنجحا"



(1) ثورة محمود بن يوسف:

وفي هذه الأيام التي كانت الحرب العالمية فيها قد اشتد أوارها وأمضت الثورة الصومالية الكبرى بقيادة السيد مُحمَّد أكثر من سبعة عشر عاما تناضل قوى

الاستعمار في مختلف الجهات برز في الجو المحيط بالدراويش اتجاهات لهما دلالتهما.

أولهما: ضغط الاستعمار بكل ثقله على القبائل الموالية له وإمدادها بالأموال الوافرة والسلاح الذي لا يكاد يحصى لكي لا تدع للدراويش فرصة تستريح فيها وتلفظ أنفاسها.

وقد نفذ هذا بشكل واضح في نطاق القبائل الموالية للمعسكر الايطالي إلى حد كان المشير الطلياني يعقد بين السلاطين الموالين له ما يشبه سباقا في مضايقة الدراويش فما استطاع واحد منهم تحطيم قلعة من قلاعهم ولما فشل الثاني لامه الطليان وظلوا يكرهونه على معاودة الهجوم مرات ومرات حتى يحرز ضد الدراويش أي انتصار.

وكان الأمر كذلك تماما في نطاق القبائل الموالية للانجليز.

وثانيهما: وأما الاتجاه الثاني فهو ظهور تيار جديد مواز في اتجاه للتيار التحرري الذي بدأه الملا والدراويش وإن لم يكن ثمة ارتباط في التدبير بين هذا الاتجاه الثوري الجديد وبين الدراويش.

فقد ظهرت بين الصوماليين في هذا العام ثورتان أحدهما لمهاجمة النفوذ الاستعماري الايطالي واتجهت الأخرى لمهاجمة النفوذ الانجليزي ودخلت الثورتان مع عدويهما في معركة مسلحة.

أما الأولى منهما فهي ثورة السيد الشيخ محمود بن يوسف الصومالي من قبائل أساق وتتحدث مذكرات الملا على أنه كان من أتباع الطريقة الأحمدية

الرشيدية الصالحية (الطريقة الصوفية نفسها للملا والدراويش) وقد تجمع له تلاميذ بلغ عددهم (800) ثمانمائة وكان مستقلا عن الدراويش الكبيرة.
وقد اتخذ هذا الشيخ مركزه في مكان من شبيلة يمسى "معروف" قريبا من إيمي التي انتهى إليها الدراويش بعد انتهاء ثورتهم.
وكانت نهاية ثورة الشيخ محمود بن يوسف يوم 1335/7/21 هـ الموافق 1917/5/12 م حينما هاجم هو وإخوانه الحبشة في بلد يسمى "مغال" فانهزموا أمام الحبشة هزيمة ساحقة واستطاع الشيخ أن ينجو ولكن إيطاليا أمرت أحد عملائها من السلاطين بالقبض عليه ولكنه استطاع الهرب حيث مات أخيرا في البادية، وعلى الرغم من ثورة الشيخ هذه فإنها لم تعمر طويلا إلا أنها أزعجت الايطاليين والأحباش إزعاجا شديدا لأن المركز الذي انبعثت منه الثورة في شبيلة يعتبر مكملا للجزء الحيوي الذي كان يتصارع عليه المستعمرون جميعا والدراويش عند بلدونية وبوذي.

(2) ثورة عبد الرحمن مرسل:

وعبد الرحمن مرسل هو الرجل الذي أرسل إليه السيد مُحَمَّد رسالته المعروفة باسم "مباحث المنافقين" التي أوضح فيها بقلمه فلسفة ثورته وظروفها والدوافع القاسية التي كانت تضطره أحيانا إلى اصطناع الشدة مع من يوالون الاستعمار من الصوماليين.

ويظهر أن الحاج عبد الرحمن بن مرسل هذا كان يعيش مرحلة نفسية من مراحل الشك أو القلق التي يعيشها كثيرون من الثوار قبل أن يضربوا ضرباتهم فلما أوضح له السيد مُحَمَّد في رسالته "مباحث المنافقين" حقيقة الموقف كله زالت عنه حيرته وقام هو الآخر بضرب ضربته.. في الجدار الذي كان الملا يدق فيه، الجدار نفسه المرتفع في وجه استقلال الصومال ووحدته وحريته.

فقد أعلن الثورة على الحكومة البريطانية وقاد تلاميذه وأتباعه لمحاربتها في واقعة "سرنلي" وهي بلدة قريبة إلى "بارطير" وقتل حاكمها وأكثر جنوده واستولى على الأسلحة والذخائر التي كانت بهذا المركز ولكنه كان سيء الحظ فلم تصمد قبيلته "عوليهن" التي بدأت الثورة معه. لم تصمد لمعركة أخرى مستمرة بل سرعان ما استسلموا لعدوهم اللدود.

ومع الأسف لم تلق هذه القبيلة نتيجة استسلامها للعدو سوى الجزء الذي كان يلقاه كل من وثق بالمستعمر ورضي أن يستقبل الحياة تحت لوائه.

فقد حكم الانجليز بالاعدام شنقا على جميع زعمائهم وصادروا جميع ممتلكاتهم وأباحوا نساءهم أسبوعا كاملا لجنودهم.

وقد عاش الرجل في مهجره يصلي ويتعبد ولكن المستعمرين الايطاليين الذين يقدرون خطره خافوا أن تدب الحياة من جديد إلى أفكاره وآرائه فيكرر معهم ما صنعه من قبل مع الحكومة الانجليزية فتخلصوا منه بالطريقة

الاستعمارية القذرة – طريقة الاغتيال- فدسوا له السم في طعامه وكانت نهايته.

1920م وأحداث النهاية:

كان هذا العام بداية النهاية – دون شك – لثورة السيد مُحَمَّد والدراويش ففي هذا العام كانت الدول الاستعمارية التي يقف الملا في وجهها قد خرجت من الحرب منتصرة على القوى التي كانت تواجهها ومن بينهما القوتان اللتان وطد الدراويش علاقتهم بهما وهما تركيا وألمانيا.

كما وجد الدراويش أنفسهم للمرة الأولى في حياتهم يواجهون غارات الطائرات التي لم يكن لهم بها عهد وليست لديهم أية إمكانيات لا لمقاومتها ولا لتفادي خطرها.

وأخطر من هذا وأحسم في نصر المعركة أن أعداء الدراويش من المستعمرين لم يتورعوا في استخدام أبشع الوسائل وأقذرها في حرب الدراويش وهي حرب الميكروبات والجراثيم فقد لوثوا لهم مياه كل الآبار التي يرتدون منها وزرعوا في التراب الذي يمشون فوقه الأوبئة وخطر الأمراض.

ومن هنا وجد الدراويش أنفسهم يموتون بلا قتال بطلا وراء بطل وتهد الأمراض قواهم وتصنع منهم أشباحا عاجزة عن التفكير والتدبير والحركة وغير صالحة لاتخاذ المواقف الفدائية الجريئة الجبارة التي كانت سمة حروب الدراويش.

هكذا بدأ هذا العام..

وهكذا كانت نهاية الأبطال .. فما تفصيل القصة؟!

استخدام الطيران :

بعد انتصار انجلترا في الحرب العالمية بحثت الحكومة في لندن اقتراحا تقدم به الوالي الانجليزي لمحمية الصومال البريطاني المسمى (آرشر) حاكم بربرة ومستشاره المخلص له الحاج موسى فارح (أغره) الصومالي وخلاصته:

أن على الحكومة أن تستخدم الطائرات في حرب الدراويش حتى تضمن القضاء عليهم حيث لا يجدون ما يقاومون به ولا يعرفون كيف يهربون منه وإلا فلتعلم الحكومة أن السيد مُحَّمد والدراويش يستعدون للاستيلاء على بربرة العاصمة بدليل أنهم عدلوا مكان المركز الرئيسي من العاصمة "تليح" إلى "ملسن" وهي من الحصون التي تتبع قيادة جيدل وبدليل أن السيد مُحَّمد يتخذ عدته لبناء أسطول بحري حيث أصدر أوامره بقطع الأشجار الكبيرة في المنطقة المطلة على خليج عدن كي تصنع منها السفن.

الإعداد للمعركة:

وقد استجابت الحكومة لهذا الاقتراح وقررت تنفيذه على الفور وبدأت ترسل إلى السلطان الموالي لها وإلى الحكومة الايطالية لتنسيق خطة العمل وهذا نص الكتاب المرسل إلى سلطان المجيرتين:

في 13 من يناير 1209م.

من حاكم بربرة سلطان مجيرتين عثمان محمود بعد السلام.

لقد طالعت كتابك المرسل مع الكولونيل سمر المحرر في بركال نوفمبر 1918م الذي طلبت مني فيه أن أعرفك حينما تريد غزو الملا.

اعلم أننا سنحاربه الآن وقد أخبرناك لتستعد لقتاله ونحن مستعدون لبدأ القتال وحكومتنا أرسلت لنا عساكر وطيارات لكي نتقوى بها على غزوه في جيدل في 21 الشهر الجاري ونهلكه كما فعلنا بحصنه في شنببرس ونرجوا أن نتخلص منه إلى الأبد لأجل أن تكون البلاد الصومالية بلاد أمن واطمئنان مثل البلاد الأخرى.

ونحن واثقون بأننا سنأخذ أمواله وبلاده ولكن البلاد كبيرة ولعله أن يخرج من طريق آخر مع قواده وكبار رجاله فإذا صار الأمر كذلك فواجب عليك أن تساعدنا وتنصرنا وتخبر عساكرنا عن مكانه لكي يقبضوا عليه أو يقتلوه.

وأخبر أصحابك أننا جعلنا مكافأة كبيرة لمن يقتله أو يقتل كبار أهله وقواده وأسماءهم مكتوبة في الورقة الملصقة بهذه الرسالة وأعرفك أننا نقدم (10000) عشرة آلاف روبية لمن يقتله أو يسلمه إلينا.

وإذا وصلك كتابي هذا فاحضر إلى بندر قاسم لأنه لا يقدر غيرك أن يقوم بهذه المهمة وسنرسل لك بارجة إلى علوله تحملك إلى بندر قاسم ولك سلامي الكثير.

من الوالي (آرشر)

رد السلطان عثمان:

في 18 من يناير 1920م الموافق 27 من ربيع الثاني 1338 هـ،

إلى العالي الكبير نتو صومال لين – بعد السلام:

تلقيت رسالتك المحررة في 13 من يناير الجاري وفهمت ما فيها من استعدادك لمحاربة الملا وما جهزت له من الطائرات والآلات المحرقة والقوة وهذا أمر طيب ولكن أعرفك لقد وصلتني أخبارك فجأة ولذلك لا أستطيع في المدة التي ذكرتها لي تجنيد القوات التي كنت أستطيع تجنيدها لو وصلتني أخبارك في وقت مبكر والآن لا أقدر أن أفعل ما كنت أفعله لو كان لي علم سابق بالحالة.

ثانيا:

أخبرك أنه إذا هرب من جيدل يهرب إلى حصونه في إيل والك وكيع ولذا أرسلت ألفين من جيشي ليختفوا له في طريقه ثم يقتلونه أو يقبضوا عليه فجأة.

وأفيدك أيضا أني كنت من قبل رسالتك هذه محاربا له وحصنت حدودي لأجله وأقواها "طرور" والناس أتباعي هناك في مقدورهم أن يعاونوكم إذا هرب إليهم.

وكذلك أريد أيضا أن نكون يدا واحدة وأنا سأعاونكم بجهدي حتى نزيل عدونا الوحيد من الدنيا كلها.

ثالثا:

يقول كثير من الناس أنه يهرب إلى عندي في "باركال" ويستسلم لي فإذا فعل ذلك فأنا أقتله أو أمسكه وأقوم بالواجب علي حتى تعود أرضنا إلى أمنها.

ومن قبل لما طلبتم أنتم والطليان مني أن أحاربه فقد حاربته وانتصرت عليه حتى خرج من أرضي والقذائف التي سوف ترميها طائراتكم تكون خوفا للخائنين وتشجيعا للمطيعين والمكافآت التي وعدتم بها مناسبة وطيبة والملا مضى وقته وأصبح التخلص منه قريبا وجاء لنا وقت الحرية.

وأيضا أفيدك أن بندر قاسم ليس فيها عساكر لنا بل أن عساكرنا كلها في طرود لأجل المحافظة على حدودنا وأيضا في بندر قاسم مرض الجدري ولذلك لا يمكنني أن أجيئ إلى هناك.

ولك سلامي الكثير.

من السلطان عثمان محمود يوسف.

إنذار إلى الدراويش:

وبعد اتخاذ الترتيبات العسكرية وجه الحاكم العسكري الانجليزي هذا الانذار إلى الدرويش يغريهم فيه بالاستسلام ويحطم روحهم المعنوية وهذا نصه:

صادر من الحاكم الانجليزي إلى الدراويش التابعين للملا اسمعوا أخباري:

جاءت الساعة التي يهزم فيها الملا وهو فتان يهلك البلاد ويد الحكومة طويلة واعلموا أني أعلنت عليه الحرب وعلى الذين معه من خاصة الدراويش رجاله ولم أعلن الحرب على جميع الرعية.

وكثير من الرعية هرب عنه فأعطيناهم الأمان وكثير منهم أعطيناهم أعمالا وكثير منهم صار إلى حيث يشاء ولم نأخذ الأسلحة التي هربوا بها منه.

وإذا هربتم من عساكري سوف لا أسامحكم، والخيالة والهجانة التابعون لي يمشون في كثير من الأماكن أما الملا وكبار رجاله فلن أسامحهم.

ثم أرفق بالانذار ورقة فيها أسماء كثير من الدراويش جعل المكافأة لقتل بعضهم أو تسليمه (500) خمسمائة روبية ما دون ذلك حتى (100) مائة والبعض الآخر وهو القليل رفع المكافأة عليه إلى (5000) خمسة آلاف ومنهم الحاج أحمد سود الذي كان سابقا ترجمانا عند الانجليز ثم انضم إلى الدراويش.

"المعركة المشئومة"



ففي صباح الأربعاء 1338/5/1 هـ الموافق 1920/1/21 م فتحت الطائرات البريطانية نيران مدافعها على الدراويش في مستقرهم الجديد في "ملسن" وقتلت قذائفها في هذا اليوم أربعة هم:

عامر بن الشيخ حسن نور – عم السيد مُحَمَّد.

والرجل المسن: افقرش.

وإسماعيل حاج جامع .. وفتاة تسمى فاطمة بنت الشيخ موسى.

ثم واصلت هجماتها صباح مساء على الدراويش في كل مكان توجد تجمعاتهم فيه وفي كل مكان يسمى "عيل طير" قتلت (200) مائتين من الخيول.

وتوالت بعد ذلك الغارات وأسفرت عن هزيمة الدراويش الشمالية ونهب جميع حيواناتهم وعتادهم من أسلحة ورشاشات ومدافع وإبل وبقر وأمتعة وأثاث ولم يسلم سوى الخيول التي أمر السيد مُحَّد أن يهربوها إلى الدراويش الجنوبية.

وتشتت الدراويش حتى أصبحت كل فرقة منهم تسلك الطريق الذي تراه دون ارتباط بالفرق الأخرى بل أن السيد مُحَّد نفسه سلك طريقا مجهولة ليس فيها مياه وكان معه بعض خاصته من الدراويش.

وتابعت الجيوش الانجليزية الكثيرة أثر كل فرقة من هذه الفرق وقتلت في مكان يسمى "بحن" ومكان آخر يسمى "كروو" حوالي مائة من الأطفال والعلماء والشيوخ ، كان من بينهم 7 سبعة من أولاد السيد مُحَّد لم يبلغ أكبرهم الخامسة عشرة وكلهم كانوا يحفظون القرآن. كما أسرت العساكر حوالي (1000) ألف من غير القادرين على الهرب أو حمل السلاح ومن الأطفال والنساء من بينهم بعض زوجات السيد مُحَّد وهذا كانت المعركة

أشبه بحرب الإبادة بالنسبة للدراويش الذين وجهوا للمرة الأولى والأخيرة خلال كفاحهم الطويل المشرف أقسى هزيمة في تاريخهم.

موقف الملا:

أما السيد مُحَّد فإنه حينما وصل إلى مكان يسلمى "كلطيغ" من أرض "هود" أرسل من فوره إلى جميع القوات المرابطة داخل الحصون على المحيط الهندي وأمرهم فورا بالانسحاب منها إلى مراكز الدراويش الجنوبية.

كما أرسل إلى حاكم الدراويش الجنوبية يخبره بكل تفاصيل المعركة ويطلب إليه الاستعداد لمقابلة القوات المنهزمة من كل ناحية ومقابلتها في الطريق بالمياه والأغذية كما أمره أن يجمع قواته في مكان واحد استعداد للطوارئ.

وكذلك أرسل من مكانه في "كلطيغ" رجالا من خاصته في مختلف الطرقات لملاقات فلول الدراويش المنهزمة واستدعائها إلى مكان السيد مُحَّد الذي لم يكن يعلمه أحد سوى خاصة الدراويش خوفا من غارات الطائرات عليه.

رسالة من "آرشر " المنتصر:

وفي 1920/2/17م الموافق 1338/5/28هـ تلقى السيد مُحَّد من الوالي الانجليزي المنتصر رسالة يدعوه فيها إلى التسليم ويمنحه الأمان أربعين يوما وهذا نصها:

من الوالي إلى الدروايش مُحَّد عبد الله حسن:

أخبرك أنك شيخ صومالي وأنا والي انجليزي ولست أريد أن أقتل الصوماليين وأن أسلحتكم ليست كأسلحتنا وقوتنا ليست كقوتكم ولقد خرجنا من الحرب العالمية منتصرين على تركيا وألمانيا. لأجل ذلك فإننا لسنا متساوين في القوة.

ومن قبل ذلك كنتم أمة قوية لذلك لم يكن من الضروري أن أكتب إليكم مثل هذا الكتاب والآن انعكست الحالة وجميع الناس أصبحوا أعداء لكم لسوء فعالكم.

فمن جهة يجاوركم بغر عثمان ومن جهة أخرى يجاوركم علي بن يوسف وتعلمون أنهما من أعدائكم ولا تستطيعون أن تتقربوا إليهم ومن جهة الحبشة راح –ليج ياسو– ويحكمها بدلا عنه صاحبي – الرأس تفري "الملك هيلا سلاسي" وأنا وهو اتخذنا معا اتفاقيات.

وتعلمون أنكم اليوم لا تطيقون محاربتي وقد مات منا رجل واحد في "بطن " وتعلمون أنتم ما خسرتم وأنا أعلم كذلك.

ياوداد[11] أنت اليوم لاجئ وأهلك في يدي وقد اختفت رؤساؤكم وأولادكم وجميع صونكم وأسراكم اليوم عندي وقد أعطيتهم الأمان لأني لا أقصد قتل الصوماليين ولأجل ذلك أقول لك الآن:

إذا سلمت نفسك كما فعل كثير من رجالكم في ظرف أربعين يوما من هذا اليوم سأعطيم الأمان وأنا الوالي الانجليزي وأحافظ على كلمتي وسأعطيكم

---

[11] يا وداد : يظهر أن هذا لفظ صومالي – ولست أدري ترجمته بالعربية. (بيت المقدس : يعني يا شيخ)

محلا تسكنون فيه وتؤدون فيه وظيفة طريقتكم الصالحية من أذكار وغيرها وتتعلمون فيه أمور دينكم.

أنا لا أريد أن أتدخل في شئون دينكم ولكني أريد الحكم على الناس ولو سألتم عنا أمثال الشيخ إسماعيل وغيره من المشايخ الذين معنا لأخبروكم بجميع الحقائق عنا.

إن هذا الأمان مدته أربعون يوما فقط وأنا لا أريد أن تطول الحروب بيننا ولكن قصدي هو المصالحة بين الصوماليين وإذا سلمتم أنفسكم إلى عساكري فإنهم يوصلونكم عندي بأمان ولا يقدر أحد من رعيتي أن يضركم بشيء.

وإذا أردت أن تكتب لنا كلاما فإن هذا لا ينفع في هذا الوقت بل مضى وقته وإذا لم تجيئوا في هذه المدة فأفهم أنكم لا تريدون الأمان. وهذه الورقة سلمتها ليد زوجتكم.

من آرشر الوالي الانجليزي.

وكان رد الملا:

من "كلطيغ" في 1338/7/6هـ الموافق 1920/3/25 م.

"الحمد لله أكتب هنا كلاما من رجل مظلوم هو مُحَمَّد بن عبد الله حسن إلى ظالمه. وبعد:

قد تلقيت كتابك هذه الليلة وهذا جوابي عنه:

قلت أن الدرويش قد ضعفت وأنا بقيت وحدي منفردا عن الرفقاء وتفرق عني أصحابي وأنه مات منكم في المعركة رجل واحد وأنكم أسرتم أهلي وقوادي وقرابتي وعرفتموني أنكم انتصرتم على ألمانيا وتركيا وأن قصدكم هو أن تبعثوا بي إلى أهلي الذين أسرتموهم وأنكم لا تريدون لي أمنا بدون الاستسلام لكم.

هذا مضمون كتابتكم وجوابي عنه:

أن قولكم أن الدراويش قد ضعفلت لا أقول صدقتم أو كذبتم لأن القوة كلها لله وحده يعطيها من يشاء ويسلبها ممن يشاء.

وأما قولكم تفرق عني أصحابي وبقيت وحدي فجوابي عنه: أن الذين فارقوني واستسلموا لكم فهم الذين لا ينفعونني بشيء وبقي عندي الذين ينفعونني وهم كثيرون ولا يريدون أن يفارقوني حتى الممات".

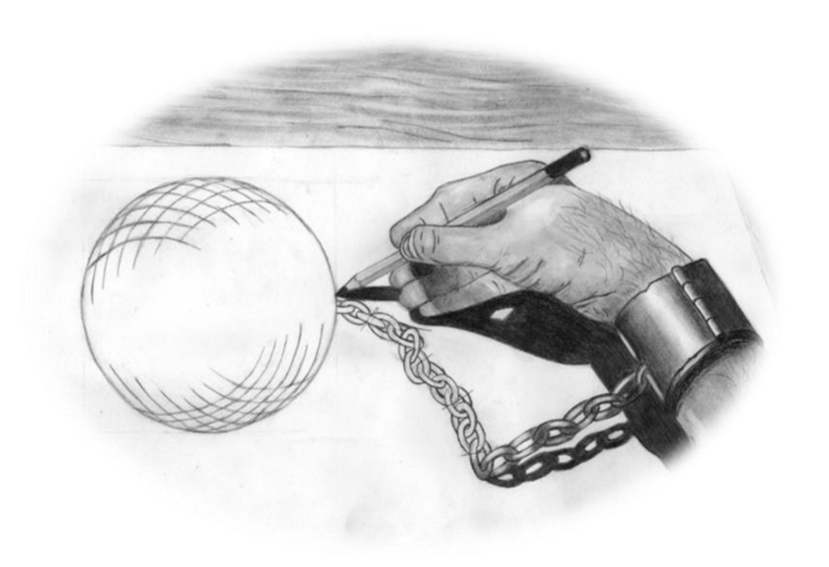
ومضت رسالة الملا في تعليقات من هذا القبيل حتى قال:

"... إذا كنتم تريدون بي خيرا وتريدون الوفاء بالشروط التي نتفق عليها فلماذا تأمرونني بالاستسلام لكم؟ ولم لا تقولون لي نريد أن تكون في مكانك بين رجالك وأقاربك دون أن تثير ضدنا أية حركة ثورية؟!

"والحاصل إذا أردتم بنا خيرا، فأوقفوا عنا جيوشكم حتى نكتب لكم رأينا في هدوء وطمأنينة وفي هذه المدة كل ما يقع من التحركات ضدكم تكون مسؤوليته علينا ولن نغزو على رعاياكم الحقيقين.

(الرسالة دون إمضاء).

"مبعوثون في طلب الاستسلام"



كان الجنرال الانجليزي حريصا على أن يستسلم له الملا بجميع الوسائل ولذا شفع رسالته السابقة بإرسال وفد من كبار الزعماء ومشايخ الطرق الصوفية ليحموا إلى الملا مقترحات الحاكم الانجليزي شأن إلقاء السلاح وتكون الوفد من الآتية أسماؤهم:

1-الشيخ إسماعيل بن الشيخ إسحق – رئيس للوفد وهو شيخ الطريقة الصالحية في بربرة.

2-الشيخ مُحَّمد حسين الملقب (جرد) وهو شيخ الطريقة الأحمدية في بربرة.

3-الشيخ عبد الله بن الشيخ مدر – وهو شيخ الطريقة القادرية في هرجيسة.

4-العاقل علي آدم.

5-العاقل جامع بن بدر.

6-العاقل حاج إبراهيم ورسم.

7-العاقل حرس بن حسين.

8-العاقل جامع عبد الله جامع.

9-العاقل أحمد بن يسين.

10- العاقل علي بن قوليد.

يصحبهم: القاضي الشيخ علي كوحا والشيخ عثمان اللذان حملا رسالة الملا إلى الوالي.

"شروط الوالي الانجليزي للصلح"



وكانت مع الوفد رسالة جاء في مقدمتها إن احترام الوفد مما توصي به الديانات وقد احترمت وفدكم فأرجعوا إلي وفدي سالما. وكان من الشروط التي كتبها الوالي للسيد مُحَّد في هذه الرسالة:

1-الاستسلام للحكومة.

2-أن يمنح الأمان في مقابل ذلك.

3-أن ترد إليه الحكومة جميع أولاده ونسائه الذين في قبضتها الآن.

4-أن ترد إليه جميع ما نهبت من حيواناته وتقدر له نقودا سنوية.

5-أن تيسر له الحكومة في كل عام الحج إلى بيت الله الحرام.

6-أن تقطع له الحكومة قطعة من الأرض يؤدي فيها وظائف دينه الاسلامي.

وفيما يتصل بنفوذ الملا على الرعية نصت الرسالة على أن الحكومة تريده أن يكون مثل بقية مشايخ الطرق التي ترعاها ولا تريد ألا يكون مثلهم واحدا من رعاياها.
ولذلك لا تسمح له بأن يحكم الرعية بل أن حكم الرعية سيكون لرؤساء القبائل وليس لحملة الشريعة الإسلامية من العلماء أن يتدخلوا في الحكم في الرعايا وإذا حدث خلاف بينكم وبين رعيتي فإن الحكومة هي التي تتولى الفصل في ذلك بالعدل والانصاف.

تبديل هذه الرسالة:

وجدير بالذكر أن رئيس الوفد هذا وهو الشيخ إسماعيل كان رئيس الوفد الذي بعثه المستعمرون إلى مكة ليشكوا الدراويش إلى الشيخ مُحَّد صالح وهو الذي حمل الرسالة المزورة من مكة وأذاعها على جميع القرى والبلدان وكان هو الرأس المدبر وراء مؤامرة عنجيل كما سبقت الإشارة إلى كل ذلك وكان داهية فطنا ولذا حاول الاعتذار عن رياسة الوفد بل عن الاشتراك نهائيا في هذه المهمة وقال للوالي:

لست أعتقد أني أعود سالما وأن الدراويش تتركني إن رأتني لما تعلم ولكن الوالي أصر ودفع إليه بالرسالة السابقة التي لم يكن يعرف تفصيلاتها غيره أحد من أعضاء الوفد.

وإزاء إصرار الوالي ويقين الشيخ مما ينتظره من شر إذا واجه الملا والدراويش بما فيها من مقترحات قرر أن يبدلها بأخرى لا يكون فيه أي شيء مما يثير الدراويش ولا يتنافى مع ما هو معروف عن الملا من إباء واعتداد بحريته وكرامة بلاده.

واستعان الشيخ بصومالي كان يعمل كاتبا للوالي ودفع إليه من ماله الخاص فكتب له رسالة ليس فيها كلمة واحدة مما يهيج غضب السيد مُحَمَّد من ذكر الاستسلام وما إليه وإنما هي دعوة إلى الصلح فقط باعتباره حاكم دولة مستقلة تريد الحكومة أن ترد إليه جميع ما أخذ منه ولذا – فقط – تريد منه بيانه ... بالحقيقة!! وختم الرسالة بخاتم الحكومة.

وفد الوالي يواجه الدراويش:

وفي التاسع عشر من رجب 1833 هـ الموافق 7 من أبريل 1920م سافر الوفد ليقابل السيد مُحَمَّد والدراويش وكلما مر بقلعة من قلاع الدراويش بعثت معه من يصل به إلى القلعة التالية حتى نزلوا قلعة "فرحي" فاستراحوا بها يومين حيث جاء لمقابلتهم (20) عشرون فارسا من قبل

السيد مُحَّد فجردوهم من سلاحهم واصطحبوهم إلى "شنيل" القلعة التي فيها السيد مُحَّد والدراويش.

وحينما وصل الوفد هناك خرج إليهم السيد مُحَّد ومعه من الدراويش حوالي (1000) ألف بكامل أسلحتهم، ووقف الوفد على بعد سبعين مترا وساد المكان الصمت لا الدراويش يقولون شيئا ولا أعضاء الوفد يتكلمون حتى تحدث الملا وكان أول حديثه هو الإذن لهم بالنزول عن الجمال وعن ظهور الخيل ثم أذن لهم فجلسوا بين يديه وإذ ذاك دار بينه وبين أعضاء هذا الوفد عامة ورئيسهم خاصة حوار نسجل منه هذه الفقرة الخاطفة – وصلت إلينا – من حواره مع رئيس الوفد الرجل الذي باع من قبل للشيطان كل شيء من أجل عطاء وكساء.

قال السيد مُحَّد: يا شيخ إسماعيل ما هذه العمامة التي على رأسك؟

هي سنة الرسول ﷺ.

وما هذه المسبحة التي في يدك؟

هي وظيفة السيد أحمد بن أدريس (يعني شيخه في الطريقة الصوفية).

وما هذه الجبة الحمراء التي نقشت بالذهب؟

هي من الخلع التي أنعمت بها علينا الحكومة.

وما هيه البندقية التي كانت معك؟

هي من بنادق الحكومة الانجليزية.

فقال السيد مُحَّد:

وهل يمكن أن تكون مع الرسول والأولياء من جانب. ومع أعدائكم الكفار من الجانب الآخر؟

أيمكن أن يجمع النار والماء في وعاء واحد؟ !! أتقدر أن تخادع الله بالعمامة والمسبحة؟!!

أتعلم المواقف التي وقفتها لمناصرة الكفار علينا؟!!

وأضاف الملا:

يا شيخ إسماعيل إن حظك اليوم لحسن حيث اجتمعت بك في هذا المكان ولك – صفة رسول يحمل رسالة إلينا لا نملك إلا أن نرده بسلام ولولا ذلك لكان معك شأن آخر.

ولم يجب الشيخ بكلمة.

ثم تحول السيد مُحَّد إلى بقية أعضاء الوفد الذين يعرف جيدا تاريخهم ومواقفهم من الاستعمار ومن الجهاد المقدس في سبيل الاستقلال الصومال ووحدته.

تحدث إليهم فغمز كل منهم وآلمه..

وكانوا يطرقون جميعا كما أطرق شيخهم إسماعيل وكأنهم مجرمون ساقتهم أقدامهم فجأة إلى ساحة الإعدام.

"شروط الملا لوقف القتال"



وانتهت إقامة الوفد وعاد يحمل هذه الرسالة من السيد مُحَّد إلى الوالي الانجليزي متضمنة شروطه التي يراها ويصمم عليها لوقف القتال وهي في مجموعها لم تخرج عن الإطار الذي قامت عليه الثورة الصومالية الكبرى وهذا نصها:

إلى الوالي الانجليزي آرشر – السلام على من اتبع الهدى وبعد:

إذا أردت المصالحة فإني مستعد لقبولها بالشروط الآتية:

1-أن تردوا إلي جميع ما نهبتم من الحيوانات الكثيرة العدد والمختلفة الأجناس في ملسن.

2-أن تردوا أيضا جميع الأسلحة التي نهبتموها أيضا (ذكرها بالتفصيل)

3-أن تردوا لي جميع ما عندكم من الأسرى وكذلك العصاة الذين فروا بأسلحتهم وخيلهم.

4-أن تتركوا لي جميع بلادي بحدودها التي تعرفونها.

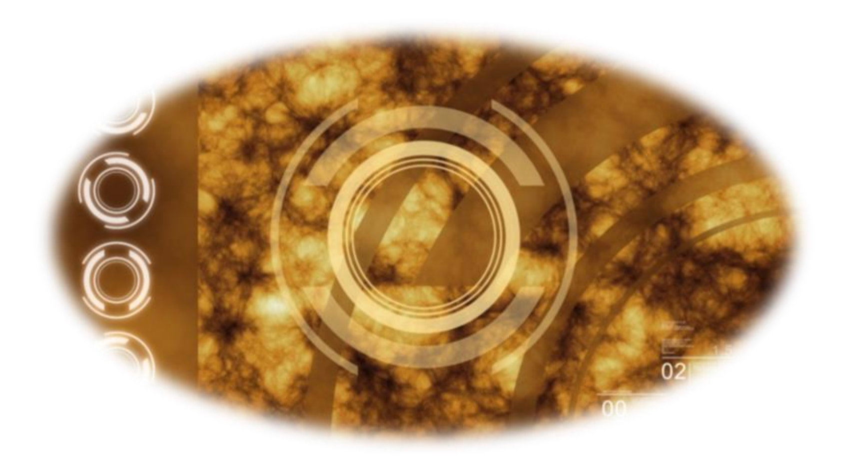
5-أن تصلحوا جميع الحصون والقلاع التي هدمتموها وتعيدوها كما كانت.

6-أن تحولوا بيننا وبين القبائل التي كنتم تحرضونها علينا .

من مُحَمَّد بن عبد الله حسن الدرويش.

حرر في 1338/8/28 هـ الموافق 1920/5/16 م.

"السلاح القذر"



ولما عاد الوفد إلى الوالي الانجليزي يحمل رسالة السيد مُحَمَّد بشروطه واقتراحاته أيقن أن استسلامه من الأمور المستحيلة ويبدو أن الرجل كان يبني في خياله قصرا من الأوهام يتصور فيه نفسه وقد استطاع أن يحول الثائر الجبار الذي دوخ حكومته وحليفاتها أعواما وأعواما إلى كومة من حطام ترتشف ما بقي لها في الحياة من فيض مناهله.

فلما رفض الملا أن يركع واستمر حتى في أخطر مراحل حياته وأقساها يرفض أن يستسلم انهار قصر الأوهام وتبدد الأمل.. ومن ثم ثار الجنرال آرشر وقال لخاصته:

سأمحوه من الوجود بسلاح لم يجربه من قبلي أحد.

”   “

الجراثيم والسموم في موارد المياه



وكان السلاح الذي استخدمه آرشر هو السلاح القذر الذي تعارفت كل الدول على أن تحارب استخدامه وتمتنع عن استعماله مهما تكن الظروف وهو حرب الميكروبات والجراثيم.

إن الأعداء الذين لم تستطع طائراته وجيوشهم الجرارة أن تهزم الملا والدراويش ألجأهم حقدهم عليه إلى النزول إلى درك يجعل انتصارهم عليه ملطخا بالعار.

فقد انتقل الملا والدراويش إلى المركز الجديد في "هرشكح" وكان ذلك مباشرة عند عودة الوفد الذي أرسله آرشر لوقف القتال ثم عاد

بالخيبة. عندما وصلوا إلى المركز كانت هناك الأمراض الوبائية والسم في انتظارهم.

ففي منتصف شهر مايو من عام 1920م تلقى السيد مُحَمَّد من المركز في "هرشكح" أن جميع الدراويش أصابتهم أمراض خطيرة متنوعة منها الجدري ولا يكاد ينجو من يمسه المرض.

وفي شهر يونيو من العام نفسه تفشت الأمراض بشكل وبائي فكانت تحصدهم حصدا لم يعرفوه من قبل ولم يعرفوا أبدا كيف تكون مقاومته.

وبسبب هذه الأمراض التي دس المستعمرون جراثيمها في مياههم مات ألوف من الرجال والنساء والأطفال وفقد الدراويش مجموعة غير قليلة من خيرة قوادهم ومنهم القائد خليف بن عبد الله حسن شقيق السيد مُحَمَّد ومنهم العلامة الشيخ موسى بين عبد الله حسن الذي قال السيد مُحَمَّد عند دفنه: "لقد دفنا اليوم المذاهب الأربعة وكثيرون وكثيرون".

ولقد مات بهذه الأمراض من أسرة الملا وحده أي من شيخ حسن نور (200) مائتين بين رجال ونساء.

وكان السيد مُحَمَّد الملا كلما دفن واحد منهم يقول : "الحمد لله إذ مات فلان في الإسلام ولم يستسلم للكفار".

الضرب في الميت:

وحين استيقن المستعمرون أن سلاحهم القذر قد أثمر وأن جيوش الأمراض تكفيهم كل يوم ما عجزوا ويعجزون عن الوصول إليه... عندئذ فكر الوالي الانجليزي أن يؤلف جيشا من المرتزقة وجامعي فتات الموائد ليقومو بهجوم وحشي على الدراويش المرضى الذين لم تبق فيهم الأوبئة سوى بعض الهياكل التي تنتظر الموت.

وفي 1338/10/28هـ الموافق 1920/7/14م. تحرك موكب الجزارين وكان تعداده عشرة آلاف.. تحرسهم الطائرات وتعطيهم الأسلحة الثقيلة والخفيفة ليهاجموا المرضى الذين لم يبق فيهم من شدة المرض سوى اسم الدراويش.. ولست بحاجة إلى أن أعرض للنتيجة فبوسع القارئ أن يتصورها فإن أفظع تصور لها في رأيه لن تكون بحال في مستوى الواقع.

وأشهد لقد شعرت بكثير من الاشمئزاز والازدراء حين يجد المستعمر في يديه القوة في لحظة ما ويشعر أنه المنتصر في المعركة التي يدخلها ضد مريض مجروح... فيأبى إلا أن يمارس إسفافه ووحشيته كما حدث في آخر مجزرة تعرض لها الدراويش.

ولقد كان اشمئزازي وازدرائي أشد وأعنف لأولئك الذين تجمعهم بالملا وحدة الجنس والوطن والمصير... فما راعوا حقا لجنس ولا وطن ولا مصير.. إن كثيرين وكثيرين من السواعد التي ارتفعت لتقتل في

الدراويش المرضى أو تنهب من أموالهم كان أصحابها – إبان سطوة الدراويش– يخافون أن يتجهوا ناحية الدراويش حتى ولو كانت القبلة في طريقهم.

فلما مرضت الدراويش وطحنتها الأوبئة خرجت هذه الحشرات الجائعة لتستعرض نفسها في الميدان.

"النهاية"



وبعد المجزرة التي حدثت في 1920/7/14م سار الملا ومعه بقية رجاله ألف بما فيهم من نساء وأطفال، واتجهوا إلى "إيمي" على الحدود الحبشية ومن هناك بعث السيد مُحَمَّد رسالة إلى الرأس تفري "الملك هيلا سلاسي" للمصالحة والمسالمة فبعث إليه الملك وفدا يؤكد له أن الحبشة لن توجه له أي هجوم وإن كانت لا تستطيع أن تعده ببذل المساعدة له.

ولقد أخذ هؤلاء الذين قدموا مع السيد مُحَّد إلى إيمي يتساقطون صرعى واحدا وراء الآخر عشرات في كل أسبوع حتى راح أكثر من نصفهم في شهر واحد.

وفي ليلة الثلاثاء 1339/4/10 هـ الموافق 12/21/ 1920 م توفي السيد مُحَّد بن عبد الله حسن نور قائد حرب التحرير الصومالية الكبرى التي استطاعت برغم نهايتها القاسية أن تفرض على الأوروبيين احترام الرجل الأسود ورعاية حقه في الحياة كما استطاعت برغم نهايتها القاسية كذلك أن تكشف للشعب الصومالي الكبير وللحرية والتاريخ عن مدى عظمة هذا الرجل الذي كان في أسوأ الظروف ثورة عظيمة ذات فلسفة وإيديولوجية منحتها قوة الدفع المتصل طوال عشرين عاما.

توفي هذا الصومالي العظيم بسبب السم الذي شربه في مياه "هرشكح" ودفن في قلعته في "إيمي" وكان حتى وهو جثة هامدة مبعث أرق شديد لرجال الاستعمار الذين كانوا يريدون أن يظفروا به حتى ولو جثة هامدة وحتى بعد موته بأحد عشر عاما.

ولكن خاصته الدراويش لما سمعوا بذلك نقلوا جثته حيث دفنوها في مكان لا يعرفه أحد غيرهم وبعض أهله حتى اليوم.

فهرس

بيت المقدس